دراسات لغوية

علم اللغة العام

دكتور توفيق محمد شاهين

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

رجب سنة ١٤٠٠ هـ ـ مايو سنة ١٩٨٠ م

جميع الحقوق محفوظة

أم القرى للطباعة والنشر
٣٩ شارع الزراق ـ الساحل
ت ٦٨٥٣٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان »

صدق الله العظيم

تقديم

يحاول الانسان جاهدا كشف الأسرار التى يزخر بها الكون ، وتستثير عقله ، عله يظفر بأثارة من علم ، فتدفعه الى مزيد من البحث والكشف .

وقد جرت محاولات جادة — لدراسة مظاهر السلوك الانسانى ، واللغة من اهم هذه المظاهر ، ومن ثم فهى جديرة بالدراسة ، ما دامت مرتبطة بالانسان ، وفى مقدمة نشاطاته ، وعنوان حركة المجتمع . ولذا أولاها الانسان منذ القدم وحتى اليوم اهتماما واسعا ، لفهم (ديناميكيتها) ، والتعرف على جوانبها المختلفة : من أصوات ، ومفردات ، وقواعد ، ودلالة ... الخ .

والمفكرون واللغويون والباحثون ، على امتداد العصور حاولوا — ومازالوا يحاولون — ازاحة الستار عن كثير من الغموض ، الذى اكتنفه جوانب اللغة البشرية بخاصة ، ولغة الحيوان بعامة ، وكللت جهودهم بالنجاح فى الاجابة على بعض الأسئلة وبقى بعضها قيد الدراسة والبحث .

والكتابة عن اللغة بواسطة اللغة أمر شاق للغاية ، وحتى أصبح للدراسات اللغوية لغتها الخاصة ، التى تسمى : (ما وراء اللغة . Metalanguge) ، ولكن فى سبيل المعرفة والتقدم العلمى تهون المشقات .

وللصلة بين علوم اللغة والعلوم الأخرى : العلمية ، والانسانية ، والاجتماعية ... تقدمت دراسة العلوم اللغوية ، واولع بها الكثيرون ، واصبح (علم اللغة) فى وقتنا الحاضر جزءا لا يتجزأ من منهج الدراسة فى كل قسم من أقسام اللغات الحية . كما عنيت به الجامعات العربية — وبعض جامعاتنا — عناية فائقة ، وانشئت له المعامل والمختبرات والوسائل التى تعين على الانجاح وبلوغ الهدف . وظهرت النظريات والنتائج على نحو اكاديمى للمتخصص ، للاستعانة بها فى ابحاثه ودروسه . وعلى نحو مبسط لغير المتخصص للاستمتاع بشىء جديد من فروع المعرفة الانسانية .

والسر فى أن الدراسات اللغوية حظيت قديما وحديثا برعاية وعناية متواصلة ، أن التساؤلات حول اللغة — ونعنى بها : كل اللغات — كانت كثيرة ومثيرة وعسيرة فى نفس الوقت :

فما هى طبيعة اللغة ؟ وما مقوماتها ؟ ومتى أصبحت ظاهرة انسانية ؟ وكيف تتكون ؟ وما علاقتها بالفكر ؟ وهل لها اصل واحد ام عدة اصول ؟ وكيف انتشرت ؟ وكم عـــددها ؟ وكيف تتغير فى اصواتها وقواعدها ، ودلالة مفرداتها ؟ وعلى اى اساس تنشأ اللهجات وتتوزع ؟ وهل هناك فروق بين نوعيات اللغة حين تستعملها طبقات اجتماعية معينة ؟ وهل يمكن التوصل الى طريقة آلية للترجمة حين تتشابه اللغات ، لنواكب سير الجديـــد والحديث فى دنيا الفكر والثقافة ؟ وهل يمكن اختراع لغة عالمية ، يكتبها ويتكلمها الناس جميعا ، لنتخلص من مشكلة تعدد اللغات ، وتصفو القلوب عند تقـــارب المشارب والمنـــازع ؟

وهناك ضوابط وقواعد قديمة تناولها الأقدمون ، من وجهات نظـــر مختلفة اعتمادا على الذوق والحس قديما ولكن — فى ضوء التقـــدم العلمى والتقنى — تناولها العلماء المحدثون من وجهات نظر جديدة ، فى ضوء ابحـــاث متقدمة لعلوم أخرى ، فهل يواكب الركب العلمى الحديث ، عسى أن يسفر ذلك عن نظرة واسعة جديدة ، تفيد منها كتبنا اللغوية ؟ وحتى نصـــبح على صلة بالآفاق الأكثر شمولا فى الدراسات اللغوية ؟

ثم الا يجدر بنا — فى الجانب العملى كلمسة انسانية — ان نفيـــد — علاجيا — من الأبحاث المتقدمة والمتصلة ، للأخذ بيد المصابين — عضويا أو نفسيا — والمتخلفين عن النطق كليا أو جزئيا ، وخلقة أو بسبب حادث ، حتى لا يمسوا غرباء فى المجتمع الانسانى ؟؟؟ ... الى غير ذلك من التساؤلات التى تدفع الى الجدية فى حب البحث ، والاستهانة بكل صعب فى ســـبيل العلم والفائدة .

وصدرت كثرة من الكتب والنشرات فى الدراسات اللغوية بلغـــات أجنبية ، وترجم منهـــا القليل الى العربيـــة . وصدرت قلة بالعربيـــة .

وبالجملة : فان كثرة ما صدر من الكتب والنشرات والمقالات فى الخمسين سنة الأخيرة ، يعدل أضعاف أضعاف الدراسات السابقة حتى مبدأ القرن الحـــديث .

وفى النصف الأخير من القرن العشرين أيضا ، عقد ما يقرب من ستين مؤتمرا فى جهات متفرقة من العالم الراقى والنامى ، مما يدل على عظم العناية بالأبحاث اللغوية فى عصرنا .

وعند التأريخ للدراسات اللغوية ، التى تمت خلال القرن الحالى بالذات نجدها ثورات علمية فى النظرة الى اللغة ، وفى طريقة دراستها ، اضافت الطريف والمفيد والجديد .

وما زالت كثرة من النظريات ونتائج الأبحاث قيد البحث والمناقشة ، تتفق فى بعض الأجزاء وتختلف فى بعضها الآخر ، ومع ذلك مازالت التجارب والأبحاث تتواكب ، بغية الترقى الى مرتبة العلم واليقين بمساعدة الامكانات التقنية الحديثة .

ولا ضير فى اتسام بعض الآراء بالحدس والتخمين ، مادامت المحاولات العقلية مستمرة ، والجهود متواكبة ، لأن اللغة عطاء الحياة النابع من تاريخ الانسان وكفاحه فيما قبل التاريخ ، وعطاء اللغة متنوع لا حدود له ، ولا يقف عند حد وان تحددت اللغة بالأصوات والرموز والأدوات والأبعاد ... فكان طبيعيا أن تتوالى البحوث وتستمر .

وسارت الدراسات اللغوية فى سبيل تحقيق الهدف اشواطا :

● فثبت أن اللغة تعطى الفرد شعورا بالانتماء الى مجتمعه ، لا أنها وسيلة لاتصال بين البشر فقط كما ظن بعضهم ، لأن للاتصالات وسائلها الأخرى : كالاشارات ، وردود الفعل العضوية بالنظرة أو تعبيرات الوجه ..

● وتأكد أن اللغة كائن يتغير باستمرار ، وأن هذا التغيير ظاهرة طبيعية، فتأثر لذلك مجال تعليم اللغات ، قومية كانت أو أجنبية ، ووضحت العلاقة بين مظهرى اللغة : المنطوق والمكتوب ، وفهم مدرس اللغة القومية أن القواعد التقليدية لم تكن شاملة لجميع جوانب اللغة ، بل كانت (معيارية) تهتم ببعض الجوانب ، لاحتذاء مقياس نسبى فى الصواب اللغوى ، ومنع الوقوع فى الخطأ ، كما صنع العلماء العرب نحو لغتهم ... وجاء علم اللغة الحديث ليوصى باعادة البحث ، واعتبار الناحية (الوصفية) التى تصف جميع جوانب اللغة ، وكسر القيود المفروضة فى هذا الصدد من حيث الزمان والمكان فى العربية مثلا ، وأعطى ابن جنى رخصة المرور ، حين صرح : بأن المتكلم على لغة (لهجة) من لغات العرب مصيب غير مخطىء .

● على حين تأثر تعليم اللغات الأجنبية بالطرق الحديثة ، والوسائل السمعية والبصرية المعينة ، والقائمة على أسس علمية : منهجية ونفسية ،

ساعد على انجاحها : المختبرات اللغوية (Languge Laboratoris) وآلات التعليم (Teachings Machines) فما يكاد ينصرم العام وبعض العام الا ويتقن الطالب والمريد اللغة الأجنبية اجادة تمكنه من الكتابة والقراءة والفهم فى ثقة وثبات . بينما يتعثر مريد العربية وطالبها أمادا طويلة ، وكأنما هو يغنى سنى الدراسة دابا ، ليوافق الصواب اللغوى عند أجداده ، ويأمن العثار والخطأ اللغوى .

● وبحصر الكلام فى المنطقة اليسرى من الدماغ (Broca Area) أمكن علاج كثير من العلل والآفات والعيوب التى تعترى منطقة النطق :

(فقرأ العميان بطريقة (Braille) بلمس النقط البارزة ، وسماع أشرطة التسجيل .

وفهم الصم والبكم بقراءة الشفاه . وعولجت الحبسة (Aphasia) بمساعدة الطب النفسى .

● ولم يرض العلماء أن يفكر أبناء البلد الواحد بألسنة مختلفة ، فتاقت نفوسهم الى اعتماد لغة قوية واحدة ، يستعملها الجميع فى التفاهم ، بغية التقريب ، ومنعا للبلبلة وتوزع المشارب .

وقريب من هذا مارنا اليه بعض المفكرين من اختيار عدد محدود من اللغات ذات الأهمية السياسية الكبيرة ، أو استعمال لغة واحدة طبيعية ، أو مصطنعة فى المؤتمرات العلمية .

ومن المحاولات الجريئة ما ظهر فى أواخر القرن الماضى ، من محاولات لما يسمى باللغات العالمية : كلغة ثانية ، يتعلمها جميع سكان العالم الذين يحتاجون للاتصال مع الآخرين :

كصنيع محيى الذين بن العربى المتصوف ، حين أراد صنع لغة خاصة لأتباعه ومريديه باسم (بليبلان) ومعناها : لغة المحيى ، وهى خليط من العربية والعبرية والفارسية . ، يتفاهمون بها فيما بينهم ، ومع طاعة المريدين وكثرتهم ونشاطهم ، الا أن المحاولة لم يكتب لها النجاح .

ومن اشهرها أيضا : الاسبرانتو (Esperanto) ، التى نادى بها العالم الروسى الدكتور (لازاروس زامنهوف Dr. Lazarus Zamenhof)

سنة ١٨٨٧ م وقد لاقت حماسا ورواجا ، ودعت إليها وسائل الاعلام ، وساعد على تقبلها : انها صوتية : (لكل حرف صوت واحد) ، وليس فيها حروف ميتة ، وقواعدها قليلة ، لا تزيد على ست عشرة قاعدة ، واشتقاقها بسيط ، ولها لواحق صناعية ، وهى مختارة من اللغات الأوروبية .

مثـــل :

الاسبرانتو	الانجليزية	الاسبرانتو	الانجليزية
HELPAS	HELPS	HELPOS	WILL HELP
HELPIS	HELPD	HELPUS	WOULD HELPD

ولميزاتها السالفة فى حروفها ، وقواعدها واشتقاقها ، لاقت رواجا ، حتى كادت أن تستقيم على سوقها ، الا أن نجمها افل بعد مدة ، كما قضى على محاولات قبلها ومثلها .. وصدق الله العظيم ، حيث يقول : « **ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف السنتكم والوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين** » (الروم : ٢٢) .

● والفكر تركة بين البشر ، وكل يأخذ منه بحسب طاقاته واستعداداته ، وتنوعت اللغات حتى قاربت الثلاثة آلاف لغة ، وكل يوم يجد جديد فى النظريات العلمية ، ويسهم المفكرون فى انماء الفكر ، وزيادة رصيد الحضارة الانسانية ، والترجمة مهما نشطت واتسع افقها ، فهى أمام الحشد الهائل من الجديد بطيئة ... ومن ثم كان من محاولات الدراسات اللغوية : الترجمة بواسطة الآلـــة (Machine Translation) ، ومع الصـــــعوبات التى اكتنفت المشروع الا أن المحاولة مازالت مستمرة لازالة العقبات والتغلب عليها .

● واخيرا ــ وليس آخرا ــ لعل من اجل الخدمات التى أسداها علم اللغة الحديث : صناعة المعاجم اللغوية على اسس حديثة ، تلبى اشواق الروح وتطلعات المستقبل : فلم تجرد الكلمة من زوائدها ، ودارت مع استعمالاتها واشير الى الصامت والناطق من حروفها ، وعاونت الصورة المرئية على فهم المعنى ، وشد الانتباه اناقة الطبع ، وجودة العرض ويسر الاقتناء ، والتدرج المدروس على اسس نفسية ومنهجية علمية .

وبعـــد :

فلعل فيما سلف ، وفيما يأتى فى ثنايا هذه الدراسة ، ما يثير شاكلة

انتباه ، غير حماسة العرب والمسلمين ، للاطلاع على الدراسات اللغوية ، والاقبال عليها ، لنرى :

كيف ان علماءنا الاجلاء القدامى — ابان نهضتهم — أولوا تلك الأبحاث اللغوية جهودا فائقة ، خدمة للغة الضاد ، التى هى وعاء مقدساتنا ، وعلى أسس سليمة فى جملتها ، وعلى قدر وسعهم وامكاناتهم .

وكيف ان ابحاث العلماء العرب القدامى كانت النبراس الذى امد الغرب — حين نهضته حديثا — بما أوصله الغاية ، وساعده على الرقى .. فاذا ما غض الطرف بعدئذ بعض علمائهم على ما صنع علماؤنا .. فمرجعه جهل مبين ، أو حقد دفين .

ولعل فى محاولة التطبيق — لما يدرس فى الغرب — على لغتنا العربية العتيدة ما يربطنا بماضينا التالد ، وحاضرنا الطريف ، ، ومستقبلنا المرتقب الزاهر ، وحتى تتوثق العلائق والعرى بين الدين ، والحضارة والتراث بلسان عربى مبين .

ولعله أيضا ييسر تعليم العربية لغير العرب ، ويجعل الاقبال عليها ذاتيا من قلوب علماء العرب ، فيتعلمونها ، ويعلمون بها ، وتنال تقديرهم وتمس شغاف قلوبهم ، فلا يرمونها بما هى منه براء .

ولعل فيه ما يجلو تاريخ العربية القديم الذى اندثر فى رمال الصحراء وسير دراسته نهبا لافتراضات ، وأوليتها الى تخمينات ، حتى يمكن دراسة ظواهرها ومظاهرها وجوانيتها ... علها تنجو مما يدبر لها : **قوميا** ، من : موقف (اللامبالاة) ، أو العداء بدافع الجهل ، أو التربية فى حضن المستعمر وبلغته . أو محاولته الاقصاء الى زوايا النسيان ، بعد أن شغلت الأماكن والأزمان ، وطالعتنا .. ومازالت تطالعنا بأنفاس القدماء ، ونبضات قلوبهم ، وتحمل فى هدوء — تفكيرهم — وثورة عقولهم .. أو فى تركها لحشد اللهجات العامية وسيولها بغية اغراقها والقضاء عليها . أو تشويهها باستبدال الحروف الأجنبية بجمال حروفها ، لقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا .

وحضاريا : بوقف طغيان لغات الحضارة الحديثة — الانجليزية والفرنسية فى المقام الأول — عليها فى مجال التعليم ، فى داخل الوطن العربى — للأسف — قبل الوطن الاسلامى . وللعربية رصيدها الضخم يمكن

استغلاله فى كل مجال ، متى خلصت النيات وتوفرت الجهود ، فما من امة فى العالم الا وتحترم لغتها ، وتعبر بها عن جميع شئونها ، اذ التعليم بلغة أجنبية دليل ضعف ، وعدهم ثقة بالنفس ، ودليل على خمول العزيمة ولقد سقط التساؤل الأبله : « هل تصلح اللغة العربية لأن تكون لغة علم » ؟ بعد أن عربت جامعات عربية — احترمت نفسها — التعليم فى كلياتها العلمية والعملية ، ونجحت وبزت وعزت . وكان التدريس فى (القصر العينى) لعلوم الطب بالعربية ابان نشأته لمدة سبعين عاما . وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم ، ﴿**والله يقول الحق وهو يهدى السبيل**﴾

دكتور توفيق محمد شاهين

الفصل الأول

تحديد المصطلحات أولا

تشيع مصطلحات فى الدراسات اللغوية ، ويختلف العلماء أحيانا على مفاهيم هذه المصطلحات ، ومن الخير تحديدها أولا ، حتى يكون الدارس على بينة منها :

(أ) اللغة (Language) :

اللغة ككرة ، أصلها لغو ، من باب : دعا وسعى ورضى . ووزنها لغة ، حذفت لامها ، وعوض عنها ، هاء التأنيث . وابن جنى يزنها على : فعلة ، من لغوت اذا تكلمت ، ويلزم على ذلك : الجمع بين العوض والمعوض عنه ، وهو غير جائز . لكن اللقانى يبرره بقوله : « وقد يذكر الأصل مقرونا بهاء ونية العوضية تكون الحذف » .

وتجمع على : لغى ، ولغات ، ولغون اى انها الحقت بجمع المذكر السالم ، واعربت بالحرف جبرا لما فاتها من رد لامها فى الجمع .

ومعنى اللغة : الصوت مطلقا ، واللهج (الولوع) بالشىء ، والخطأ ، والسقط (مالا يعتد به) والنطق ، والهذيان ، والباطل ... (جاء تفصيل لكل ذلك فى كتب الأقدمين من علمائنا) .

واللغة فى الاصطلاح :

يعرفها ابن جنى ، بأنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » . والشيخ العلايلى يرى أن ذلك التعريف انما كان فى الدور النشوئى لها ، لكن بعد اكتمالها أصبحت جزءا من التفكير .

ويقول الدكتور انيس : انها اكتسبت مع الزمن صفة اسمى وارقى من مجرد الرمزية لأنها اتصلت بخواطر الناس وافكارهم ، فأصبحت جزءا من هذه الأفكار .

ويرى (ديكارت) : أنها خاصية الانسان ، بما هو حيوان ناطق ، اى مفكر ، وبما هو حيوان بدنى : أى اجتماعى ، فهى تحقق ناطقية الانسان بشقيها : الفكر والعمل ، ومن ثم تجعله أهلا لأن يكون خليفة الله فى الأرض : أى انها الخاصية التى تميز الانسان عن سائر الحيوان . والناطقية عند (ديكارت) ركيزتان : ممارسة التفكير ، وممارسة الحياة الاجتماعية ، فضلا عن انها سبيل الكشف عن النفس ، والغير ، والكون .. والكشف (فعل) كما قال الفلاسفة ..

وعرفها (جفونز) بأنها : وسيلة للتوصيل ، واداة للتسجيل ، ومساعد آلى للتفكير .

ويقول عنها (ميبه) بأنها : كائن مثالى ، لا سبيل الى ادراكه ادراكا مباشرا لأن الباحث فيها يلاحظ مجرد مظاهرها الخارجية ، التى هى مظهر وجودها ، وسبيل انتقالها ، والمحافظة عليها .

وبعض المحدثين يعرفها بأنها : نظام من رموز ملفوظة عرفية ، بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة .

فاللغة نعمة من الله ، وميزة الانسان ، ولها قيمتها فى حياة البشر ، وكانت تعد وسيلة فأصبحت — لقيمتها — غاية : تدرس لذاتها بمناهجها وقوانينها العلمية والعملية ، وأصبح لها قيمة أكبر من الرمزية حين أمست جزءا من الأفكار ، وربطت بين الفكر والعمل ، وعبرت عن الفكر الداخلى والخارجى ، وفى اختيار رموزها قصد وتفكير ، وهى عرفية ترتبط بالمجموعة التى تتناولها ، للاخبار ، والابداع والامتاع .

ومن عناصرها : التفكير ، والصوت ، والمفرد ، والكمال فى التركيب ، والجمال فى التانق والاختيار ، ومادتها تحيط بالبعد المكانى ، والزمانى ، والاجتماعى ، ووظيفتها خير ما يعرفها .

ولم يفرق الأقدمون من العرب بين لفظى (لغة) و (لهجة) ، يقول ابو الطيب اللغوى عن اللهجات فى الابدال : « هى لغات مختلفة لمعان متفقة » . كما أطلقوا على اللهجة لفظ اللحن ، قال اعرابى فى معرض الحديث عنها : « وليس هذا لحنى ولا لحن قومى »

واذا تمعنت فى لفظ (لهجة) فى العربية : (Langage) فى الفرنسية و (Language) فى الانجليزية ، فستجد صلة هذه الالفاظ ببعضها ، وقرب جرسها ، ولعلها — لذلك — مأخوذة من لغة قديمة لهذا التشابه القوى ، الا أننا لا نعرفها نظرا ، لأن لغة الانسان الأول وما تفرع عنها من لهجات لم يصل البحث العلمى فيها الى رأى قاطع حتى الآن . وبعضهم يذكر أنها (يونانية) الأصل .

(ب) اللغة ، واللسان ، والكلام :

مصطلحات تشيع أيضا فى حقل الدراسات اللغوية ، وعلينا أن نلم بها فى ايجاز شديد ، تحديدا للمفاهيم ، ما أمكن ، ولو فى صورة تقريبية ، منعا للتشتت والضياع :

يصف الدكتور عبد الصبور شاهين (دوسوسور) — بحق — أنه رائد الدراسات اللغوية الحديثة ، ويقدم لما نحن فيه بهذه الأمور .

للظاهرة اللغوية وجهان يتقابلان دائما ، ولا يتضح أحدهما الا بوجود الآخر :

فالمقطع التى ننطقها هى تأثيرات صوتية طبيعية Accoustique تستقبلها الاذن ، لكنها مرتبطة بأعضاء النطق ، فلا نستطيع ان نعرفه حركات الأعضاء النطقية اذا ما غضضنا النظر عن التأثير الصوتى .

والصوت اداة للفكر ، ويركب مع الفكرة وحدة مركبة عضوية .

واللغة وجه فردى وآخر اجتماعى ، ولا يمكن تصور أحدهما دون الآخر .

كما أن للغة فى كل لحظة نظاما ثابتا ، وحركة متطورة ، وبناء حاضر ، ونتيجة ماض .. ويصعب فصلهما عن بعضهما ، لعلاقتهما الوثيقة .

واللغة فى مجموعها أشكال كثيرة متضاربة ، لأنها فى مجالاتها المتعددة : مادية وعضوية ونفسانية ، وتنتمى الى مجال اجتماعى ، ولتعقد عمليتها لا ندرى كيف تتحقق وحدتها .

واللسان يمكن أن نتخذه مقياسا لجميع مظاهر اللغة : فهو جزء محدد اساسى منها ، ونتاج اجتماعى لملكة اللغة ، وهى مجموعة من الاعرافه

الضرورية يستخدمها الكيان الاجتماعى ، ليسمح بمزاولة هذه الملكة عند الافراد .

وبعضهم يعترض على ذلك بأن ممارسة اللغة تعتمد على منحة نستمدها من الطبيعة ، على حين أن اللسان شيء مكتسب وعرفى ، ينبغى أن يكون تابعا للغريزة الطبيعية لا أن يكون متقدما عليها .

واجيب : بأنه ليس من الثابت أولا أن وظيفة اللغة — وهى التى تتجلى عندما نتكلم — تكون طبيعية فطرية بصورة كاملة ، اى انه ليس مسلما أن جهاز النطق قد صنع ليتكلم ، ولم يتفق اللغويون حول هذه النقطة . يقول (وايتنى Whitny) الأمريكى : نحن نستخدم الجهاز النطقى اللسان — أداة بمحض الصدفة ، ولأسباب تتعلق بالسهولة فى الاستعمال ، وقد كان بوسع الناس اختيار الاشارة ، واستعمال الصور المرئية بدلا من الصور الصوتية ... ويمكن القول بأن اللغة المنطوقة ليست هى الشيء الفطرى الطبيعى فى الانسان ، ولكن الفطرى هو القدرة على تكوين لسان ، اى : ذلك النظام من العلامات المميزة المقابلة للأفكار المتميزة ... فالقدرة — الفطرية او غير الفطرية على نطق الكلام ، لا تمارس الا بمساعدة الأداة المخلوقة ، والتى هى عطاء المجتمع فاللسان هو الذى يحقق وحدة اللغة ، وله المكان الأول فى دراسة اللغة .

ويلخص الدكتور عبد الصبور شاهين رأى (دوسوسور) فى هذه المفاهيم فيما يلى :

فأما (اللغة Language, angage) فهى كل ما يمكن أن يدخل فى نطاق النشاط اللغوى ، من رمز صوتى ، او كتابى ، او اشارة او او اصطلاح . اى ان اللغة تعنى الكيان العام ، الذى يضم النشاط اللغوى الانسانى ، فى صورة ثقافية منطوقة ، أو مكتوبة ، معاصرة او متوارثة ...

واما (اللسان Langue Tongo) فيطلق على اللغة المعينة ، المنظور اليها بطريقة الصورة المنظمة ، ذات القواعد والقوانين ، وذات الوجود الاجتماعى .

واما (الكلام Parole) فهو اللغة فى صورة ممارسة فردية منطوقة على اى مستوى .

ويمكن استخدام (اللسان) عندما يراد التعبير عن لغة معينة ، ويمكن أن يحل محله التعبير بمصطلح (لغة) موصوفا بما يحددها ، مثل : اللغة العربية ، أو لغة الاصطلاح ، أو اللغة العلمية .

(ج) علم أم فقه ؟

لم يفرق علماؤنا العرب فى الاستعمال بين هذين المصطلحين ، فى مجال الدراسات اللغوية : ـ

فقد سمى أبو الحسين احمد بن فارس (٣٨٥ هـ) مؤلفه : (الصاحبى فى فقه اللغة ، وسنن العربية فى كلامها) ، وناقش فيه قضايا لغوية مختلفة .

وأطلق أبو منصور الثعالبى (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ) على كتابه : (فقه اللغة ، وسر العربية) ، وهو يتناول الألفاظ التى تستعمل فى موضوع واحد ، كمعاجم المعانى ، ويتناول أيضا : قضايا لغوية أخرى ، هى من صميم فقه اللغة .

أما جلال الدين السيوطى (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) فقد سمى مؤلفه الحافل الحاشد بالأبحاث اللغوية له ، ولمن سبقه : (المزهر فى علوم اللغة وانواعها) .

وهناك كتب أخرى فى الدراسات اللغوية ، على نحو أكمل وأحفل لعلمائنا العرب ، الا انها لم تحمل أى مصطلح من (فقه اللغة ، أو علم اللغة) ، مثل : كتب الخليل بن أحمد (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) فى الايقاع والنغم ، والنقط والشكل ، والعروض والشواهد والجمل ، ومعانى الحروف ، ومعجم العين .

ومثل كتاب الخصائص (فى فقه العربية) لابن جنى (٣٩٢ هـ) وكتابه (سر صناعة الاعراب) فى الأصوات ، واحكام الحروف ، وصفاتها ، ومواقعها ، واشتقاقها ونظمها ..

ولابن سيده الأندلسى (٣٩٧ ـ ٤٥٨ هـ) كتابه (المخصص) الذى ضمنه بحوثا وافية فى نشأة اللغة ، والمشترك اللفظى ، والمعنوى ، والابدال والتعريب ... الخ

وكذلك الكتب الأمهات مثل : كتاب سيبويه ، وكتب أبى على الفارسى ، وابن جنى وابن الأعرابى ، وأصحاب المعاجم الرائدة ، وكتب الجواليقى ، والشهاب الخفاجى ، فى معرفة المعرب والأصيل والدخيل من كلام العرب ...

ومن الباحثين المحدثين ، من يحبذ صنيع الأقدمين فى عدم التفرقة بين الإصطلاحين ومنهم من فضل استعمال (فقه اللغة) ، على أساس أن (فقه) بمعنى علم وفهم فسمى الأستاذ الدكتور صبحى الصالح كتابه « دراسات فى فقه اللغة » .

ومن المحدثين من يحبذ استعمال (علم اللغة) على مثل هذه الأبحاث على أساس أن ما جد من أبحاث مبتكرة فى هذا الجانب هى من صنع علماء الغرب فى ابان نهضتهم ، وقد مالوا وحبذوا استعمال هذا المصطلح ، أما استعمال (فقه اللغة) فقد بقى للدراسات اللغوية فى اللغة العربية وحدها .

ويعبر الاوربيون عن (فقه اللغة) بمصطلح فيلولوجى (Philology) بمعنى حب الكلام ، ويختص عندهم بدراسة الأدب ونصوصه ، ودراسة اللغة من خلال نصوصها ، وتحقيق المخطوطات .

أما مصطلح (علم اللغة) فقد قابله علماء الغرب بمصطلح (Linguistics) ويشمل كل فروع الدراسة التى يعنى بها دراسة اللغات ، فى كل مجالاتها .

يقول الدكتور محمود اسماعيل صينى :

قد يعجب القارىء حين يجد أن علماء العرب أنفسهم لم يتفقوا بعد على تسمية معينة لموضوع تخصصهم (وهم أولى الناس بذلك) : فالبعض يطلق عليه « علم اللغة » أو « علم اللغات » ، وفئة تسمية « اللسانيات » ، وثالثة تنعته « باللغويات » ، ثم هناك من يسميه : « فقه اللغة » ... ولكن من هؤلاء وأولئك ما يبرر به تسميته . ولو أن هناك شبه اتفاق بين المحدثين على تجنب مصطلح « فقه اللغة » ، لأنهم يرون أن هذا التعبير أقرب شىء الى ما يعرف بالـ (Philology) بالانجليزية ، أى أن لدلالته ارتباطا وثيقا باللغة المكتوبة ، والأدب ، وتحقيق النصوص ، والدراسات التاريخية ، وما شابه ، مما قد يؤدى الى تشويش مفهوم « علم اللغة » بمعناه الحديث .

أما نحن فنرى « علم اللغة » قد يكون أقرب الى المفهوم السائد ، المعروف بالانجليزية بـ (Linguistics) وبالفرنسية (Linguistique).

وذلك قياسا على ما نسمى به بعض العلوم الحديثة ، مثل علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم النبات .. الخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين ، يرى الفرق كبيرا بين مفهوم الاصطلاحين في الثقافة القديمة والحديثة ، وهو فرق ينبغي أن يراعى عند استعمال ايهما ... **والرأى** — اذن — استعمال (فقه اللغة) لدراسة العربية وخصائصها ، على حين يستخدم الثانى استخداما شاملا فى كل ما يتصل بالعربية وغيرها من اللغات من فصيلتها أو غيرها .

(د) لغة الانسان ، ولغة الحيوان :

ذكرنا أن اللغة : « أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » ... اى أن اصطلاح اصحاب اللغة — من الأناسى — على شكل المجموعة الصوتية يصحبه دائما اصطلاحهم على ما تحمله من شحنة دلالية ، هو الذى يفصل غالبا لغة انسانية عن أخرى .

وكانت اللغة انفعالية ، ثم تطور أمرها بتطور نضج الانسان ، ونضج عقله وترقى تفكيره .

واللغة بهذا المعنى من خصائص الانسان وحده ، دون سائر المخلوقات الأرضية الحية الأخرى . ولكنا نسمع — على نطاق واسع — عن لغات كثيرة يتم بها الاتصال بين عدد وفير من المخلوقات ، مثل :

لغات النمل ، والطيور ، والحيوان ، والأسماك ، والاشارة ، والكومبيوتر وحتى لغة العيون التى يتغنى بها الشعراء .وجاءفى القرآن الكريم اشارة لبعض هذه اللغات ، كما حكى سبحانه عن نملة سليمان — عليه السلام — : **« قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها »** (١) . وقوله تعالى عن الهدهد وسليمان : « **فمكث** (الهدهد) **غير بعيد فقال : احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبا بنبأ يقين ..** » (٢) فهل لمخلوقات الله الأخرى لغات تتخاطب بها ؟ وهل تختلف هذه اللغات عن لغات البشر ؟ وما هو الاختلاف ؟ وهل الانسان هو الوحيد القادر على اكتساب أو تعلم اللغة ؟ وهل تعجز الحيوانات الراقية

---

(١) النمل : ١٨ ، ١٩ (٢) النمل : ٢٢

عن ذلك ؟ ... اسئلة كثيرة شغلت الأذهان ، وحاول العلماء الاجابة عنها ، واثارت جدلا واسعا .

والذى نميل اليه من اجابات العلماء والباحثين — فى ايجاز يناسب ما نحن فيه — هو : أن اللغة بصفتها السالفة من خصائص الانسان وحده ، لانها اصطلاحية وتواضعية ، ومقرونة بالفكر فى اصدار الأصوات وتلقيها ، ويحكمها العقل ، ، وينظم عملياتها ولا يجعلها ضوضاء خالية من المعنى ، والنظام هو الذى يمنحها الثراء والفاعلية والتعبير عن الأهداف السامية ، والذهنية المجردة ، كما أن الخلف يتوارثها عن السلف ، فاذا عاش الانسان منفردا فلا لغة له على الاطلاق . وكذلك تستطيع لغة البشر أن تشير الى اشياء واحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا ، ولو كانت غير منظورة . كما أن للغة البشر مقدرة على الخلق والابتكار . فاللغة الحقيقية — اذن — ظاهرة خاصة بالانسان .

كما أن اللغة الانسانية تطبع لا طبع ، فالطفل المعزول عن المجتمع البشرى كلية لا يتعلم اية لغة ، بينما الطفل المنقول الى اى مجتمع آخر يتعلم بالسرعة والسهولة لغة ذلك المجتمع .

ويذكر الدكتور نايف خرما : أنه ثبت بعد التجارب والدراسات اللغوية أن اللغة البشرية لا يمكن تعليمها لغير البشر ، برغم التجارب العديدة التى اجريت على الحيوانات فى فصائلها العليا ، لأن جميع الصفات الخاصة بجهاز النطق عند الانسان مواتية لنطق الأصوات المختلفة المستعملة فى لغات البشر ، ومن ثم كانت اللغة بمفهومها الحقيقى قدرة فطرية خاصة بالجنس البشرى .

وقد حاولت التجارب العلمية فى امريكا أن تعلم (الدلفين أو الدرفيل) لغة الانسان ، الا أن النتيجة حتى الآن ضئيلة جدا . وحاول الاستاذ (كلوج) وزوجته عام ١٩٣١ تعليم (الشمبانزى) لغة ، فنشأه مع ابنهما ، واسماعهما اللغة العادية ، وكانت النتيجة أن (الشمبانزى) لم تتكلم مطلقا ، ولكن فهمت واستجابت لمعنى سبعين كلمة من مفردات اللغة . وكذلك حاول الأستاذ (هايز وزوجته) مع (شمبانزى) بطريقة مكثفة لمدة ثلاث سنوات تعليمها اللغة البشرية ، فكانت الحصيلة : انها فهمت عددا من المفردات لكن

لم تنطق سوى أربع كلمات منها (بابا وماما) بصورة غير واضحة ، لأن القرد ليس كالانسان مهيأ بصفات بيولوجية خاصة بجهاز النطق تمكنه من نطق أصوات اللغة .

فتعبير الحيوان أدنى مستويات التعبير ، التى يصدر بها أصوات يفهم منها حاجاته الضرورية الاساسية والتى يطلب اشباعها ، حين يكون جائعا ، أو ظمآنا ، أو غير ذلك .

وحتى الآن لم تفهم لغة الحيوان المتباينة ، التى تستعمل فيها الأصوات والاشارات ، والكيماويات : فالطيور تستعمل الأصوات . والخفاش والدرفيل والحوت تستعمل الصدى . والنحل تستعمل الاشارات والحركات والألوان ، كما ذكر العالم الألمانى (كارل فون فرش) . ومن الحشرات ما ينتج مادة كيماوية تسمى (الفيرمون) وتسيطر على التنظيم الاجتماعى للمستعمرة . ومن الأسماك ما يستعمل الموجات الكهربائية فى التواصل .. ولكن حتى الآن لم تفهم لغة الحيوان ، وربما نرى فى المستقبل وصفا دقيقا لها ، قد يساعد فى الاتصال بالكائنات الحية ، التى تساكننا على وجه المعمورة .

فحديثنا فى هذه الدراسة يقتصر على اللغة الانسانية ، وما أعظم منة الله على الانسان ، حيث يقول : « **الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان** » (١) .

* * *

(١) الرحمن : ١ ــ ٤

مناهج البحث فى علم اللغة

اتبع العلماء فى علاج المسائل اللغوية مناهج ساروا عليها ، احيانا متصلة بغيرها من العلوم ، واحيانا بمنهج خاص تقتضيه طبيعة المسألة التى تدرس واهم هذه المناهج ما يلى :

(أ) منهج الملاحظـــة والاستقراء :

اى مراقبة اللغة فى ظروفها الطبيعية اثناء قيامها بوظيفتها ، وتشترك علوم الطبيعة مع علوم اللغة فى هذا المنهج ، الذى اوصل علوم اللغة شأوا بعيدا . وآلة هذا المنهج الاذن والعقل ، وبه عرفنا : أن الفاعل مرفوع ، وان المفعول منصوب باستقراء الشواهد العديدة . ولابد من مراعاة اللغات الشقيقة فى المجموعة الواحدة حين ارادة العموم .

ويؤخذ على هذا المنهج ان الاذن احيانا تخدع ، ولا تملك من القياس ما تملكه الآلات القياسية الحديثة .

(ب) المنهج الآلى :

اى الاستعانة بالآلة فى مجال الصوتيات لأنها العنصر (الفيزيائى) الوحيد فى اللغة ، الذى يمكن للآلة التدخل فيه تسجيلا وقياسا ، بفضل التقدم التقنى : بواسطة (بوق) ، يتلقى الهواء من فم المتكلم ، وتوصيله الى طبلة تتأثر بضغط الهواء وذبذبته ، ثم اتصال قلم بالطبلة ويتحرك بحركة الطبلة ، فى (اسطوانة) مغلفة بورق ، تدور اثناء العمل ، امكن أن يرسم القلم الذبذبات المنتقلة اليه من الاذن . وبذلك امكن تمييز انواع الصوت ، وخصائصه ، وادراك نبراته ، وقياس شدته ومدته ...

اما اشعة (رونتجن) فى آلة التصوير الشعاعى ، فقد ساعدتنا على معرفة الاعضاء التى تشترك فى احداث الصوت اللغوى ، على هيئة هذه الاعضاء اثناء النطق وعلى مخرج الصوت .

وهذا المنهج خير من سابقه لدقة الآلة ، ولو أنه صناعى فى عمله وتركيبه .

(ج) المنهج التجريبى :

وهو يقوم على خلق الظروف المحيطة بالظاهرة ، حتى تحدث وتدرس من غير انتظار لحدوثها تلقائيا : كالعالم الطبيعى الذى يجمع (الاوكسجين) و (الهيدروجين) ويعطيهما شرارة كهربائية ليصنع منهما ماء .

ومعنى هذا أن المنهج التجريبى يقوم على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما ، أو على خلقها خلقا ، للتمكن من دراستها .

ولاشك أن هذا التغيير فى الظروف يخرج اللغة عن طبيعتها ، فاللغة ليست مثل العلوم الطبيعية ، ولذا كانت نتائج هذا المنهج قليلة جدا ، وعرضت الباحث للخطأ فى الأحكام :

فلقد حاول الأستاذ (فيرث) معرفة العلاقة بين الصوت والشكل فرسم خطا مغلقا فيه تحدبات كثيرة . ورسم خطا آخر مغلقا منكسرا فى شكل نجمى ووضع الى جانب الرسمين ، كلمتى : (أومبوبو وكيكيريكى) ، وهما كلمتان لا معنى لهما فى اية لغة . ثم طلب من طلبة مختلفى القوميات واللغات .. أن ينسبوا كل خط الى احدى الكلمتين ، فجاءته الاجابة بأن كلمة (أومبوبو) للرسم المحدب ، ولكلمة (كيكيريكى) الى الرسم النجمى ، مما جعل العلماء ينظرون الى هذا المنهج بعين الريبة ، كما يقول الدكتور تمام حسان فى « مناهج البحث فى اللغة » .

ويمكن عد المسألة الزنبورية ، وما يجرى على شاكلتها من افتراضات فى النحو العربى ، وما دار فيها بين سيبويه والكسائى فى مجلس البرامكة بحثا لغويا يجرى على المنهج التجريبى .

(د) المنهج المقارن :

وهو يقوم على الموازنة بين الظواهر اللغوية فى طائفة من الالسن ، للكشف عن أواصر القربى بينها ، كما فى علم اللغة المقارن ، أو للكشف عما بين الالسن من خصائص مشتركة تؤدى الى الكشف عن القوانين العامة للغة ، كما يجرى فى علم اللغة العام .

ويعتبر هذا المنهج ذا اهمية بالغة ولازمة فى كل الميادين اللغـوية التى سارت فيها الأبحاث اللغوية ، وهو يؤدى احسن النتائج وافضلها متى أمكن حسن الاستخدام ودقة التطبيق .

● على أن الشائع اليوم فى دراسة اللغة منهجان : الوصفى ، أو التاريخى :

١ ــ فالمنهج الوصفى او التقريرى :

يعنى بوصف المظاهر اللغوية بغير محاولة ايجاد العلل والأسباب . اى انه يقتصر على عرض الاستعمال اللغوى لدى مجموعة معينة ، فى زمن ومكان معين : فاعل فى العربية ــ مثلا مرفوع ، والمفعول منصوب ، ولانسأل عن علة اختلاف الحركة .

وقد أفاد المنهج الوصفى فى تعليم اللغات كثيرا لدى الغربيين .

٢ ــ والمنهج الفلسفى التاريخى :

يدرس تغييرات الاستعمال بين عصور متفاوتة ، لوصف اللغة المدروسة، ووضعها فى مكان زمنى ومكانى محدود : اى انه قائم على اشتمالات وصفية من عصور كثيرة ومتتابعة ، بحيث يمكن استخراج القانون اللغوى مـن المقارنات ، وتدوين الملاحظات المتشابهة او المختلفة ، وملاحظة السبب .

● على أن كلا المنهجين لا يختلفان فى الحقيقة : لأن كل وصف هو تاريخ ، والأيام دائبة ، واللغة متطورة ، والحوادث متلاحقة متواكبة .

* * *

الفصل الثاني

موضوع علم اللغة

يدرس علم اللغة (Linguistics) اللغة بصورة عامة ، لانها اساس جميع العلوم الانسانية ، وظاهرة اجتماعية لها أوثق العلاقات بما في الكون .

ومع امتداد تاريخ البحث فيه من لدن البراهمة ، والاغريق ، والعرب وغيرهم ، لبراعتهم في علوم اللغة، الا أن أمره ظل حينا في دائرة ضيقة ومحدودة، لأن بعض العلماء نظر اليه كشيء كمالي ، لا علاقة له بالحياة ، كما نظر الى اللغة كوسيلة لا غاية .

وكان من نتائج تطبيق الأسلوب العلمي في الطبيعة ، الذي ادى اكتشافات هائلة ... اثر كبير في ترقية الأبحاث اللغوية والعناية بها ، وتطبيق الأسلوب العلمي عليها ، باعتبارها كأي شيء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للتجربة .. ففتحت آفاقه الواسعة ، ونال العناية الكافية ، وعسى أن نلحق نحن بها :

يحدث التاريخ أن الأشوريين ، وكذلك الأمة الصينية واليابانية والبراهمة — ابان نهضتهم — قد اهتموا بلغاتهم من قديم :

فقد عنى البراهمة باللغة السنسكريتية نحوا وصرفا واشتقاقا وتدوينا قبل الميلاد .

كما يذكر المؤرخون : أن معجم (شوفان) لمؤلفه (هوشن) طبع سنة ١٥٠ ق . م ومعجم (يوبيان) لمؤلفه (كوبى وانج) طبع سنة ٥٣٠ م وهما يعدان أساسا للمعاجم الصينية اليابانية .

وجاء فى مقدمة معجم (فيشر) اننا : « اذا استثنينا الصين ، لايوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر بحاجتـه الى تنسيق مفرداتها ، حسب أصول وقواعد غير العرب » . ويحكى السيوطى فى المزهر ٢/١ أن بعض الملوك فى المغرب سأل الصحاب بن عباد أن يقدم عليه ، فقال له : أحتاج الى ستين جملا أنقل عليها كتب اللغة التى عندى .

وبداية الدرس اللغوى عند العرب ، كانت نحوية ، ثم صرفية ، وجمالية فى علوم البلاغة ، وادبية نقدية فى علوم الأدب ونقده كما فى الأسواق الأدبية ، والعروض والقافيـة ، كما اهتموا بعلوم القرآن وقراءاته وتفسيره لغويـا ومعنويا . ونشطوا فى جمع الألفاظ وتدوينها لصنع المعاجم الدقيقة ، حتى تحفظ اللغـة من الضياع .

وعنى الخليل بن أحمد بدراسة الناحية الصوتية والحروف ، معتمدا على الناحية الذواقية عنده ، والجهد الشخصى ، وأبرز سيبويه هـذه الجوانب فى كتابه ، ومن الغريب أن دراسة العلوم اللغوية الحديثة بوسـائلها التقنية وامكاناتها المعينة ، لم تناقض ما قرره أسلافنا ولكن اختلفت معهم قليلا فى بعض الجزئيات .

ولذا يعتبر القدامى من علمائنا ــ بحق ــ أساتذة لعلماء الغرب ــ ابان نهضتهم ــ فى هذا الجانب اللغوى ، كما كانوا أساتذتهم فى الجوانب الحضارية والثقافية الأخرى .

ومن المستشرقين من أهدانا الرائع من ثمار أبحاثهم الحديثة ، فى ضوء مناهج البحث العلمى ، وامكاناته المتاحة . وعسى أن تتفتح عيوننا فى صحوتنا على ثورة ثقافية ونهضة علمية ، تعيد الينا ماضينا المشرف ، ومستقبلنا الوضىء الذى نرنو اليه .

ولم تبرز عناية العرب بفروع الدراسات اللغوية التى بحثوها بصورة شاملة ، ومنهج أدق وأوفى ، وادخل فى علوم اللغة الا ابان القرن الرابـع الهجرى ، حين ظهرت آراء الفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس وغيرهم .

* * *

وقام الدرس اللغوى فى الغرب على غرار صـنع العرب ، فاحتـذوا حذوهم ، وساروا على نمطهم زمنا كما سنذكر ذلك ، الا أن علماء الغرب ــ

في نهضتهم الحديثة ـ خطـوا خطوات أوسع ، وفتحوا ميادين جديـدة ، وطرقوا أبوابا لم يطرقها العرب :

فاعتنوا بعلم اللغة التاريخى ، والجغرافى ، والموا بالحقل النظـرى والتطبيقى ، واعتنوا بعلم اللغة المقارن ، وعلاقة اللغة بغيرها من العلوم ، وبيان المؤثرات التى يخضع لها التفكير اللغوى ... واهتمت جامعاتهـم الكبرى بانشاء دوائر خاصة لعلم (الفونتيك) وسأعدوا الأساتذة واهتموا بالمختبرات ، والآلات المسجلة والمصورة ، والأشعة الخاصة كمختبرات الفيزياء وغيرها من العلوم ، فتوصلت الى نتائج باهرة ، فأمها الطلاب ، وأرسلت اليها البعوث ونشرت أبحاثهم ، واليك رسما يوضح فروع اللغة ، يتبعه شرح موجز للأستاذ الدكتور محمود اسماعيل صينى .

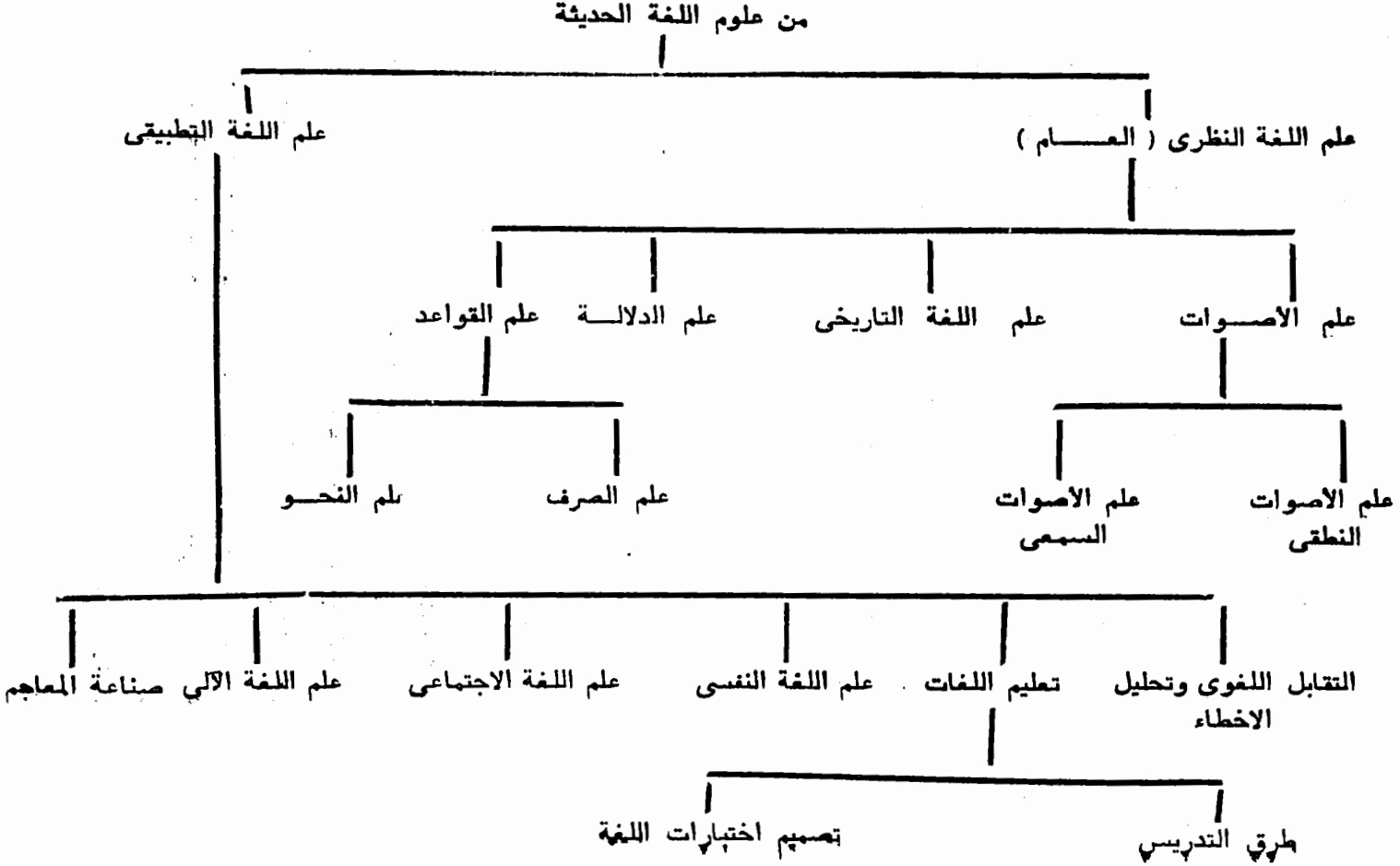
من علوم اللغة الحديثة
علم اللغة التطبيقى
علم اللغة النظرى (العـــام)
علم الأصـــوات
علم اللغة التاريخى
علم الدلالـــة
علم القواعد
علم الأصوات النطقى
علم الأصوات السمعى
علم الصرف
علم النحـــو
التقابل اللغوى وتحليل الاخطاء
تعليم اللغات
علم اللغة النفسى
علم اللغة الاجتماعى
علم اللغة الآلي صناعة المعاجم
طرق التدريس
تصميم اختبارات اللغة

أى ان موضوع علم اللغة :

يدرس كل ما يتعلق باللغة من اصوات منطوقة او مسموعة ، او الفاظ او تراكيب او دلالة ، والعوامل المؤثرة على هذه الظواهر اللغوية فسيولوجية كانت او نفسية او بيولوجية او اجتماعية ، ويتبع فى ذلك الأساليب العلمية المعروفة من جمع وملاحظة واستقراء واستنتاج القواعد ، ثم النظريات العامة من الحالات المختلفة . ويستعين فى سبيل تحقيق ذلك بالعلوم الأخرى : مثل الرياضيات والمنطق (لتقديم النتائج والوصول اليها أحيانا) وعلم وظائف الأعضاء والطبيعة (فى دراسة نطق الأصوات وسماعها) وعلم النفس والاجتماع والتربية (فى دراسة تعلم اللغة واستيعابها ، وآثارها على الفرد والمجتمع كما يحدث فى علم اللغة التطبيقى مثلا) كما يستعين علماء اللغة ببعض الآلات ، ووسائل التقنية المختلفة أمثال الأشعة السينية والمطايف (Spectograph) والحاسب الالكترونى الى جانب أجهزة تسجيل الصوت المعروفة .

من كل هذا يتضح لنا أن ما يعرف بعلم اللغة (Linguistics) هو فى واقع الأمر مجموعة من العلوم يجمعها هدف واحد وهو دراسة الظواهر اللغوية لدى الانسان .

الفروع الرئيسية لعلم اللغة :

اتفق علماء اللغة على تقسيم علم اللغة الى شعبتين رئيستين هما :

١ ــ علم اللغة النظرى أو العام
٢ ــ علم اللغة التطبيقى

وهناك من يرى اضافة شعبة ثالثة هى :

٣ ــ علم الأصوات ..

لكننا نرى أن علم الأصوات بهذا المفهوم يمكن ادراجه تحت مفهوم : علم اللغة النظرى أو العام حيث ان الأصوات جزء من الظواهر والنشاط اللغوى لدى الانسان ، وكثيرا ما تتشابك دراسة الأصوات بالدراسات الصرفية والنحوية خصوصا فى المدارس الحديثة مثل المدرسة التوليدية :
(Generative Grammar)

على الرغم من هذا الاتفاق العام على التقسيم فانه ليس من السهولة بمكان تحديد معالم اى من الشعبيين تحديدا دقيقا ، لأن ما يعتبره البعض نظريا يراه آخرون تطبيقيا والعكس بالعكس ، ولذلك فان ما سنذكره فى السطور التالية قد يتفق مع بقية آراء الدارسين لعلم اللغة فى اجزاء منه ويختلف معهم فى اجزاء اخرى : حيث ان الظاهرة اللغوية الواحدة قد تتم دراستها بأسلوبين مختلفين أحدهما نظرى والآخر تطبيقى ، بل وربما بأسلوب ثالث : « بين بين» فدراسة الألفاظ مثلا قد تكون موضوع دراسة الصرف (Morphology) او المعانى (Semantics) وهما دراستان نظريتان فتسمى علم الألفاظ (Lexicology) وقد تكون موضوع دراسة لمعاجم وصناعتها وهى دراسة تطبيقية فتسمى صناعة المعاجم Lexicography

وفى اغلب الحالات تتداخل الدراستان فتكمل احداهما الأخرى ، وخصوصا اذا علمنا أن الدراسة التطبيقية لابد وأن تعتمد على أساس نظرى سليم .

علم اللغة النظرى (The Oretical Linguistics) :

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة من المعارف المتعلقة باللغة اهمها ما يلى :

١ ــ علم الأصوات بفروعه مثل (علم الأصوات النطقى Ariculatory) (Phonctics الذى يدرس مخارج الحروف واعضاء النطق وعلم الأصوات السمعى : (Acoustic Phonetics)الذى يعنى بدراسة موجات الصوت وكيفية انتقاله فى الهواء ووصوله الى السمع والعوامل المؤثرة فى كل ذلك وعلم وظائف الأصوات فى اللغات : (Phonology) وغيرها .

٢ ــ علم القواعد : (Grammar) ويدخل تحت هذا المسمى :

(أ) علم الصرف (Morphology)) الذى يعنى بدراسة بنية الكلمة او بتعبير أدق دراسة الوحدات الناقلة للمعنى : (Morphemes) مثل الكلمة وأجزائها وتصريفها .

(ب) علم النحو : (Syntax)وهو الفرع الذى يدرس بنية الجملة وشبه الجملة وانواعها ، اى انه يدرس نظم الكلام .

٣ ــ علم اللغة التاريخى : Historical Linguistics ويدرس هذا الفرع من علم اللغة تطور اللغات والأسر اللغوية وارتباط اللغات المتقاربة النسب بعضها ببعض وأوجه الشبه والاختلاف بينها :
(Language Typology)

٤ ــ علم الدلالة (Semantics) :

وهو يدرس العلاقة بين الرمز اللغوى ودلالته أو دلالاته كما يدرس تطور معانى الألفاظ من الناحية التاريخية بما فى ذلك تأثير المجازى للغوى من كناية واستعارة ... الخ .

علم اللغة التطبيقى (Applied Linguistics) :

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة أخرى من علوم اللغة أهمها :

١ ــ علم اللغة النفسى (Psycholinguistics) :

ومن أهم موضوعات دراسته بالنسبة لعالم اللغة هو اكتساب اللغة الأصلية (عند الأطفال بوجه خاص والبالغين بشكل عام) والعوامل المؤثرة فى ذلك بيولوجية كانت أو نفسية أو اجتماعية ثم تعلم اللغات الأجنبية العوامل المؤثرة فى ذلك داخلية كانت أو خارجية ، مساعدة كانت أو مثبطة ، كما يعنى بدراسة عيوب النطق والكلام .

٢ ــ علم اللغة الاجتماعى (Sociolinguistics) :

ويعنى هذا الفرع بتأثير المجتمع على اللغة ، واللغة على المجتمع كما يدرس مشكلة اللهجات الجغرافية (فى مناطق مختلفة) والطبقية (أفراد المجتمع فى طبقاته الثقافية أو الاقتصادية) والازدواج اللغوى وما شابه ذلك ، ومن أهم مجالات هذا العلم التخطيط اللغوى (Planning language) الذى يعالج قضايا كثيرة مثل تقرير نظام الكتابة واختيار اللغات الرسمية وأساليب المحافظة عليها وتطويرها .

٣ ــ علم اللغة الآلى (Computioral Linguistics) :

وهو الفرع الذى يعنى بدراسة اللغة لتطويع المادة اللغوية للحاسب الالكترونى والاستفادة من الحاسب الالكترونى فى الدراسات اللغوية ومن أبرز مواضيع هذه الدراسات هو الترجمة الآلية :
(Computational Linguistics)

وتخزين المعلومات واستعادتها من ذاكرة الدماغ الالكترونى :
(Information Retrieval)

٤ ــ صناعة المعاجم (Lexicography) :

ويدرس هذا الفرع من علم اللغة لتطبيق الأمور المتعلقة باعداد المعاجم آحادية اللغة (مثل لسان العرب والمعجم الوسيط) وثنائية اللغة (عربى ــ انجليزى مثلا) او متعددة اللغات (مثل عربى ــ انجليزى ــ المانى) بما فى ذلك جمع المواد اللغوية وتنسيقها واساليب عرضها .. الخ .

٥ ــ تعليم اللغات (Language Teaching) :

يعتبر هذا الفرع من أهم فروع علم اللغة التطبيقى ان لم يكن هو أهمها على الاطلاق مما حدا بكثير من علماء اللغة الى استعمال اصطلاح علم اللغة التطبيقى مرادفا لتعليم اللغات (الأجنبية على وجه الخصوص) وهذا الفرع يعنى بكل ماله صلة بتعليم اللغات من أمور نفسية واجتماعية وتربوية بما فى ذلك الاتجاهات والطرائق المختلفة والوسائل المعينة ، من اعداد للمدارس والمناهج والمواد التعليمية والاشراف عليها ، هذا وتوجد الى جانب تعليم اللغات دراسات أخرى وثيقة الصلة بها مثل :

(أ) التقابل اللغوى وتحليل الأخطاء :
(Contrastive and Error Analysis)

الذى يقوم بمقارنة اللغات المختلفة ودراسة نقاط الاختلاف بينها للتعرف على النقاط التى قد تكون عقبة فى طريق دارسى تلك اللغات من الأجانب ، كما يدرس هذا الفرع بأسلوب علمى الأخطاء التى يرتكبها دارسو اللغة ومحاولة التعرف على أسباب تلك الأخطاء لمعالجتها .

(ب) تصميم اختبارات اللغة (Language Testing) :

موضوع هذا الفرع من الدراسة هو تصميم اختبارات اللغة أصلية كانت أم أجنبية وتطوير الوسائل اللازمة لتحسين هذه الاختبارات من ناحية المحتوى والناحية الفنية والعملية للوصول بها الى أعلى درجة ممكنة من الصدق (Validity) والثبات (Reliability) والتميز (Discrimiation) وسهولة التطبيق (Practicality).

(ج) بالاضافة الى ما سبق ذكره نجد بعضا من الجامعات الغربية التى تقوم بتدريس طرائق محو الأمية (Literacy) بوصفه فرعا من فـــروع علم اللغة التطبيقى .

فروع علـــم اللغـــــة :

ذكرنا ان اللغة ظاهرة متشابكة وتتألف من عناصر كثيرة ، وتختلف طرق تناول كل عنصر منها باعتبار النظرة من الدارسين للغة ، وباعتبار تنوع اغراض الدراسة وتنوع التناول والمنهج .

وكثرت فروع اللغة وتنوعها وتدرجها جعل تحديد المعالم بين الأقسام والفروع يتفق أحيانا ويختلف احيانا اخرى : فهو نظرى مرة ، وهو تطبيقى مرة اخرى ، وهو نفسه بين بين — بمنظارين — مرة ثالثة .

لذا كان الاتفاق العام ، او شبهه ضروريا فى تحديد التقسيم فى مثـــل هذه الدراسة الموجزة تبيانا للدارسين ، وتحديدا للمصطلحات ، وتنميما للفائدة .

وبشىء من الوضوح مع الايجاز يمكن تحديد فروع علم اللغة للدراســـة فيما يلى : —

أولا — دراســـــة علم الأصـــــوات او (الفوناتيك Phonetics) كمـــا يسميه الأجانب ، وهو يتناول عنصر الصوت من اللغة ، لتحديد مخارج الأصوات ، وطرق احداثها وتصنيفها — وما يعرض لها من تبدلات على مر الزمان ، واسباب ذلك ودراسة اعضاء النطق التى تتصل بالصوت ، واثر بعضها فى بعض ...

او بمعنى آخر : (الفوناتيك) هو علم الأصوات المجردة الذى يدرس الأصوات فى ذاتها ولذاتها، دون الاهتمام بالوظائف التى تقوم بها هذه الأصـــوات فى اللغة . وانما يتناول دراسة مكونات الصوت ، وعناصره الأساسية ، وعدد ذبذباته وطبيعتها ...

ويتفرع علم الأصوات الى : —

(أ) علم الأصوات الوصفى (Descriptive) :

ويطلق على دراسة أية لغة دراسة صوتية على نحو ما سبق ، لكن فى فترة معينة من الزمان .

(ب) وعلم الأصوات التاريخى (Historical) :

ويعنى بدراسة لغة ما ، دراسة صوتية ، خلال فترة طويلة من الزمان ، بغرض الوقوف على ما أصاب هذه الأصوات من تطور وتبدل ، والبحث عن المؤثرات التى خضع لها هذا التطور .

(ج) وعلم الأصوات المقارن (Compartive) :

ويعنى دراسة لغتين أو اكثر ، دراسة صوتية ، لبيان أوجه الشبه والاتفاق ، واظهار صلات القربى التى بينها .

(د) وعلم الأصوات العام (Phonetics) :

حين يكون الغرض من الدراسة ، الوقوف على حقائق الأصوات اللغوية للغات ، والكشف عن القوانين العامـــة التى تحكم تطورها .

ثانيا ــ علم الأصوات التشكيلى ، أو التنظيمى الفونولوجيا (Phonology) :

وهو دراسة تنظيمية تتناول عناصر الصوت من اللغة مثل سابقه لبيان وظيفة الصوت فيها : اى انه يدرس النظم الصوتية للغـــة معينة ، كما ينطقها أصحابها وذلك : كمعرفة الفرق بين نطق الوسيلة بالترقيق ، والوصيلة ــ بالتفخيم فى العربية ، فالفونولوجيا يكشف عن التقابلات فيما بين نطق الحرفين . وكقولهم : التاء اذا وقعت بعد حرف مطبق فى صيغة افتعل قلبت طاء : كاصطبر فى اصتبر . فالصوت فى سياقه يختلف عن الصوت المجرد ، من حيث كمية الجهد اللازمة لانتاجه ، ومن حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه او اللاحقة به . ولهذا التأثر قوانين عامة فى جميع اللغات ، بحيث نجد صوتا كالنون مثلا فى العربية ، قد ينطق على سبع صور بحسب الصوت التالى له وكل هذه الصور أعضاء لفونيم واحد ، هو (النون) وكلمة (فونيم) معناها : (الوحدة الصوتية) التى تأخذ عدة صور باختلاف المواقع المؤثرة فيهـــا .

علما بأن مباحث (الفونتيك والفونولوجيا) شديدة التداخل ، بحيث يعسر أحيانا فصلها ، ولذا فان بعض العلماء يدرجها مع بعضها .

لكن يمكن أن يقال : ان علم (الفوناتيكا) يتناول بالدراسة كل ما يتعلق بالأصوات بصفة عامة ، من وجوهها المختلفة ، على اعتبار انها مادة الكلام .

ويقسم الأصوات البشرية بموجب ثلاثة معايير ، هى : مواضـــع النطق ، وطريقته ، ، واهتزاز الأوتار الصوتية ام لا .

بينما يتجه علم (الفونولوجى) الى التجريد ، ليستخلص من الدراسات المادية القواعد التى تنتظم بموجبها الأصوات فى سلاسل ذات معنى ، لتؤدى وظيفتها الأساسية فى الكلام ، بالنسبة للغة معينة بالذات .

● ويتفرع علم (الفونولوجيـــا) الى : الفونولوجيا الوصـــفية ، والتاريخية والمقارنة ، والعامة . كتفرع (الفوناتيك) بحسب الاعتبارات التى ذكرت هناك . وعرف علماؤنا العرب دراسة الأصوات فى (الفوناتيك والفونولوجيا) تحت اسم (علم التجويد) ، الذى بهر العلماء الغربيين بدقته وتنظيمه .

(وسنوضح الأصوات بشكل أوسع عند دراستها باذن الله) .

ثالثا ــ علم المفردات ، او المعجمية او متن اللغة : اللكســيكوجرافيا : (Lexicographia)

وهو يعنى بالمفردات ، وتصنيفها الى (اسم وفعل وحرف وظـــرف وصفة ...) وينقسم الى علمين : علم (المورفولوجيا) اذا اهتم بشكل الكلمة وصيغتها . وعلم (السيمانتيك) اذا اهتم بمعناها .

رابعا ــ علم الصرف ، او الصيغة او البنية : المورفولوجيا (Morphology)

ويبحث فى احوال الكلمة من : الجمود ، والاشتقاق واصله ، والمجرد والمزيد وحروف الزيادة . وما يحدث من تغييرات عند التثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، وما يحدث للفعل عند اتصاله بالضمائر . والطـــرق القياسية التى تنمى اللغة . وينقسم علـــم (المورفولوجيا) الى اربعـــة اقسام هى : الوصفية ، والتاريخية ، والمقارنة ، والعامة بحسب اعتبارات التقسيم السابقة فى (الفوناتيك) .

خامسا ــ علم الدلالة ، او : السيمانتيك (Semantic) :

وهو يحدد معنى الكلمة او معانيها المتعددة (كالمشترك والمتضـــاد والمترادف ...) والعلاقة بين الكلمة والمعنى ، وتبدل المعنى واسبابه ، وحياة الكلمة من نشأتها حتى موتها .

سادسا ــ علم النظـــم : السنتكس (Syntax) :

ومعظم مباحثه تشبه علم النحو عندنا ، من بناء الجملة ، وحروفه المعانى التى تربط بين أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وفى شكل الجملـــة (ابتدائية ، استفهامية ، اخبارية ، منفية ، تعجبية ...)

وينقسم هذا العلم الى أربعة أقسام : وصفى ، وتاريخى ، ومقارن ، وعـــام .

سابعا ــ علم الأساليب : الستيلستيك (Stylistic) :

وهو يبحث فى أساليب اللغة ، واختلافها باختلاف فنونها من : (شـعر ونثر وخطابة ومحادثة ، وكتابة ، ومسرح ...) ، وينقسم هذا العلم الى الأقسام الأربعة المعروفة .

ثامنـــا ــ علم اللغة الوصفى (Descriptive) :

وهو مجموع ما مر معنا من فروع علم اللغة الوصفية : فدراســـة اللغة فى الأصوات والمفردات والتراكيب دراسة وصفية ، هدفها الكشف عن الحقائق اللغوية فى لغة ما ، وبيـــان خصائصها فى (فترة محـــددة من الزمان ، يسمى : (علم اللغة الوصفى) .

تاسعا ــ علم اللغة التاريخى (Historical) :

هو دراسة ما سبق فى (ثامنا) فى فترة طويلة من الزمان ، لبيـــان التبـــدلات والتغيرات واسبابها . وبعض المحدثين يسمى دراسة المفردات وحدها ، دون الأصوات والتراكيب ، باسم : (الايتيمولوجيا) ، لبيان تاريخ الكلمات أساسا .

عاشرا ــ علم اللغة المقارن (Compartive) :

هو دراسة ما سبق لكن بين لغتين أو أكثر ، دراسة مقارنة بين عناصر اللغة لبيان أوجه الشبه والصلات . كما قارن العلماء بين الساميات : (العربية ، والآرامية ، والاكدية ... الخ) . وبين الآريات : (السنسكريتية، والفارسية ، والأرمنية ، والسلافية ، والاغريقية ... الخ .

حادى عشر ــ علم اللغة العام (General Linguistics) :

هو دراسة مجموع الفروع السابقة فى علم اللغة العام ، بين مجموعة من اللغات للكشف عن وجوه الاتفاق بينها ، والقوانين العامة التى تحكمها .

كما انه يتناول المشكلات الآتية : ــ

صراع اللغات ، وانشعابها الى لهجات ، وعوامل انحطاط اللغة ورقيها ...

ملاحظـــــة : ــ

هناك علوم لغوية أخرى ، تحسب ضمن هذه الفروع ، لكن بعض الباحثين يعدها علوما مساعدة لا أصلية ، مثل : نشأة اللغة ، والامـلاء والرسم ، والترجمة ومشاكلها ، وتعليم اللغات المحلية والأجنبية ، وعلاج العيوب العائقة عن الكلام ، وعلم النفس اللغوى ، والبيئة اللغوية ، وتحقيق التراث ولكن هذه كلها ــ فى الواقع ــ فروع وباحث لغوية ، تجب العناية بدراستها لاتصالها الوثيق باللغة وعلومها . ا . هـ ..

* * *

من تاريخ علم اللغة العام

اللغة خاصية الانسان وميزته ، ومبعث فخره واعتزازه ، ولذا ما فتىء منذ القدم يحاول كشف سرها ، ويوليها البحث والتفسير ، علّه يهتدى الى كنهها ، وكيفية اصدارها ، وديناميكيتها .

ويمكن بحث تاريخ الدراسات اللغوية فى ثلاث حلقات ، هى دراسة العصور القديمة ، والدراسة العربية ، ودراسة المحدثين فى الغـرب ، وبذلك يعرف القـارىء شيئا من تاريخ هذا العلم :

(أ) ففى العصور القديمة :

نجد أن الدراسات اللغوية تركزت حول محورين أساسيين هما :

البحث عن أصل اللغة ، وعن العلاقة بين اللفظ والمعنى . وتبع هذين المحورين البحث فى قواعد اللغة ، وتصنيف مفرداتها :

فالله تعالى هو الذى علم آدم الأسماء كلها ، أو منحه القدرة عـلى التسمية كما جاء فى التوراة والقرآن الكريم ، لأن اللغة شىء عظيم ، ولا يمكن أن تكون الا من عظيم قادر مبـدع .

والاله (زوس) عند قدماء المصريين هو أصل اللغة والكتابة .

وحاول فرعون مصر (أبسماتيك) فى القرن السابع قبل الميلاد ، معرفة نشأة اللغة الانسانية الأولى .

والبابليون (٣٠٠٠ سنة ق . م) نسبوا اللغة الى الههم (نابو Nabu) بينما يعتقد الصينيون : أن السماء أرسلت ماء وسبحت فيها التماسيح ، وفى ظهرها علامات الكتابة .

واما الهنود فيرون أن الاله (براهما) ، هو الذى منحهم قوة الكتابة . واهتم الهنـود بلغتهـم (الفيـدو ـ سنسكريتية V. Sanskrit) وحافظوا على نطقها ، ووضعوا لها نحوها فى القرن الرابع قبل الميلاد .

وهكذا خلط الانسان أمر اللغة ـ فى أول الأمر ـ بالأسطورة ، وحاول تلمس نص يرتكز عليه .

● ويحكون أن الشعب السومرى (٣٥٠٠ سنة ق . م) جنوبى العراق ،

مشترك لغة عرفناها من نصوصها بالخط المسمارى ، ووضع لها (الأكديون) من الشعوب السامية بعدئذ قواعد لتسهيل استعمالها واتخاذها لغة دين ودنيا .

وهذه وغيرها نظريات ان أدت الى اتساع نطاق البحث اللغوى — بعدئذ — على أسس علمية الا انها لم تؤد الى يقين فى أصل وماهية اللغات ؟ لأن مئات الآلاف من السنين مرت قبل أن تتبلور اى لغة ، ولذلك ينفى (أرواد سابير) أن تكون هناك لغات بدائية ، لأننا لا نعرف اى جماعة بشرية الا وتتكلم لغة كاملة التطور .

● واشتغل فلاسفة اليونان بميتافيزيقا اللغة وأصل الكلمة وعلائقها ... فى القرن الخامس ق . م . كما اشتغل الرواقيون بفقه اللغة الفلسفى .

وعرف التاريخ من المعاجم اليونانية معجم (يوليوس بوليكس) فى المعانى والموضوعات . وكذلك معجم (فاليريوس فيليكس) ، الذى ألف فى عهد الامبراطور (اغسطس) فى معانى الألفاظ .

كما اعتبر اليونانيون أن أفلاطون أول من اكتشف الأسس النحوية .

ويأخذ المؤرخون أن الاغريق تباطأوا فى دراساتهم اللغوية ، مع أنهم أمة لهم تبكيرهم فى التفكير والنضج العلمى ، لأنهم اعتقدوا أن لغاتهم أفضل لغات العالم ، وأن ما عداها يشبه نقيق الضفادع ، على نحو ما حكى ابن حزم عنهم .

وشرحت مدرسة الاسكندرية فى القرن الثالث ق . م ، ما غمض من أشعار (هوميروس) الذى عاش فى القرن التاسع ق . م ، فنشطت الحركة (الفيلولوجية) .

كما أسهمت روما فى الدراسات اللغوية فى القرن الثانى ق . م .

● ويذكر المؤرخون ان معجم (شوفان) لمؤلفه (هوشن) ، والمطبوع سنة ١٥٠ ق . م ، وكذلك معجم « يوبيان » لمؤلفه (كوبى وانج) ، والمطبوع سنة ٥٣٠ م من أقدم المعاجم التى عرفها الباحثون اللغويون عن الأمة الصينية واليابانية .

(ب) وعند علماء العـــرب :

أدت الدراسات القرآنية والعربية الى تطور كبير فى الدراسات اللغوية والأدبية والنحـــوية :

● فقد كانت فى الجاهلية مناظرات ومفاضلات أدبية ، على نحو ماروى عن امرىء القيس وأضرابه،والأسواق الأدبية ، ومدح الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لجيد الشعر ورائع النثر ، واهتزاز عمر ـــ رضى الله عنه ـــ للشعر وسجدة الفرزدق لبيت عبيد بن الأبرص ، لأن المسلمين يعرفون سجدة القرآن وهو يعرف سجدة الشعر ، كما قال .

● كما كان الحافز الدينى هو دافع علماء المسلمين للحفاظ على لغة الضاد ، التى هى وعاء العربية ومقدسات الاسلام ، فكان النهوض المبكر من أبى الأسود الدؤلى لوضع الضوابط النحوية ، بدافع منه ، أو اشارة من الامام على رضى الله عنه ثم اتسع نطاق البحث النحوى عند العرب ، أو (علم التنظيم التعليمى) كما تسميه الفرنجة . واشتد التنافس بين مدرستى البصرة ومدرسة الكوفة ، فنشأت المدرسة البغدادية التى تؤازر السماع ، وتأخذ بوجهة القياس ، وكان من أبر علمائها : الفارسى وابن جنى واستقرت قواعد النحو والصرف فى ذاك العهد ، ولم تضف مدرسة الأندلسيين والمصريين الى تلك الدراسات بعدئذ سوى التفضيل والاختيار والتفصيل أو الاجمال والاختصار .

● واقدم مدرسة لغوية هى ما حكى عنها السيوطى ـــ فى الاتقـــان ـــ مدرسة (ابن عباس ٦٨ هـ) رضى الله عنه فى سؤالات نافـــع بن الأزرق ، وتفسير القرآن الكريم .

كما يعزى اليه كتاب : « غريب القرآن » وكانت نسخة منه فى برلين قبل الحرب العالمية الثانية .

ولن ينسى التاريخ أثر عبقرية الخليل بن أحمد (١٠٠ ـــ ١٧٥ هـ) فى كتبـــه : (معجم العين ، والايقاع والنغم ، والنقط والشكل ، والعروض ، والشواهد ، والجمـــل ومعانى الحروف) .

وتبعه على الدرب تلاميذه الرواد : صاحب الكتاب (سيبويه ١٨٠ هـ) ، وأبو فيد السدوسى (١٩٨ هـ) والأصمعى (٢١٦ هـ) .

● وعاصر هؤلاء الاعلام او جاء قبلهم من الف مبدعا او اضاف جديدا أو وضح فكرة فى الدراسات اللغوية ، مثل أبو عمرو بن العلاء (١٤٥ هـ) ، والمفضل الضبى (١٧٠ هـ) ، ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ، وأبو زيد الأنصارى (٢١٥ هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام الهروى (٢٢٣ هـ) ، وابن الأعرابى (٢٣١ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٣ هـ) وغيرهم .

● وشغل العرب باعجاز القرآن وتحديه ، وبلاغته وروعته ، فدرسوا ذلك وانتظم لهم ما يعرف (بعلوم البلاغة) ودرست أول أمرها فى داخل الرائع من النصوص على يدى ابن المعتز ، وأبى هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ... ثم خلطت بالمنطق والفلسفة كما صنع السكاكى ، فى كتابه (مفتاح العلوم) ، والخطيب القزوينى فى (تلخيص المفتاح) . ونلاحظ ان علوم البلاغة كعلوم جمالية ، تأخرت عن النحو والصرف كعلوم كمالية مع ان العلماء العرب كانوا موسوعة فى ثقافتهم ، فكثير منهم : نحوى ، لغوى ، صوتى ، راوية ، أديب ، قارىء ، وبعضهم صوتى ، موسيقى ، رياضى كالخليل بن أحمد . حتى جاء كتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) غريب القرآن ، خليطا بين منهجى كتب اللغة وكتب التفسير ، وكتاب سيبويه جامعا لقواعد العربية ، والأصوات واللهجات ...

● وكان قصد العرب الهام هو المحافظة على ضبط القرآن الكريم وقراءاته وتجويده ، فعرفوا الوجوه التى نطقت بها العرب ، وطريقة أداء القرآن ، بالتلقى والمشافهة ودرست اللهجات العربية فى ظل القراءات القرآنية ، ولو دونها العلماء عند ذلك وعند جمع اللغة ، لأسدوا الى لغتهم الجميل الوافر ولأراحونا . على كل تعرفنا على مخارج الحروف وموسيقاها وصفاتها ، وحتى نظم ذلك فى الشاطبية وغيرها .

فبداية الدرس اللغوى وان كانت نحوية لغوية ، الا أن لغوى ذلك العهد كانوا من القراء وعلماء القراءات والتجويد الذى بهر علماء الغرب .

وهذا اللون من البحث هو ما عرف أخيرا عند علماء الغرب بالأصوات الذى يضم (الفونتكس Phonetics) أى الوصف . و (الفونولوجى Phonology) اى التنظيمى .

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين : « ان هذا الجيل

على الرغم من انه كان حافلا بالكثير من الموالى غير العرب ، قد حمل أمانة القرآن والعربية حملا عربيا خالصا ، اذ أن العربية كانت تيارا استوعب كل الموجات الداخلة فى المجتمع » .

● ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنه — قوله : « الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى انـزل الله ، رجعنـا الى الشعر ، فالتمسنا معرفة ذلك منه » .

ويقول : « اذ تعاجم شىء من القرآن فانظروا فى الشعر ، فان الشعر عربى » ... وكانت لذلك انطلاقة علماء العرب فى جمع الشعر وتدوينه ، والتنقيب عن معانى غريبه . هادفة فهم كتاب الله : فقد روى أن عمـر — رضى الله عنه — استفسر عن معنى — « تخـوف » فى قوله تعـالى : « **او ياخذهم على تخوف** » (١) وهو على المنبر ، فقال له أعرابى : تلك لغتنا يا عمر ، ومعناها « تنقص » وروى له قول شاعرهم ذى الرمة :

* تخوف الرجل منها تامكا قردا *

ولذا عظمت الدراسات الأدبية ، والعناية بتاريـخ الأدب ونقـده ، ودرست التراجم والمؤثرات فى الأدب ، والعروض والقوافى ...

● ولخوف العرب على لغتهم ، وانطلق العلماء الى البوادى لجمع اللغة من أصحابها الخلص الموثوق بعربيتهم ، والفوا فى ذلك رسائل خاصـة فى الألفاظ او المعانى مثل : كتاب اللغات فى القرآن لابن عباس . ولغات القبائل ليونس بن حبيب (١٧٢ هـ) ، وكتاب الحشرات لأبى خيرة الأعرابى ، أستاذ الخليل بن أحمد ، وغريب الحديث ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠ هـ) . وكتاب الانواء ، لأبى حنيفة . وأسماء الوحوش والغابات للاصـمعى . والزاهر فى غرائب الفاظ الامام الشافعى ، لأبى منصور محمد بن أحمـد الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) وكتاب النحل والعسل لأبى عمرو الشيبانى (٢٠٦ هـ) والحيات والعقارب لأبى عبيدة (٢١٠ هـ) وكتـاب الذبـاب لابن الاعرابى (٢٣١ هـ) وكتب الحشرات ، والجراد ، والنحل والعسـل ،

---

(١) النحل : ٤٧

لأبى حاتم السجستانى (٢٥٥ هـ) . وكتاب الخيل وكتاب خلق الانسان ايضا لابن كركرة والنضر بن شميل (٢٠٤ هـ) ونوادر ابن الاعرابى ، وأبى زيد ابن الانصارى . وجبال العرب ، لخلف الأحمر (١٨٠ هـ) . ومنازل العرب وحدودها ، لأبى الوزير عمر بن مطرف (١٨٦ هـ) . ومياه العرب ، وجزيرة العرب ، والدارات للاصمعى (٢١٦ هـ) ...

فكانت هذه الرسائل وغيرها مما بقى منها ، خير حافظ للغة العرب من الضياع ، واساس المدارس المعجمية العربية المختلفة .

أما عناية العرب بالمباحث اللغوية فى تخصصها واختصاصها ، فيمكن التأريخ لها فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، على يدى ابى على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى وابن فارس ، والثعالبى .

فمن مباحث علم اللغة ما عرفته العرب كالاشتقاق للاصمعى (٢١٦ هـ) ومباحث التعريف والاشتراك والترادف ، لابن سيده الأندلسى (٣٩٧ — ٤٥٨ هـ) فى المخصص ..

ويعد كتابى ابن جنى : الخصائص ، وسر صناعة الاعراب ، من احفل الكتب بمباحث علم اللغة التى يصح ان تفاخر بها العرب :

ففى سر صناعة الاعراب : احكام حروف المعجم ، ومخارجها وصفاتها ، وتصريفها واشتقاقها ، ونظمها مع غيرها ... وفى : « الخصائص » منهج جديد لدراسة النحو والصرف ، وتناوب الحروف عن بعضها ، والاطراد والشذوذ ، ونشاة اللغة ، وخصائصها .. وجاء كتاب « المزهر فى علوم اللغة » للسيوطى (٨٤٩ — ٩١١ هـ) حافلا بمباحث الأقدمين فحفظها من الضياع ، كما ان له مباحث جديدة ، كالاقتراح فى أصول النحو ، وحسن المحاضرة ، والأشباه والنظائر .

وكذلك كتب التعريب ، والدخيل وضبطها هذا غيض من فيض من عناية العرب بلغتها ، لكن بعض المحدثين لا يرى ذلك من فروع الدراسات اللغوية الا اذا قصد من دراستها التعرف على الاطوار التاريخية للالفاظ والقواعد والأساليب ، والعوامل التى اثرت فى تطورها . وكذلك الدراسات المقارنة بين هذه الفروع . أما الدراسات المتعلقة بجمع اللغة ، أو القواعد الصرفة ،

أو تقوم على الحدس والتخمين كنشأة اللغة التى تقوم على أمور ظنية ، فليست كلها من مباحث علم اللغة .

وهذا رأى مبالغ فيه ، لأنها كلها داخلة فى المباحث اللغوية ، كما حددتها مجالات علم اللغة .

فانفصال العلوم النحوية والصرفية والبلاغية فى الدراسة اللغوية ، لا يعنى انها خارجة عن نطاق الدراسة اللغوية ، والتجديد فى القواميس مازال يطالعنا كل يوم بجديد نحن بحاجة أكيدة اليه اليوم .

وقد أسعفت الامكانات المتواضعة المتاحة وقتها علماءنا بهذا الاداء الجيد ، والضبط الواعى ، ولم تنقضه الدراسات الحديثة الا لماما .

وكذلك عرف العرب التتبع التاريخى للالفاظ العربية فى العصور المختلفة .

(ج) وعند علماء الغرب :

ظلت أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر بعيدة عن جو النهوض العلمى ، وما سبق لعلمائهم من دروس وبحوث لغوية قبل ذلك كانت توصف بأنها مباحث لا تدخل فى نطاق علم اللغة : مثل : بحوث : نشأة اللغة ، وبحوث بنية الكلمة ومادتها ، وطريقة استعمالها تماما كما وصفت أبحاث العرب الأقدمين فى هذا الجانب .

فلما تهيأ لأوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر أسباب النهوض العلمى ، اطلعوا على ترجمة العلوم العربية ، واستفادوا منها ، بينما غفا أهلها غفوة طويلة ، لأسباب ليس هنا مجال سردها .

ويرى ، « فرديناند دوسوسور » (١٨٥٧ — ١٩١٢ م) على نحو ما يروى الدكتور عبد الصبور شاهين — أن العلم الذى يدرس الأحداث اللغوية فى الغرب مر بثلاث مراحل ، قبل أن يعرف وجهته الصحيحة :

١ — مرحلة دراسة « النحو » وتنظيم القواعد ، ووصف الواقع ، دون اهتمام باللغة فى ذاتها . على نحو ما كان يصنع الاغريق ، والفرنسيون من بعدهم ..

٢ — ثم عرفوا (الفيلولوجيا أو فقه اللغة) ، فى عهد « فردريك أوجست وولف » ابتداء من عام ١٧٧٧ م ، على غرار مدرسة الاسكندرية .

(الفيلولوجية) التى كانت تهتم باللغة ، وتوثيق النصوص ودراستها ، والتاريخ الأدبى ، والنقد ، واحياء المخطوطات ، فكان ذلك تمهيدا لعلم اللغة التاريخى .

٣ ــ وجاءت مرحلة الفيلولوجيا المقارنة ، أو النحو المقارن ، لاكتشاف العلاقات بين اللغات ، على يد المستشرق الانجليزى « وليم جونز W. Jonce» (١٧٩٤ م) ، الذى اكتشف قرب (السنسكريتية) لبعض لغات أوروبا وآسيا ، وبعد المقارنات اثبت حكمه بأن (السنسكريتيه) أوفى من الاغريقية ، وأجمل من الاغريقية واللاتينية ، من جهة أصول الكلمات وصيغ النحو ، وأن جميعها متفرعة من أصل واحد ... كما أثبت العلماء ــ بعدئذ ــ أن الساميات من أصل واحد . كما ذكر . د ابراهيم نجا ، وادت هذه الدراسات فى القرن التاسع عشر ، الى ظهور : ــ

(أ) علم القواعد المقارن : الذى يدرس القواعد دراسة تاريخية تفصيلية تحليلية فى فصيلة من اللغات الانسانية ، أو فى جميع الفصائل ، كما يقوم على الموازنة ، وعلى الأمور الداخلية للالفاظ والقواعد وتطويرها .

(ب) وعلم القواعد التاريخى : الذى يبحث لغة واحدة ، ويعتمد على التحليل بلا موازنة ، ويعنى بالعناصر الخارجية التى تؤثر فى القواعد ، وتنقلها من حال الى حال عبر الأزمنة .

وتتابع البحث فى علم (الفيلولوجيا المقارنة) على يد « فرانز بوب Franz Bopp » « وماكس مولر Max Millar و « ج . كيرتيوس G. Curtius » و « اوجست شليشر Aug. Schlecher» .

وعلى يد هؤلاء وتلاميذهم ارتقى البحث اللغوى .

ولكنه بلغ شأوا بعيدا ، وعرف مكانه الصحيح على يد عالم اللغات الرومانية « دييز Dies » مؤلف كتاب (نحو اللغات الرومانية) المنشور سنة ١٨٣٦ م . وعلى يد العالم الامريكى (وايتنى Whitney)، الذى الف كتاب (حياة اللغة) عام ١٩٧٥ م . وتوالى على اثرها العلماء : (برجمان Brugmann) و (استوف Ostoff) و (براون Braune و (سيفرس Sivars) وعالم السلافية (ليسكيان Leskien) ...

وبخاصة على يد الرائد « فرديناند دوسور » فى كتابه : (محاضرات فى علم اللغة العام) ، وتلميذه « أنطوان مييه » فى كتابيه : (علم اللغة التاريخى ، وعلم اللغة العام) .

ويصف « ماريوباى » مؤلف ، (أسس علم اللغة) ، كتاب « دوسوسور » بأنه أول كتاب رسم الأسس الدقيقة لعلم اللغة الوصفى ، باعتباره فرعا من فروع علم اللغة ، ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين عن أعمال « دوسوسور » العلمية « بأنها كانت تدور حول الدراسات المقارنة ، ومنها استطاع أن يقدم أفكاره عن علم اللغة العام ، أى : أنه بدأ تاريخيا ، وانتهى وصفيا ، فأضفى على علم اللغة الموضوعية » .

ويتفق رأى ماريوباى ، ودوسوسور ، على أن لعلم اللغة فروعا ثلاثة هى :

١ ــ علم اللغة الوصفى او التركيبى : (Descriptive)

٢ ــ وعلم اللغة التاريخى : (Historical)

٣ ــ وعلم اللغة الجغرافى : (Goghraphy)

والأول : أساس الدراسات اللغوية ، لعنايته بالصوتيات والفونيمات ، التى هى أكثر فروع اللغة موضوعية ، ولعنايته كذلك بالأطالس اللغوية : تهذيبا أو وضعا .

والثانى : يهتم بدراسة ماضى اللغة ، للاستفادة منها فى حال اللغة أو مستقبلها .

والثالث : يهتم بدراسة تنوع اللغات ، وأمكانها ، وتعقد التنوع الجغرافى ، وتعايش اللغات فى مكان واحد (كما فى سويسرا) ، وعن اللغات الأدبية ، وانتشار اللهجات وتوزعها مكانيا وزمانيا ، وانتشار اللغات ، وأسباب انتشارها . .

فالبحوث اللغوية تنوعت عند علماء الغرب ، الى : الصوتية ، واللهجات الشعبية والعامية ، وعلم النفس اللغوى ، للارتباط الوثيق بين الدراسة اللغوية والنفسية ، ودراسة اللغة من ناحية الدلالة ، وعلم الاجتماع اللغوى ، لبيان العلاقة بين الظواهر اللغوية ، والظواهر الأجتماعية . من ثقافة ، وعادات ، وتقاليد ، وحضارة .

ونحن نقدر للغرب جهوده العلمية ، المبنية على أسس منهجية ، ولا ننكر اضافاته البناءة . ولكن نأخذ عليهم اغفالهم جهود علمائنا ، وسبقهم في هذا المضمار ، فهم قد تبعوا مناهجنا ابان نهضتهم ، فكانت الحضارة الأوروبية نتاج العقل الاسلامي والعقل الأوروبي . يقول الدكتور عبد الصبور شاهين ، في كتابه « علم اللغة العام » : آخذ على الأوربيين في تاريخهم للدراسات اللغوية : انهم يقتصرون في سرد التاريخ على جهودهم ، بدءا من أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، دون ان يعرج أحدهم على ماقدم العلماء العرب من جهود فذة في هذا الميدان .

وانا معه في تلك اللفتة الذكية ، والغمزة اللاذعة لقوم لا يعترفون بالجميل ولا ينسبون الفضل للسابق .

ولو كانوا يؤرخون لعلم اللغة التاريخي ، المرتبط بالمقارنات اللغوية بين اللغات المختلفة ، باعتباره اوروبي النشأة .. لعذرناهم في مسلكهم .

ولكن علماء اوروبا لم يخلوا من منصفين : فالمستشرق الألماني (أ . شاده) اعترف بجهود العلماء العرب ، واسهامهم في الحضارة الانسانية بما قدموا من دراسات لغوية لم يسبقوا اليها ، في ميدان : النحو ، والصرف ، والأصوات ، والمعاجم ... وقد خص (أ . شاده) بالدراسة جانب الأصوات في بحث بعنوان (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) — انتهى فيه الى أن من الصعب اضافة اى تعديل على ما قدم سيبويه من تحديدات علمية . لكل ما تعرض لدراسته من الظواهر الصوتية ، اللهم فيما عدا موضوع الحنجرة التي لم يعرف العرب لها وظيفة صوتية ، فجعلوها جزءا من الحلق .

وليس في هذه الشهادة مجاملة من (أ . شاده) :

فقد وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية ، بحسب المخرج ، مرتبة من أقصى الحلق حتى الشفتين ، كما تحدثوا عن مخارجها وتصنيفها ، وأنواعها ، وحددوا الأصوات المميزة لبعضها عن بعض .. كل ذلك بالاجتهاد والذوق والعقل ، كما صنع الخليل بن أحمد ، وابن جني رحمهما الله .

* * *

مراجع الفصل الأول والثانى :

ملاحظة : ـ

استفدت فى هذا الفصل ، من عدة مراجع ، سأذكرها مجملة ، وقد لجأت الى هذه الطريقة ـ هنا ـ باغفال ذكر المرجع والصفحة لكل اقتباس لأنها كثيرة اولا ، ومتفقة أحيانا ثانيا ، وخشية تضم الحاشية وكثرة الأرقام والأقواس ثالثا ، بلاداع . فليرجع اليها من شاء مزيدا من الفائدة ، وهى : ـ

١ ـ الخصائص لابن جنى ٢ ـ الصاحبى لابن فارس

٣ ـ المزهر للسيوطى ٤ ـ مقدمة : للعلايلى

٥ ـ اللغة لفندريس ٦ ـ المخصص لابن سيده

٧ ـ فقه اللغة للدكاتره : ابراهيم نجا ، و وافى ، و العزازى .

٨ ـ دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح

٩ ـ اللغة والفكر للدكتور عثمان امين

١٠ ـ فى علم اللغة العام للدكتور عبد الصبور شاهين

١١ ـ الوجيز فى فقه اللغة للدكتور محمد الانطاكى

١٢ ـ منهج البحث فى الأدب واللغة ـ مانسون ومييه ـ ترجمة د . محمد مندور .

١٣ ـ علم اللغة د . محمود السعران

١٤ ـ مناهج البحث فى اللغة . د . تمام حسان .

١٥ ـ تهذيب المقدمة اللغوية د . اسعد على

١٦ ـ علم اللغة العام د . محمد كمال بشر

١٧ ـ اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، للدكتور : نايف خرما

١٨ ـ مجلة الفيصل السعودية عدد ١٨ ذو الحجة ١٣٩٨ هـ مقال للدكتور محمود اسماعيل صينى ص ٦٨

١٩ ـ مجلة اللسان العربى مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى بالرباط ، مجلد ١٥ ، حـ ٢ سنة ١٣٩٧ هـ .

٢٠ ـ اللفظ ذو المعنيين واثره فى تنمية الثروة اللغوية : رسالة مخطوطة لنا .

الفصل الثالث

النظريات في نشأة اللغة

أصل الانسان ، ونشأة لغته ، أمر يثير الخيال ، ويدفع العقل الى التفكير . ولذا كان البحث عن (أصل اللغة الانسانية الأولى) من أقدم المشاكل الفكرية التى جابهت الباحثين والمفكرين .

وكلما ازدادت معرفتنا بتاريخ الانسان ، فيما قبل التاريخ المدون — كما حدث فى قرننا الأخير — كلما تطلعنا — فى اصرار — الى كشف حجب الأستار والأسرار التى تحجب عنا معرفة أصل اللغة ، وتحول الانسان من حيوان لبكم الى حيوان ناطق ، لان أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الانسان ذاته وتطور مخه ، وتطوره الاجتماعى .

وعلى هذا فقضية اللغة وأصل نشأتها ليست قضية لغوية فحسب ، ولا تدخل فى نطاق (علم اللغة) وحده ، وانما هى داخلة فى نطاق (البسيكولوجيا ، والانثربولوجيا ، والفلسفة) .

ولذلك كانت اللغة وجهازها — عند الانسان — أمرا عجيبا مثيرا غاية فى التعقيد والغرابة . ومن ثم عسر تعريفها ، تعريفا جامعا مانعا ، كما تعسرت الأجابة عن ماهيتها ، وأصلها ، وكيف تدرجت ... الخ .

ونحن نعرف سلفا أن العلم اليقينى لا يعترف بشىء اسمه الحدس والخيال ، كما لا تدخل الغيبيات فى تجربته ، إلا اذا كانت افتراضات قيم البرهان ، حين يصمت التاريخ .

وقد نشط العلماء والفلاسفة ، الى الاجابة على ذلك التساؤل المحير ، ووجدوا أن اللغة — فى أول أمرها — لم تخضع للمنطق والعقل ، حيث لم يكن — ثمت — منطق ولا عقل ، وانما دلت الشواهد الأولية انها على انها

كانت وليدة فوضى الوضع الارتجالى القديم ، قبل أن تخضع للفكر والمنطق والوضع النظامى ، تمشيا مع رقى الانسان .

وكان الغرض منها أن تعبر عن الغرائز والعواطف ، ثم للغناء والمتعة ، ثم أصبحت ذات أهداف فى التعبير والتفاهم وايصال المعانى .

ولم يقتصر البحث فى (أصل اللغة) على فترة معينة ، بل امتد حتى شمل فترة ما قبل الميلاد ، الى العصر الحديث ، وحتى لا يدور البحث ــ فى هذا الجانب ــ فى حلقة مفرغة ، بعد كثرة القول وتعدد النظريات ، نادت الجمعية اللغوية الفرنسية بقصر الكلام فى الموضوع الى هذا الحد . بل ودعا كثير من الباحثين المعاصرين الى عدم الاشتغال به البتة ، لأنه أصبح غير ذى موضوع ولا مفيد . وباعتبار أن احداثها كانت فيما قبل التاريخ .

غير انا نقول : بأن دراستها ضرورة منهجية لا ينبغى تجاهلها ، كما انها مدخل طبيعى لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ، وان كان أمرا يضرب فى ميتافيزيقا التاريخ وبخاصة وان التخيل والافتراض هنا لهما سند من الواقع ، ولم ينطلقا من فراغ ، بل لهما واقع عملى وظاهرة ملموسة .

ويجدر بنا أن نلم بايجاز ببعض هذه النظريات التى حاولت كشف أصل اللغة وكنهها ، استكمالا للمنهج ، واستعراضا لتفكير القدماء ، وتبيانا لفضل علمائنا القدامى الذين اسهموا بسهم وافر فى الحضارة والتاريخ ، ولم يكونوا عجزة ، ولا عيالا على غيرهم كما لم يكونوا نقلة بريد ، كما يرميهم خصومهم :

أولا ــ نظرية الالهام والوحى والتوقيف :

اى أن الله الخالق أوحى الى الانسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء ــ بكل اللغات ــ مباشرة أو بواسطة ، بعد أن علمه النطق (١) .

وهذه النظرية قديمة قال بها الفيلسوف اليونانى (هيراقليط) (٤٨٠ ق . م) (٢) . والفيلسوف الاغريقى (هيراكليت ٤٨٠ ق . م) .

ويرى (افلاطون) أن اللغة ظاهرة طبيعية وأن الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى بينما يرى ارسطو انها ظاهرة اجتماعية ، وأن

---

(١) الصاحبى ٥ ــ ٢ (٢) فى علم اللغة العام ص ٧٠

أصواتها رموز اصطلاحية ، لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعانى . فأفلاطون مع هذه النظرية وارسطو مع الآتية .

ولها اشارات فى الأديان — كدليل نقلى — ففى التوراة : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ، ليرى كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الانسان ، فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ، ولطيور السماء ، ودوابه الحقول » .. (١) .

واستند علماء المسلمين الى قوله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة** » (٢) .

وارتضى هذه النظرية :

(أ) ابو عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) حيث قرر أن الله سبحانه انطق نبيه اسماعيل بالعربية ، دون سابق تمهيد أو تعليم ، يقول : « وقد جعل الله اسماعيل — وهو ابن أعجمين — عربيا ، لأن الله لما فتق لسانه بالعربية المبنية على غير التلقين والترتيب ، وفطره على الفصاحة العجيبة ، على غير النشؤ والتمرين ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل الى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة . ثم حمـــاه من طبائعهم ، ومنحـــه من أخلاقهم وشمائلهم . وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمهـــا واسناها ، واشرفها واعلاها وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، وصار احق بهذا النسب وأولى بشرف ذلك الحسب » (٣)

(ب) ونادى بهذه النظرية أيضا : ابو على الفارسى (٣٧٧ هـ) أستاذ ابن جنى .

(ج) وارتضاها ابو الحسن أحمد بن فارس الرازى (٣٩٥ هـ) ، واتخذ موقف الدفاع عنها دائما .

---

(١) سفر التكوين — الاصحاح الثانى — الفقرة ١٩ .
(٢) البقرة : ٣١ .
(٣) فى علم اللغة العام ص ٢٩ — نقلا عن مخطوطة

(د) ومال اليها العلامة : أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٥ هـ) ، غير أنه متردد بين الالهام والاصطلاح ، يقول : « واعلم ـ فيما بعد ـ أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري :

وذلك أنني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ، ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر .

فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وامامه ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه ... وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة ، بأنها من عند الله جل وعز ، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه ، وأنها وحي » . (١) على أننا سنرى ابن جني بعدئذ يحمل لواء المعارضة لهذه النظرية .

فابن جني كان يرى ـ في أول الأمر ـ أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة ، انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف ، ثم يقول : الا أن أبا علي ـ يقصد أستاذه أبا علي الفارسي ـ قال لي يوما : هي من عند الله تعالى ، واحتج بقوله سبحانه : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » (٢) . فقوى ذلك الاعتقاد في نفس ابن جني .

وما زالت طائفة في العصور الحديثة ، تذهب الى هذا الرأي كالفيلسوف الفرنسي (دوبانالد) ، من علماء القرن التاسع عشر ، والأب (فرانسوا لامي) (١٧١١ م) في كتابه (فن الكلام) (٣) .

وتوجه النقد لهذه النظرية :

اذ ما فائدة أن يتعلم الانسان الأول كل اللغات ؟ وأي عبقرية تتيح له ذلك ؟

---

(١) الخصائص ١/٤٠ ـ ٤٦

(٢) المصدر السابق ، وانظر : فقه اللغة العربية د . نجا ـ ص ١٥

(٣) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٥

ولماذا تعليم الأسماء دون غيرها من أجزاء الكلام ؟ (اللهم الا اذا قلنا : ان الأسماء بمعنى الأعلام ، التى يمكن أن تتطور الى ألفاظ عامة ذوات معنى) .

على أن فقرة التوراة تشير الى ان آدم هو الواضع للتسمية .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : « **وعلم آدم** » : اى اقدره سبحانه على أن يضع الأسماء للمسميات ، فالواضع لها هو الانسان بتوفيق الله تعالى .

ومن شاء مزيدا من البحث فى هذا المقام ، فليراجع المزهر للسيوطى ، ففيه الشيء الكثير للمستزيد .

وعلى كل فهذه النظرية كانت اتجاها دينيا ، ربطت خلق الانسان على النمط البديع بخلق اللغة الفذة ، وادى ذلك الاتجاه الى اتجاه آخر فلسفى حاول أن يضع نظريات اخرى . على طريق يتلمس الأسباب والعلل ، للوصول الى الصواب على أسس منهجية .

ثانيا ــ نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح :

وتقضى هذه النظرية بأن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق ، وارتجال الفاظها .

ومال كثير من العلماء والمفكرين الى هذه النظرية ، كأرسطو ، والمعتزلة ، والأخفش الأوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة (٢١١ هـ) ، وقال بها ابن جنى (١) قبل أن يرى أن اللغة وحى والهام ، حين رآها مذهب استاذه الفارسى . وقال بها من المحدثين (آدم سميث) الانجليزى .

وسبق أن قلنا : ان (ارسطو) يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وان اصواتها رموز اصطلاحية : لا علاقة طبيعية او مباشرة لها بالمعانى .

ويرسم ابن جنى صورة لكيفية بناء اللغة وارتجالها ، على هذا النحو يقول ، وذلك « كأن يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره ... فكأنهم جاءوا الى واحد من بنى آدم ، فأومأوا اليه وقالوا : « انسان » فأى وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به

---

(١) الخصائص ١/٤٠

هذا الضرب عن المخلوق . وان ارادوا سمة عينه او يده ، اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، راس ، قدم ... او نحو ذلك . فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها .

ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فتقول : الذى اسمه (انسان) فليجعل مكانه : مرد والذى اسمه (راس)فليجعل مكانه : سر .

(مرد ، وسر) بمعنى انسان وراس فى الفارسية ، وعلى هذا بقية الكلام .....

وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصائغ ... ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء .

وهذه النظرية تفسر جانبا من نشأة اللغة ، لكنها لا تفسر اللغة قبل اجتماع هؤلاء الحكماء ، وفى حياة السذج والبسطاء .

ثالثا ــ نظرية المحاكاة :

اى محاكاة اصوات الانسان ، او الحيوان ، او الطبيعة ، حين قلد الانسان الأصوات التى سمعها ، واتخذ منها اسماء يعبر بها عما يصادفه فى حياته :

وذهب الى هذه النظرية ابن جنى قديما ، والانجليزى (وتنى Whitny) حديثا فى القرن التاسع عشر .

وذلك كالتأوه ، والتأفف والقهقهة ، والنحنحة فى تقليد الانسان .

ومثل : الصهيل ، والزئير ، والمواء ، والرغاء ... لأصوات الحيوانات .

ومثل : صرير القلم ، وصليل السيف ، وحفيف الشجر ، وقصف الريح ، وهزيم الرعد ... لأصوات الجمادات والظواهر الطبيعية .

ومثل الأعمال التى يزاولها الانسان : كالقط ، والقد ، والقص ، والجر ، والنجز ، والصب ... (١)

وليست هذه النظرية من اختراع (ماكس مولر Max Muller) (١٨٦٤ م)

---

(١) سر الليال ، للشدياق ص ٢٣

كما اشار بعضهم (١) ، بل عرفها العلامة : ابن جنى (٣٩٥ هـ) ، وذكر أنه نقلها عمن سبقه ، مما يدل على انه كان مذهبا شائعا ومقررا ، يقول (٢) :

وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها ، انما هو من الأصوات المسموعات : كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل .

وذكر ابن جنى هذه النظرية ثانية فى فصل بعنوان : « امساس الألفاظ اشباه المعانى » . (٣) اى أن الصوت له قيمة تعبيرية أو معنوية خاصة به .

واشار كثير من علمائنا الى أن للحروف معنى ، وأن هناك صلة بين اللفظ والمعنى ، فحرف (الحاء) يدل على الانبساط والسعة والراحة . وحرف (الغين) يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن ، مثل : غيب ، غيم ، غم ، غبن ، غبطة ... (٤)

لكن توضيح النظرية ونقدها يمكن أن ينسب الى (ماكس مولر) ، و (رينان الفرنسى) فى كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، ومن جاء بعدهم :

فقد أتى رينان بأمثلة كثيرة من مختلف اللغات تؤيد النظرية ، وتبين تشابه كثير من الألفاظ نتيجة المحاكاة .

واطلق المحدثون من الأجانب عليها : (نظرية البو — وو Bow-Waw) ، واتوا لها بشواهد تؤيدها ، مثل : (مو) بمعنى هرة فى اللغة الصينية ، والمصرية القديمة ومثل (Kuckoo) لطائر سمى بالصوت الذى يحدثه .

والاعتراض على هذه النظرية ينصب على أنها جعلت الانسان فى الوضع الثانى بالنسبة للحيوان ومعلما له ، ودافع (جسبرسن) عن هذا بأن الأصوات التى تصدر عن الحيوان وغيره ، انما يقصد منها شىء محدود من الانسان ،

---

(١) نظريات فى اللغة ، لأنيس فريحه ص ١٧

(٢) الخصائص ٤٦/١

(٣) المصدر السابق ٥٤٤/١

(٤) نظريات فى اللغة لفريحه ص ١٧ .

وهو الدلالة على مصدرها ، بينما لا يقصد منها شيء حين صدورها عن مصدرها الأصلي (١) .

فالانسان رأى في التقليد حل مشكلة ، واختار انسب طرق الحل ، وقديما كان الغراب دليلا لابن آدم : « **فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه** » (٢) وبملاحظة الصلة بين الصوت ومدلوله وبمتابعة التلقي والتقليد ، واستمرار مرير الانسان على ذلك تطورت لغة الانسان شيئا فشيئا ، فأصبحت ذات دلالات رشيدة .

وأخيرا : فالنظرية فسرت بعض كلمات في لغات مختلفة ، استغلالا لمبدأ حكاية الصوت ، كما أنها سبب — بعد ترقي الانسان — في استغلال العلاقة (البسيكولوجية) أي قرن الأصوات بصورة قائمة في العقل ، أي انها غطت المعقولات ، بعد المحسوسات ، ومن ثم فهي جديرة بالنظر والاعتبار .

رابعا — نظرية الغريزة الخاصة :

وتعرف هذه النظرية أيضا بنظرية الأصوات التعجبية العاطفية (Interjections) أو نظرية (Pooh - Pooh) .

وهذه الغريزة الخاصة زود بها النوع الانساني ، وبها استطاع كل فرد أن يعبر عن الانفعالات والمدركات بصورة طبيعية وتأثر فطري ، في صورة حركات وأصوات ، صادرة عن دهشة أو فرح ، أو حزن أو الم ، أو دهشة واستغراب أو تقزز أو تأفف ... فتنقبض الأسارير أو تنبسط ، ويضحك أو يبكي أو يئن ... ولذا تشابهت بعض الالفاظ في لغات مختلفة مثل : (وى) للتحسر والتلهف في الساميات ، (وفي الانجليزية Wa-La) (واف) و ,(Pfui) للتأفف في العربية والألمانية .

وحينما نشأت اللغة الانسانية الأولى لم يستخدم الانسان هذه الغريزة ، وانقرضت شيئا فشيئا » (٣) .

واعترض على هذه النظرية — مع أنها تفسر بعض الالفاظ — بأنها توقعنا في نظرية الغرائز المعتدة ، وأن الأصوات الصادرة عنها فجائية منعزلة عن الكلام الذي يصدر ارادياً .

---

(١) فقه اللغة العربية ، ص ٢٢

(٢) المائدة : ٣١

(٣) نشأة اللغة ص ٢٧ ، ونظريات في اللغة ص ٢٠ ، ودلالة الالفاظ ص ٢٣

ويقول (جسبرسن) : ان الأصوات الناجمة عن تلك الانفعالات ـ كما نشاهد الآن ـ لا ترتبط بمظاهر النشاط اللغوى ، ولكنها نشاط صوتى ، قد تكون بعيدة عن سياق الحديث ، وغير خاضعة للقواعد اللغوية (١) .

خامسا ـ نظرية الأصوات الجماعية :

كما تعرف هذه النظرية بنظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية ، ويرمز لها (Yo-he-ho) وهى المقاطع الطبيعية التى يتفوه بها الانسان عندما يستعمل اعضاء جسمه فى عمل يدوى ، فيخرج هذه الأصوات عفويا ، لتخفف من حدة العمل وعبئه .

فالمجهود العضلى الشاق ، مع التنفس الشديد ينتج عند تحريك الأوتار الصوتية هذه الأصوات المختلفة بشكل جماعى : مثل : (هيلا هوب هيلا) ، (هوب هيلا ليصا) ، ونلاحظ ذلك كثيرا عندما نشاهد اغانى المجدفين ، ورافعى الأثقال ، والحداء والرقص الايقاعى .. (٢) ، واى عمل جماعى للعمال .. وتفسر هذه النظرية جزءا من نشأة الألفاظ ، ولكن يقال : اين كانت اللغة قبل هذا العمل الجماعى ؟

سادسا ـ اللغة ظاهرة اجتماعية :

وهى نظرية حديثة ، تقضى بأن اللغة كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأت ساذجة كتفكير الساذجين ـ وقتذاك ـ واعتباراتهم وحاجياتهم المعيشية ، لم يعتملها منطق ، ولم يعتورها تفكير (٣) ، ثم تطورت بمرور الزمن ، وتتابع التجارب ، وتعقد العلائق ، وتنوع المشاهد ، وضغط الحاجة ، واختلاف البيئات والأوساط والطبائع ، فادى كل ذلك الى اختلاف اللغات وتنوعها .

وخير دراسة تهدينا الى ذلك ما قام بها الشيخ عبد الله العلايلى فى كتابه : (مقدمة لدرس لغة العرب) وفيها قريب معقول ، وخيال خصيب مقبول ، ادى اليهما طول نظره فى الألفاظ ، وهيامه بالعربية ، وبصره

---

(١) فقه اللغة العربية ص ٢٣

(٢) نظريات فى اللغة ص ٢٠ ، ودلالة الالفاظ ص ٢٦ .

(٣) مقال للدكتور محمد رضوان فى مجلة كلية الآداب الليبية عدد ٤ عام ١٣٩٢ هـ .

اللغوى ، وحسه الصادق ، واتقانه لعدة لغات : فنى قضية التطور اللغوى، يعالج : احادية أصول اللغة ، وثنائيتها ، وثلاثيتها .

واللغات فى رأيه مرت فى ثلاثة أدوار .

الدور الأول : ذو المقطع البسيط ، اى ادنى المقاطع ، مثل (ba) ، وهو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، التى هى الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها . وتخيل الشيخ العلايلى لهذا الجدول انما نشأ من طول نظره فى دلالة الألفاظ فأداه ذلك الى تحديد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى السنة الناطقين الأوائل باللغة (فى الدور الأول) ، وفى هذا الجدول : أن (الهمزة) تدل على الجوفية وما هو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة تصير طبعا . و (الباء) تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغا تاما . و (التاء) تدل على الاضطراب فى الطبيعة . و (الجيم) تدل على العظم مطلقا . و (الذال) تدل على التفرد . و (الراء) تدل على الملكة وشيوع الوصف . و (العين) تدل على الخلو الباطن ، أو الخلو مطلقا . و (الغين) تدل على كمال المعنى فى الشىء . و (الميم) تدل على الانجماع ... » (١) .

وفى هذا الدور كان كل صوت يدل دلالة بعينها ، مثلا (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية ، و (وا) يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) فى العبرية بمعنى (وصل) .

وانسان هذا الدور هو الانسان البدائى الفطرى ، الموغل فى البداوة ، والذى لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصائله المشاكلة . والذى لم تتشكل أصواته بطابع غيرها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية المتولدة عن الانفعال — فى بدء هذا الدور — ، ولا تتميز فيها المقاطع ، كالأنين والعنين والأحيح والزحير والهمهمة ، وحين تطورت هذه الأصوات أصبحت ذات أغراض ثابتة ، ومنها تكون الجدول الهجائى .

والدور الثانى : ذو المقطعين ، أى صامتين + مصوتين ، أو مصوت واحد — حين تطورت المقاطع الأحادية الى ثنائية — وهذا الدور نشأ

---

(١) مقدمة ، للشيخ العلايلى ص ١١٠

مصادفة وبمحاكاة الطبيعة فى مختلف أصواتها : فمثلا : (عو) يدل على الحيوان المفترس عند السامى ، و (وا) تدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، أراد بهما انسان هذا الدور : حيوان يواصل التصويت . وعند الفينيقيين كان نطق (أ) يعنى الثور .

ويطبق نظريته على اللغة العربية على أساس فرض التطور ، فتكون مثلا كلمة : (شجر) مكونة من (ش) بمعنى (سن) أو مطلق نبات ، و (ج) بمعنى جمل وهو يرمز للارتفاع مطلقا ، و (ر) بمعنى رأس . فالمؤلف من الحروف هو (نبات مرتفع له رأس) ، وهو تماما بمعنى الشجر. وكذلك كلمة (سمك) تحل الى (س) ومعناها الدعامة وهو يرمز الى مطلق القوى ، و (م) ومعناه : المياه . و (ك) ومعناه : كف ، وهو يرمز الى مطلق التبسيط فى صغر ، والمعنى المؤلف هو : (كف الماء القوى) ، وهو تصور صحيح عن السمك .

فالمحاكاة فى هذا الدور اكسبت انسانها اكثر المقاطع الثنائية ، وبخاصة اذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية التى يحتمها التعبير . وساق مثلا كلمة (عبى) ، لأن (العين) تدل على الحيوان الزئيرى ، و (الباء) تدل على البيت ، وكان المعنى الأول : (حيوان البيت القوى) الذى هو كناية عن الرجل . ثم اشتق من عبى (العباية) التى هى لباس الرجل بعد أطوار الترقى .

الدور الثالث : ويشمل هذا الدور الانسان من العصر الحجرى المهذب ، الى ان بلغ أوج رقيه ونضجه ... ولطوله ، قسمه الشيخ العلايلى الى خمس حلقـــات .

الحلقة الأولى : ـــ من العصر الحجرى حتى البرونزى ، وفيها استعمل انسانها : المفردات ذات المقطع الواحد ، وذات المقطعين من المعـــلات ، وذات المقاطع التى انتهت وكوحدة فى العربية .

والحلقة الثانية : ـــ فى العصر الحديدى ، وعرف انسانها الكتابة ، وكثرت عنده المفردات وتركيبت الجمل وعرف الألفاظ ذات الدلالة المعنوية .

وفى الحلقة الثالثة : ـــ فرق فيها بين الاسم والفعل ، والفعل والحرف

المهمل ، واتقن الكتابة ، وعرفه بداية الاشتقاق ، وجعل الوسط موطن الزيادة .

وفى الحلقة الرابعة : ــ تم نضجه اللغوى ، ووصل الى درجة عالية فى الاشتقاق والتقليب للالفاظ ، وتكفلت هذه الحلقة بتوفير كل عناصر القوة والحيوية للغة الراقية كالعربية .

وفى الحلقة الخامسة : ــ اكتملت اللغة الحية ، فلم تعد بحاجة لزيادة مستزيد تضمن بقاءها وغناها وثراها (١) .

ومن شاء مزيدا من البحث والاستفادة ، فليراجع المقدمة للشيخ العلايلى ، ودراسة قيمة عليها للدكتور عبد الصبور شاهين بداية عام ١٣٩٩ هـ (فى التطور اللغوى) .

وما كتبناه فى مجلة الأزهر فى اعداد متوالية عن الثنائية فى أصول لغتنا سنة ١٩٧٩ م (٢) .

سابعا ــ نظرية جسبرسن :

ذهب فريق من العلماء المحدثين ، وعلى رأسهم العالم اللغوى (جسبرسن) الى أن النظريات السابقة لا تعطى الحقيقة ــ التى ننشدها ــ كاملة ، والى أن دراسة نشأة اللغة الانسانية الأولى يجب ان تقوم على منهج علمى ، واسس سليمة ، تعطى بعدئذ حقائق علمية يطمئن اليها الباحث . ومن ثم طالب جسبرسن :

١ ــ بدراسة وافية للغة الطفل .

٢ ــ وبدراسة لغات القبائل البدائية .

٣ ــ ودراسة تاريخية للتطور اللغوى .

(أ) أما دراسة لغة الطفل ونموها :

فقد اهتم العلماء بمراحل نمو الطفل ، منذ يصبح فى بطن أمه جنينا ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ وما بعدها ، بتصرف .

(٢) وانظر كتاب : « أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية » للمؤلف ــ نشر مكتبة وهبة .

ووجدوا أن مراحل نموه جنينا هى نفس مراحله بعد مولده ، فقاسوا مراحل نمو لغته على مراحل نمو جسده .

وقسم (جسبرسن) النمو اللغوى لدى الطفل الى :

مرحلة الصياح ، ومرحلة البأباة ، ومرحلة الكلام .

وقسم المرحلة الأخيرة الى فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل ، وفترة اللغة المشتركة ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع ، وتأثره به آخذا فى الازدياد شيئا فشيئا » (١)

ومرحلة صياح الطفل هذه ليس فيها أصوات مميزة كما يظن ، وانما هى أصوات تصدر نتيجة ضغط الهواء الداخل الى الرئتين لأول مرة .

ومرحلة البأباة : نتيجة نطقه للباء ، وترديدها تبعا لتقليد من حوله ، وتشجيعهم له ، ثم يكرر مقاطع أخرى مقلدا .

ومرحلة الكلام أو اللغة عنده ، تبدأ حين يجيد نطق مقاطع معينة بعد الترديد وطول التقليد ، مثل : ماما ، بابا ، مما ، ننا ، نونو ... الخ .

ومن أطرف الدراسات الحديثة — على الجنين فى بطن أمه — ما جاء فى التقرير العلمى للابحاث التى نوقشت فى المؤتمر العالمى السادس للطب النفسى ، الذى عقد فى مدينة (هونولولو بأمريكا) وتلخص النتائج فيما يلى :

لقد أصبح من الثابت علميا أن الانسان يبدأ حياته منذ اللحظة التى يتشكل فيها الجنين ، أى قبل أن يولد .

وهذه الحياة جسدية ، وهى فى نفس الوقت نفسية ، لأنه يتأثر — وهو جنين — بالعلاقات السائدة بين أبويه ، فتتوافق حركاته فى بطن أمه ان كان سعيدا ، والعكس بالعكس .

ويستطيع الجنين تذوق الموسيقى ، وله قدرة على التقاط الأصوات — بجسمه كله — والتمييز بينها .

وعن طريق استعمال بعض السماعات الصوتية الخاصة على بطن الأم ، يمكن الاتصال بالجنين ، والتفاهم معه ، وتهدئة أعصابه بالموسيقى ،

---

(١) اللغة والمجتمع ، د . محمود السعران ص ٤١

والتاكيد على بعض الالفاظ ــ والمفاهيم ، والانغام ، التى نرغب فى ترسيبها فى نفسه ، مما يسهل عليه مستقبلا : تعلم اللغـــات ، وتنمية المواهب الموسيقية ، واعتناق بعض المفاهيم الاخلاقية والسلوكية المستحبة .

وينصح التقرير ــ فى شأن علم نفس الجنين ــ ببعد الأم عن الضوضاء، والشحناء ، والعصبية ، والاصوات مهما كان نوعها وحدتها ونبرتها ، اذ يترك ذلك اثر بصماته على جهازه العصبى . وعلى الجملة يجب البعد عن كل ما من شأنه أن يؤثر على نفسية الجنين ، ويلعب دورا فى صنع مستقبله .

ويخلص التقرير الى أن هذه التجارب العلمية الواقعية فتحت امامنا آفاقا لا تقف عند حد ، وجعلتنا نعتنق القول : « ان اجنة اليوم هم رجال المستقبل » بعد أن بقينا مدة طويلة نقول : « ان اطفال اليوم هم رجـــال المستقبل » (١) .

ومن المعقول والمقبول أن الانسان البدائى قد مر بمثل اطوار الطفل فى لغته ــ فجوز العلماء لانفسهم أن يقيسوا ذاك على هذا ــ على انـــه تدرج ببط وترقى ، بعد ان نضج مخه ، وتحكم فى ملكاته ، وهيأت له ظروفه الاجتماعية ان يصوغ انفعالاته وان يعبر عن حاجياته فى مقاطع وكلمات وكلام وبذلك تعين دراسة لغة الطفل على معرفة اللغة الأولى ونشأتها .

والدكتور ابراهيم انيس يرى فى قياسهم بعض الغلو ، لاختلاف الظروف التى يعيشها الطفل فى العصور الحديثة ــ وما عاناه الطفل الأول من ظروف قاسية فى مراحله الأولى (٢) . ولكن هذا الاعتراض لا ينفى تقدم البحث ، واستخلاص البساطة والمحاكاة والتدرج فى اللغة ، التى هى كائن حى ، كتطور الحياة والأحياء .

(ب) دراسة اللغة فى الأمم البدائية :

اعتبر الباحثون أن الانسان البدائى المعاصر ، شبيه بالانسان الأول ، الموغل فى القدم ، وتلمسوا دراسة لغات الأمم البدائية ــ فى اصواتها ،

---

(١) المجلة العربية السعودية ، عدد ١ ص ٣ ــ مقال للدكتور رفيق الفر

(٢) دلالة الالفاظ ص ٢٨

وحروفها وكلماتها وتركيبها ، لالقاء الضوء على ما كانت عليه نشأة اللغة الانسانية الأولى،علهم ينتزعوا شيئا من صمت التاريخ فى غياهب العصور السحيقة والموغلة فى القدم ، وبعد دراسة ومقارنات مضنية ، وجدوا تشابها فى الأصوات ، ومقاطع الكلمات ، وتراكيب الجمل ، بين المجموعات اللغوية والمتشابهة ... مما القى ضوءا على ما كانت عليه لغة الانسان فى العصور السحيقة ، بحكم تشابه البداوة والنشأة ، والطريق الذى سلكته متدرجة فيه ، وقارنوها بلغات الأمم المتمدينة وهذه الخطوة فى البحث والدراسة بعد دراسة لغة الطفل ، تعتبر تدرجا فى طريق البحث المنهجى ، ويعترض الدكتور انيس بأن « آلافا من السنين قد مرت على الانسان قبل أن يبلغ هذا المستوى البدائى من اللغة : اى اننا فى هذه المرحلة لم نبلغ ما كنا نأمله من ادراك صورة لبداية النشاط اللغوى لدى الانسان الأول » (١) . الا أن الاستنتاجات الواعية لهذه الخطوة من الدراسة الجادة للغة البدائيين (٢) ، تلقى ضوءا على أولية اللغة الانسانية وتطور بدايتها استنباطا وتطبيقا وقياسا للغائب على الشاهد ، حتى نملك أدلة الحقيقة واليقين .

(ج) جانب الدراسة التاريخية للتطور اللغوى :

وجه العلماء جهودهم فى هذا الميدان ، يعقدون المقارنات ، ليصلوا الى قوانين وقواعد التطور اللغوى ، بمقارنة حال لغة من فصيلة معينة فى عصر من العصور بما قبله اى أن الدراسات بدأت تصاعدية لعصور اللغة ، فى مفرداتها ونصوصها ، ومستنداتها التاريخية ... بقصد المقارنة بماضى هذه اللغة ،ومقارنة اللهجة الحديثة بما كان سائدا من قبل ، فاذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى ، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ (٣) ، لتلقى الضوء على نشأة اللغة الانسانية الأولى .

وبرز من العلماء فى هذه الدراسة (جسبرسن) فى كتابه : (اللغة

---

(١) فى علم اللغة العام ص ٧٦ ، نقلا عن : دلالة الألفاظ ص ٢٨ ومما بعدها .

(٢) فقه اللغة العربية د . نجا ١/٤٥ .

(٣) دلالة الألفاظ ص ٣٢

وطبيعتها) ، و (ميه) فى (المنهج المقارن فى علم اللغة التاريخى) . ولم تبلغ الدراسات فى هذا الجانب كل آمالها ، ولكنها خطوات على الطريق .

غير أن نظرية (جسبرسن) برغم وجاهتها لم تسلم من النقد :

لأن الطفل لا يعيد نشأة اللغة ، اذ هى مكتسبة لا وراثية ، فلو وضعنا طفلا عربيا مثلا — فى بيئة يابانية ، لنشأ يابانى اللغة .

وايضا فان أعضاء نطقة ليست أساسا للنطق ، ، بل هى فى جوهرها لأغراض جسمية اخرى .

والكلمات أو المقاطع التى يبدأ بها الطفل فى أول امره ، لا ينطبق عليها اسم لغة ، وانما هى أصوات بدائية لأغراض عديدة عند الطفل يحس بها ، ونحن نسبغ على هذه الأصوات معانى ، وقد يقرنها الطفل — بدوره بعدئذ — بمعان وحالات واستجابات . وحين يبين عن هذه الحالات بكلمات وجمل واضحة ، فان المجتمع هو الذى اكسبه اياها ، فالطفل مقلد لا مبتكر .

وايضا اذا قلنا بدراسة اللغات القديمة : (عندما حلت رموزها ، مثل : السومرية ، والبابلية ، والمصرية ، والحيثية ...) أو دراسة اللغات البدائية المتأخرة ، كلغات الهنود الحمر ، والزنوج ، واهل استراليا الاصليين . اذا قلنا بدراسة هذه وتلك — لأن فيهما عناصر « طبق الأصل » للغة الانسان القديمة ، وفى دراستهما ما قد يجلو الغموض الذى يكتنف أصل اللغة ، بسبب أن هذه اللغات قديمة وبدائية — يجىء الاعتراض بأن هذه اللغات ليست قديمة ولا بدائية ، وانما هى حديثة نسبة الى عمر اللغة ، ووراء كل لغة تاريخا مديدا ، كما انها ليست فى صرفها ونحوها واساليبها بدائية ، ووراءها عشرات الالوف من السنين كانت فيه عرضة للتغير والتطور ..

واذن فاعتبار أن البساطة فيها مميز ويقرب — بالتالى — الى الأصل وهم وظنون .

ونلاحظ أن بقايا التعقيد وعدم المنطق لا تزال ظاهرة فى لغاتنا الحية .

خذ التأنيث مثلا لذلك عند الانسان القديم ففى العربية نجد المؤنث مغايرا للمذكر فى نحو : (رجل ، وخروف ، وحصان : إلى امراة ، ونعجة وفرس) .

وبعد زمن بدأ التانيث الصرفى يجد مدخلا الى اللغة ، واصبحنا نقول : لطيف ، وكبير ، ومؤمن : ونقابله بمؤنثه : لطيفة ، وكبيرة ، ومؤمنة .

ومثلا آخر على فقد المنطق فى اللغة : تذكير العدد مع المؤنث ، وتأنيثه مع المذكر ، فنقول : سبع ليال وثمانية ايام ، وثلاث نساء وثلاثة رجال . وبمرور الأيام قالت العامة : ثلاث نسوان وثلاث رجال . ، وسجلت العامية : تلات نسوان وتلات رجاله .

والخلاصة : « ان دراسة اللغات القديمة والبدائية اثبتت انها ليست قديمة جدا كما توهمنا ، وليست بدائية كما احببناها أن تكون ، فلم تسعفنا فى الوصول الى معرفة الأصل ، بل اننا لا نزال فى الظلام » (١) .

لكننا لن نذهب هذا المذهب فى غلق الباب تماما : والتسليم بأننا مازلنا فى الظلام ، لأن تكاتف العلوم الأخرى ، وارساء اسسها اليوم فى ضوء باهر تجعلنا على الطريق السوى ، حين نأخذ بالتطور والتدرج ، وفى قياس الغائب على الحاضر أو بقايا الحاضر الذى لا ينفك عن نسبة كبيرة باقية من أصله فى حاضره مهما اعتراه التبدل والتغيير . فالسين قريبة النطق من الثاء ، والتاء قريبة منهما ... وحتى لو فتشنا عن نشأة اللغة فى نشأة الأسطورة وتطورها ، لأنهما فى مبدئهما من نسيج واحد ، ودوافعهما الحياتية من معدن واحد فان العقل يصدق ويقبل أن التخيل فى هذه النظرة لم يبدأ من فراغ ، ورائحة الأصول باقية مهما كان التغيير واضحا وقويا ، فالنظرية تدنينا من المعرفة وتأخذ من النظريات السابقة بأطراف ، وتلقى على الحل اضواء فى الأخذ بالمنهج العلمى .

ثامنا ــ نظرية (جوزيف فندريس J. Vendres) :

يرى العلامة (جوزيف فندريس) أن اللغة كانت عند السلف البعيد ــ الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير ــ انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى ، او صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن خوف من قوى ، أو رغبة فى الغذاء .

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٢٢ ــ ٢٦ بتصرف .

: بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية كأنها قابلة لأن يكررها آخرون .

ولعل الانسان قد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، فاستعمله للاتصال ببنى جنسه ، أولاثارتهم الى عمل ما ، أو لمنعهم منه .

ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت — فى الواقع — وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى مكن منها الانسان .

وما أن استيقظ فى ذهن الانسان شعوره بالعلامة ، حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب .

وكأن تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ .

وكأن تثبيت اللغة فى داخل الحشود الانسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع ، وبوجه خاص كأن أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية ، نفس المظاهرات الصوتية أو الغنائية .

وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى ، ثم قليلا قليلا ، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكون أخيرا هذا الجهاز المعقد الذى لا يجارى فى ثرائه ، ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار » (١) .

فقد تخيل (فندريس) اللغة عند الانسان الأول انفعالية محضة وغناء ينظم حركة ، وصيحة تعبر عن ألم أو فرح ، وكاشفة عن حاجة ، ثم زودت بقيمة رمزية عبر بها عن شى فارتضاها وكررها بنو جنسه كوسيلة للتفاهم ناجعة ، يقود كل ذلك تطور مخه ، وتطور جهازه النطقى ، وتطور الحياة الاجتماعية فيما حوله وهو تخيل خصب مقبول ، وتدرج طبيعى ، يتماشى مع سنة التطور فى الحياة والأحياء .

* * *

---

(١) اللغة ، لفندريس ص ٣٧ — ٣٩ .

تعقيـــب :

يتبين لنا من استعراض ما سبق أن :

● التفكير فى « المشكلة » اتسم ــ كما راينا أحيانا بالافتعال ، وافتراض أمور بعيدة ، كما اتسم أحيانا أخرى بالبساطة حيال هذه الظاهرة المعقدة ولكنه فى جملته يدل على اجتهاد صادق فى البحث ، وميل الى التعليل والتحليل وصبر فى تتبع التطور اللغوى .

● كما عكس لنا تفكير القدماء ، وفضل علمائنا فى البحث والتفكير ، والابتكار والتمييز والترجيح .

● واسهمت كل نظرية فى اثراء البحث ، والقاء ضوء على المشـــكلة وقدمت جزءا من الحل ، فاستفاد اللاحق من السابق ، وحاول تجنب الأخطاء .

● ولما للغة من اثر فى حياة الانسان ، ارتبط بحث أصلها ــ كظـــاهرة مثيرة ــ بخلق الانسان ، وصورته البديعة ، وادى ذلك الى القول بانها وحى والهام ، وهبة من الخالق المبدع الذى اتقن كل شىء خلقه .

ومع أن البحث بدأ (ميتافيزيقيا) الا انه عرف ــ بعدئذ ــ طريق البحث المنهجى ، واتسع نطاقه ، وان بدأ بسيطا ساذجا كالقول بالاصطلاح حيال ظاهرة اللغة .

● وبرزت نظرية (الشذوذيين) الذين يرون أن اللغة لا تسير وفق قواعد محددة ، وليست محكومة بقانون أو قاعدة . وترتب على ذلك بروز نظرية (القياسيين) ، الذين يرون عكس ذلك تماما ، فاتجهوا اتجـــاها فلسفيا فى البحث ، لربط الســـبب بالمسبب ، واستخلاص النتائج من المقدمات ، ووضع الضوابط والقواعد على أسس منهجية .

● وادى التخلى عن نظرية الالهام والوحى الى القول :

بأن اللغة مجموعة من الحقائق تحكمها قواعد عامة ، ووجود قانون أعلى يحكم الظواهر الكونية ، ومنها اللغة .. والاتجاه الى الدراســـة الموضوعية للغة وتوسيع نطاق البحث فى جميع اللغات ، أو المعروفة منها .

والقول بنظرية الفصائل اللغوية ، كما هو الشأن فى فصائل النبات والحيوان .

● ونظرية القول بالغرائز جاءت فجائية ، منعزلة عن التكلم والكلام الارادى ، والأصوات التى تصدر عنها ، انما تأتى حين العجز عن الكلام — وارتباطها بغريزة انقرضت — لاسند له ، فضلا عن أنه يعقد البحث لتعقد نظريات الغرائز .

● نظرية المحاكاة تفسر جزءا كبيرا من المشكلة ، ولها سند من الواقع وحتى الآن ، عند حكاية الأصوات ، والتسمية ، والوضع اللغوى .

● الذى يتطور عند (فندريس) هو مخ الانسان وجهازه النطقى ، وعند الشيخ العلايلى ، هو : مخه ، وتطور الحياة الاجتماعية ، وترقيها فيما حوله ، وبذلك ترتبط عملية اللغة بعلوم أخرى .

● بنى المحدثون نظرتهم على أسس علمية منهجية ، واستفادوا ممن سبق وما جد حولهم من بحوث فى مجال العلوم الأخرى .

● ومن الطريف أن بعض العلماء — ومنهم القاضى أبو بكر (١) يحاولون التوفيق بين مذهبى الالهام والتوقيف وبين الاصطلاح ، ذاهبين الى أن كليهما ممكن وقوعه ، فقوله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » ، يعنى أن التعليم قد حصل بالالهام ، أى بالقوة : لقد وضع الله تعالى فى الانسان ملكة الخلق ، ثم تركه يخلق على هواه .

واذا سلمنا أن الأسماء قد أعطيت لآدم بالتوقيف ، فان الذين جاءوا بعده لم يوقفوا عليها ، لقد اصطلح أولاده من بعده على لغاتهم .

والدليل على ذلك ، قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان** قومه » (٢) . ولعل هذه المحاولة ترضى نزعة النصيين والعقليين على السواء .

* * *

---

(١) الاحكام فى أصول الأحكام ، للآمدى ج ١ ، القسم الثانى .
(٢) ابراهيم : ٤

الفصل الرابع

كيفية إصدار الكلام

اللغة سر المبدع سبحانه فى خلقه من بنى الانسان ، ومن أجل نعمه عليهم ، والبشر ينطقون بها بيسر وسهولة ، وتتحقق ثمرتها فى ثوان ، مع أن « ديناميكيتها » وكيفية اصدارها لغز كبير حار العلماء فى فهمه ، لأنها فى حقيقة امرها عملية غاية فى التعقيد ، ويحتاج الباحث فيها لعون كثير من علماء العلوم الأخرى ، مثل : تحليل الأصوات وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وهندسة الصوت ، وطريقة انتقاله . الخ .

واللغة — كما سلف — أكثر من مجموعة أصوات ، ومع الرقى والنضج أصبحت اداة الحضارة ، بعد أن كانت ظاهرة انفعالية تترجم العواطف والانفعالات ، وترجم الانسان بها عناصر الحياة الى رموز لغوية يتفق عليها ، تختزن فى الذهن ، وتستحضر وقت اللزوم ، لعلاقة مسبقة ، فتصدر الأصوات أو تكتب الرموز ، فتعبر عن المعانى حين تتكامل عملية التكلم ، ويختار الذهن للحدث ما يناسبه وما يشابهه من رموز لغوية .

ولذلك فان اللغة لها أوثق الارتباط بالفكر ، وهى وسيلته أيضا ومساعدته كما أنها تقيد حركته وتنظمها .

يقول (ماريو بـاى) عن الارتباط بين الظـاهرة النفسـية والحركـة العضوية : « عملية الكلام تتكون من جانبين : عضوى ونفسى . وحـركة الكلام تبدأ من الرباط النفسى أو العقلى ، الذى سبق الاتفاق عليه فى عقول المتكلمين ، بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز اليها ، ولكن سرعان ما تنتقل الى العملية العضوية عن طريق اشارات عصبية ، يرسلها العقل الى الجهاز النطقى لانتاج الصوت المطلوب .

وفى الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقى ، الذى يصدر أصواتا متتابعـة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية الى أذن السامع .

وأذن السامع بدورها توصل الرمز الصوتى الذى استقبلته الى العقل الذى يعطى هذه الرموز قيمتها ، ويترجم الرسالة على ضوء ما اختزن فيه سابقا ، من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ، سواء اتفق الفهم تماما مع مافى ذهن المتكلم أم لا » .

ومعنى ذلك : أن عملية الكلام تتم على هذا النحو (١) :

(أ) التفكير العقلى أولا ، ونظرا لأن التشريح للمخ لم يكشف عن « ديناميكيته » وماهيته تماما ، فان الباحث اللغوى لا يقف طويلا عند عملية التفكير وتفسيرها بالتفصيل ، أمام هذه العملية الفكرية والأولية .

(ب) اصدار الكلام من جهاز النطق (Production).

(ج) الموجات الصوتية الخارجة من فم المتكلم ، والواصلة — عبر الهواء — الى اذن السامع (Transmission) .

(د) العمليات العضوية التى تقوم بها أجزاء الأذن (Reception) بعد استقبالها للصوت .

(هـ) ترجمة المخ للرسالة التى وصلته ، والتصرف على مقتضاها ، حينما يكون الكلام مفهوما ومفيدا .

معنى هذا أنه لابد من متكلم ، ومخاطب ، وأشياء تجول فى الفكر ونريد التحدث عنها ، ورموز متفق عليها ، لها فى الذهن صور ومعان معينة .

وقبل كل هذا لابد من مؤثر : خارجى أو داخلى ، يدفع الى الكلام ، حتى تأتى مرحلة تكوين الرسالة واطلاق أصواتها من المتكلم . وانتقالها عبر الهواء فى موجات صوتية ، حتى تتلقفها اذن السامع ، وترجمة المخ لها ، وأخيرا : تصرف المستمع على مقتضى الرسالة التى وصلته ، طبقا لما تحمله من معنى .

والصوت عنصر أساسى فى عملية الكلام ، فكيف يحدث الصوت ؟

يحدث من احتكاك جسم بآخر ، فيكون الاهتزاز أو الذبذبة ، التى تتدافع وسط الوسط الناقل لذلك الصوت ، حتى تصل الى آذان السامع .

---

(١) لمزيد من الفائدة ، راجع فى هذا الصدد : أسس علم اللغة ص ٤١ ، وأضواء على الدراسات اللغوية ص ٧٦ — ٨٩ وفى علم اللغة العام ص ٩٥ — ١٠١

والصوت الانسانى لا يخرج عن هذا النطاق : فهواء الزفير الخارج من الرئتين ، يمر عبر القصبة الهوائية مندفعا ، حتى يصل الى الحنجرة . وهنا قد يجد الوترين الصوتيين مشدودين أو متراخيين ، وبالتالى تكون فتحة المزمار ضيقة فى الحالة الأولى ، أو واسعة فى الحالة الثانية . فيحتك بالوترين ويهزهما بشدة فى الأولى ، وبضعف فى الثانية . وينتج عن الاهتزاز صوت ، تضخمه الحنجرة والفراغات الأخرى الأنفية أو الفمية .

وقد لا يجد أمامه عقبة تعترض طريقه من الحنجرة حتى الشفتين ، فيخرج دون أن يحدث صوتا مرة اخرى ، والعكس بالعكس .

اى أن الصوت اللغوى يعتمد فى التصويت على الوترين ، أو على نقطة الانسداد أو عليهما معا .

كل هذه العمليات لاحداث صوت وأصوات تتركب بعدئذ من هذه الأجهزة التى لم تخلق أساسا للنطق .

* * *

أما فى اصدار الكلام فتتحول الصورة الذهنية الى صورة صوتية ، ومن قبل ذلك كان هناك دافع ومؤثر حسى أو معنوى ، ثم تنتقل الأصوات بوساطة تموجات فى الهواء ، حتى تصل الى أذن السامع ، ثم تنتقل الى ذهنه ليكون رد الفعل لديه بعدئذ .

والمؤثر الخارجى يأتى عن طريق الحواس ، كأن يرى الانسان صديقا فيسير نحوه ويحييه ويسأله عن حاله ، أو يرى أشياء عند البقال فيخاطبه فى شراء ما يلزمه وقد يكون المؤثر داخليا : كشعور الانسان بالجوع أو العطش أو الفرح او الاعياء فيعبر عن حاله بأى وسيلة ، ومنها اللغة :

فاذا رأى الولد تفاحا ، وقال لوالده : « هات لى تفاحة يابابا » . فقد يستجيب له والده ويعطيه واحدة ، وقد لا يستجيب له متعللا بأى شىء

فقد تكونت الرسالة فى ذهن الولد ، ثم أطلقها أصواتا « فونيمات » الى والده من الرموز المناسبة والمخزونة فى عقله ، ونقلها الهواء الى أذن الوالد . وهذه كلها مرحلة تخص المتكلم وحده حين دفعه المؤثر ، وساعده الهواء على نقلها الى أذن المخاطب .

أما المرحلة الثانية فتخص المستمع ، ونقلتها اذنه الى مخه ، ليعيد تركيب الرسالة الصوتية التى وصلته الى المعنى الذى تحمله ، ثم يستعين فى الترجمة ورد الفعل بالمخزون المناسب فى مخه ، وايضا بالرموز المتفق عليها ، والمناسبة للمقام والحال .

فقد اختار الولد المعانى ، ووضعها فى القوالب الجاهزة لذلك ، والمتوفرة فى لغته ، فى وحدات تناسب مفهوم الحدث الذى اثاره فانفعل به ونطق ، وكان رد الفعل من السامع فى اطار وحدات لغوية متعارفة ، ومحكومة بضوابط يلتزم بها فى المجتمع اللغوى الذى يعيش فيه .

وتسمى هذه الوحدات عند اللغويين « بالمورفيمات » (والمورفيم هو بصورة عامة — أصغر وحدة لغوية ذات معنى كالمفردات المجردة ، وال التعريف وكل تغيير صرفى يطرأ على المفردات) .

على أن المتكلم او السامع يفضلان رمزا على غيره ، وقد يكون الرمز متصفا بصفة ترجح هذا الرمز او ذاك : كالجملة الاسمية ، او الفعلية ، والتعريف او التنكير ، والتأكيد او عدمه ، وبالتنغيم والانسجام الصوتى أم لا ... حسبما يتراءى لهما

والملاحظ : انه اختار القوالب الصوتية المتعارفة فى مجتمعه ، ورتبها حسب المتبع لغويا مع جماعته ، وحين اصبحت الرسالة جاهزة اصدر العقل اوامره الى اجهزه النطق المختلفة ، لتؤدى الحركات المعينة اللازمة لنطق هذه الجملة ، فتصدرها . « وقد رأينا مدى التعقيد والجهد والحركة فى اصدار الحرف الواحد ، فما بالك بحروف لها جرس ورنين ولون يختلف عن غيره » .

وحمل الهواء الاهتزازات الصوتية ، وامتدت الى مسافات محدودة او بعيدة اذا كانت ترفدها وسائل التوصيل والتقوية ، التى أوصلتها الى الفضاء اللانهائى .

وتلقفت الرسالة أذن السامع ، وتناقلتها فى اقسامها عبر الأعصاب الى العقل فقام المخ بحل رموزها الصوتية ، وترجم المعنى الذى احتوته طبقا لقواعد اللغة فى العلاقة بين الصوت والمعنى .

جملة بسيطة فى غاية السهولة ، بقدر السهولة التى يستخدم بها

الانسان الهواء فى التنفس ، أو الطعام فى التناول .. لم تستغرق من المتكلم والسامع ثوان ، فى الاصدار وحل الرموز والاستجابة ... بينما حاول اللغويين حل « ديناميكية » هذه العملية بصعوبة بالغة ، ومشقة فى التحليل وضروب من اليقين والتخمين .

* * *

ولذا سبق أن قلنا : ان اللغة اكثر من مجموعة أصوات ، واكثر من أن تكون أداة للفكر ، أو تعبيرا عن عاطفة هى جزء من كياننا (البسيكولوجى) الروحى ، وهى عملية فيزيائية اجتماعية (بسيكولوجية) على غاية من التعقيد .

واذا قام (الكومبيوتر) بجزء من العملية الكلامية ، على غرار ما يصنع الانسان على هذا النحو من التعقيد .. فان العقل الانسانى أقدر وأوفى وأكمل وأتم ، لأنه يبدع على غير مثال ، ويتصرف ويعطى بارتجال مقبول حين تلجأ الضرورة والحاجة . « **فتبارك الله احسن الخالقين** » . (١)

حين تتم معجزة الكلام المثيرة ، التى تحدث مالا يحصى من كلمات من عدد محصور من الحروف والأصوات ، والتى تعيش هامشيا ، أو طفيلية على أعضاء لم تخلق اساسا لها . كما انها تتكون تجسيدا بواسطة نفايات من الضرورى لنا أن نتخلص منها ، يقول .(R.H. Robins) : هل تستطيع أن تدلنى على احد يستطيع ان يستغل النفايات بطريقة أجزى وأكثر كفاية واهمية من استعمال الانسان لنفايات عملية التنفس » ؟ .

فما الكلام سوى اعتراض لسبيل الهواء الفاسد المطرود من الرئتين ، والمشبع بثانى أوكسيد الكربون ، فى أثناء صعوده فى المجارى الهوائية ، واستغلال هذا الهواء الفاسد افضل استغلال . وهذا الكلام لا يكلفنا الكثير من العناء : فالهواء الفاسد هذا لم يعد ينفع الجسم ، وهو خارج منا شئنا أم ابينا . وكل ما نفعله — كما يذكر الدكتور نايف خرما — هو أن نعترض سبيله اما عند الحنجرة ، أو مافوقها حتى الأسنان والشفتين ، ونصنع منه معجزة الكلام ، هبة الخالق لنا .

---

(١) المؤمنون : ١٤

الفصل الخامس

الفصائل اللغوية

لم يستطع العلماء حصر اللغات الانسانية فى العالم حتى الآن — احصاء دقيقا — لأن هناك لغات بدائية مستعملة لم تدرس أو لم تعرف بعد مثل لغات الهنود الحمر فى أمريكا ، وبعض شعوب افريقيا ، ولغة الاستراليين الأصليين .

وهناك احصاء تقريبى يقدر عدد اللغات المتكلمة فى العالم ، والتى عرفت ، بحوالى ٢٥٠٠ لغة ، وبعضهم يقول : هى ٣٥٠٠ لغة تقريبا .

وهناك تصنيف للفصائل اللغوية فى نظرية (شليجل) ، ونظرية (ماكس مولر) .

١ — تقوم نظرية (شليجل) على تقسيم اللغات الى :

(أ) لغات متصرفة : اى تتغير مبانيها ، وتوجد فيها أدوات ربط بين أجزاء الجملة ، مثالها فى العربية : (علم ويعلم وعالم ومعلوم وعلامة ...) ومثل : (ذهب سعيد ومحمد الى المدرسة بالدراجة).

(ب) ولغات تركيبية أو الصاقية : اى تتغير المعانى فيها بطريق الالصاق : فى الصدر أو العجز ، كما فى اللغة اليابانية والتركية .

(جـ) ولغات عازلة : اى لا تقبل التصرف ، لأن لكل كلمة من كلماتها صورة واحدة ومعنى ثابت لا يتغير . وليس فيها أدوات ربط ، ولاضوابط وذلك مثل : الصينية ، ولغات الشعوب البدائية .

وكثير من العلماء يرفض هذه النظرية ، لأن كل اللغات التى عرفت تستعمل الطرق الثلاث التى ذكرها (شليجل) ، ولكن بنسب مختلفة فى كل طريق .

٣ ــ اما نظرية (ماكس مولر) او الجماعات اللغوية .

فتقوم على الأسر اللغوية ، للتشابه القوى الذى يقوم بين لغات الأسرة الواحدة ، وعلى ذلك قسم الأسر اللغوية الى ثلاث مجموعات هى :

(أ) مجموعة اللغات الهندية ــ الأوروبية ، او (الآرية) .

(ب) ومجموعة اللغات السامية ــ الحامية .

(ج) ومجموعة اللغات الطورانية .

أولا ــ الجماعة الهندواوروبية ، او الآرية :

واشهر اللغات (الآرية) : الاغريقية ، واللاتينية ، والايطالية ، والفرنسية ، والأسبانية والبرتغالية ، والرومانية ، والأرلندية ، والألمانية ، والهولندية ، والروسية ، والفارسية ، والسنسكريتية ، والأرمنية ، والألبانية ، والحيثية والطوخارية ... وبعض هذه اللغات راق وبعضها جامد ، وبعضها اخذ خصائص جديدة .

وحظيت هذه اللغات بالدراسة والعناية ، لأن كثرة من علماء اللغة الغربيين ينتمون اليها ، ولأن بعضها لها شأن وحضارة انسانية قديمة وحديثة .

ويتكلم بها الآن جميع شعوب أوروبا وأمريكا واستراليا وجنوب أفريقيا . كما يتكلم بها قسم كبير من سكان آسيا ، كالهنود والفرس والأفغانيين والاكراد والأرمن وغيرهم ... (١)

ثانيا ــ الجماعة الحامية ــ السامية :

بعض علماء اللغات يعد المجموعة اللغوية السامية والحامية مجموعتين ، ولكن (ماكس مولر) وبعض اللغويين اعتبرها مجموعة واحدة ، للتماسك بين أجزاء المنطقة التى تضم المجموعتين ، ولتجانس الناطقين فيها ، وتشابههما فى أساليب الحياة ، ونوع الحضارة ، والنظم الاجتماعية .

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ١٨٣

ويتكلم لغات هاتين المجموعتين حوالى ١٥٠ مليونا من البشر . واشهر لغات الحامية : المصرية القديمة ، والقبطية ، والبربرية ، والكوشية . واشهر لغات السامية ، الاكدية ، والآرامية ، والكنعانية ، والعبرية ، واليمنية ، والحبشية ، والعربية .

ثالثا ــ الجماعة الطورانية :

وتضم هذه الجماعة اشتاتا من اللغات التى لا رابط بينها ولا مشابهة ، وليس بينها اللغات التى ذكرت فى الجماعتين السابقتين ، وانما جاءت التسمية من قبيل الاصطلاح وتسهيل الدراسة .

وتضم هذه الجماعة من اللغات : الصينية ، واليابانية ، والتركية ، والمغولية ... الخ .

وقوبل تصنيف (ماكس مولر) هذا بمعارضة من علماء اللغة :

لانه جعل الحامية والسامية مجموعة واحدة اولا ، ولانه جمع فى الثالثة اشتاتا لا رابط بينها ، فضلا عن اهماله الكثير من لغات شعوب اخرى ، لم تدخل فى الجماعة الثالثة .

ولذا أوصل المحدثون من الباحثين المجموعات اللغوية الى اثنتين وعشرين مجموعة ، نوجزها فيما يلى :

١ ــ الهند واوروبية ٢ ــ السامية ٣ ــ الحامية ٤ ــ اليابانية ٥ ــ الكورية ٦ ــ الاينو ٧ ــ الصينية التبتية ٨ ــ الاسترالية الآسيوية ٩ ــ الدرافيدية ١٠ ، ١١ ــ القوقازية الشمالية والوسطى ١٢ ــ الآسيوية القديمة (ومنها السومرية) ١٣ ــ التركية والمغولية والمنشورية ١٤ ــ الفينية ١٥ ــ الباسك ١٦ ــ الهيبوبورية ١٧ ــ الملايوية البولينيزية ١٨ ــ الاسترالية الأصلية ١٩ ــ الأمريكية الأصلية ٢٠ ــ السودانية والغانية ٢١ ــ البنطويه ٢٢ ــ البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين (١) .

* * *

والمشهور لدى علماء اللغة تصنيف اللغات البشرية ، فى ثلاث مجموعات هى : الآرية ، والحامية ، والسامية . اما الطورانية ، فجعلها بعض العلماء لما يجد ويدرس من لغات اخرى غير لغات هذه المجموعات .

---

(١) المصدر السابق .

أولا ــ الآريــون :

ينسبون الى يافث بن نوح عليه السلام . وكانوا يسكنون أرض بابل أو أرمينيا ، ثم هاجروا الى بلاد الهند ، وقهروا سكانها الأصليين ، وجعلوا لأنفسهم علامة مميزة الى السيادة والشرف والنبالة ، ووجدوا ذلك فى لفظ (آريا) وهو سنسكريتى قديم ، يدل على ذلك المعنى .

ولما كثروا ارتحل فريق منهم الى الغرب ، وتوطنوا بخارى وفــارس وافغانستان ، وارتحل آخرون بعدئذ الى الشمال وتوطنوا أوروبا ولــذا يقال لها : الجماعة الهندواوروبية (٢) .

اللغــات الآريـــة :

حظيت مجموعة اللغــات الآرية ــ كما قلنا ــ بالبحث والتنقيب ، والمقارنة والتمحيص ، لانشغال علماء الغرب بها ، ووضحوا الســمات والصلات التى تربط بين أجزائها ونأمل ان يحذو علماؤنا حذوهم ، فى دراسة الساميات ، لتبيان الوشائج والأصول التى تربط بين لغاتها .

وأمام الجهــد الدائب ، والامكانات المتــاحة ، والبحث المضنى ، والاكتشافات المتوالية ، وتواكب الأبحاث العلمية .. ظهرت ثمرة الجهود المبذولة ، واتضحت معالم المجموعة الآرية ، وزايلها الخفاء والابهام كثيرا ، واتضحت معالم اللغات التى سبقت فيما قبل الميلاد ، فكانت لغة ادب وحضارة وهناك لغات لم تحظ بنصيب من ذلك ، فقضت نحبها لسبب ما فتلاشت أصولها ومعالمها ، وبقيت شواهدها .

واتضحت الرؤية الزمنية أمام العلماء لكثير من لغات هذه المجمــوعة بدءا من قبل الميلاد حتى العصر الحديث .

ونوجز هنا أهم أصول هذه اللغات الآرية ، وما تفرع منها :

(أ) الايرانية ، والهندية : وقد عثر على نصوص للايرانية (وهى الفارسية القديمة) ترجع الى القرن الخامس ق . م . ومنها : (الأفستى) لغة الأسفار المقدسة من القرن الأول الميلادى . ثم الايرانية الوسيطة : (الأوستية والفهلوية) ، منذ القرن الثالث

---

(١) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٢٩

الميلادى حتى الآن ، والتى مازالت تعيش فى فارس وافغانستان والقوقاز ، والبامير ...

أما الهندية : فأقدم ما عثر عليها منها : (السنسكريتية) ، لغة الأدب والملاحم ، فى القرن الثالث ق . م ومنها ، (الفيدية التى كتبت بها المقدسات ، فى القرن الأول ق . م . ومنها الهندية الوسيطة ، التى هى أم اللغات الهندية المعاصرة ، مثل : البالية ، والبراكريتية فقد انحدر منهما : الهندوستانية ، والبنغالية ، والمراتية ، ولغات الهند الحديثة .

(ب) الحيثية : واكتشفت نصوصها شرقى أنقرة : وقد حفظت نصوصا بنقوش مسمارية ، ترجع الى الفى سنة ق . م

(ج) الطوخارية : وتمثلها نصوص أدبية ، ترجع الى ما قبل القرن العاشر الميلادى .

(د) الالبانية : اكتشفت نصوصها فى القرن الخامس عشر ، لكن فى شكل مضطرب لكثرة ما استعارت وتأثرت من جيرانها .

(هـ) الأرمنية : اكتشفت نصوص منها فى القرن الخامس ، محتفظة برونقها .

(و) البلطيقية والسلافية : دلت نقوشها المدونة فى القرن السادس ، على تفرع الأولى الى البروسية والليتوانية والليتولية ، وتفرعت الثانية الى المجموعة الصربية والبلغارية الحديثة جنوبا . والى الروسية والتشيكية والبولونية شرقا .

(ز) الجرمانية : ويقسمها العلماء الى ثلاثة اقسام :

١ ــ الغوطية التى ترجم اليها الكتاب المقدس فى القرن الرابع الميلادى .

٢ ــ والشمالية ، التى تفرعت الى : الاسلندى ، والنرويجى القديم ، والدانمركى ومنها اشتقت اللغات الاسكندنافية الحديثة .

٣ ــ والجرمانية الغربية : وتتمثل فى : الانجلوسكسونية ، وانحدر منها : الألمانية والانجليزية قديمها وحديثها .

(ح) الايطالية والكلتية : وتبين أن الايطالية مثلتها اللاتينية ، لغة

الأدب فى القرن الثانى ق . م . وارتبطت بالاغريقية بروابط تاريخية ، وتأثرت فكانت مجالا خصبا للمقارنات . وتفرع عن اللاتينية : الرومانية ، والايطالية ، والفرنسية ، والبرتغالية ، والأسبانية .

أما الكلتية : فتأكدت أصول نصوصها فى القرن الثامن الميلادى. وتمثل : الغالية ، والبريتونية (لغة أهل الجزيرة البريطانية الكبرى) ، والغائيلية ، (لغة الايرلنديين) .

(ط) الاغريقية : ومنها قديمة دونت بها أشعار (هوميروس) ، وتمثلها فى العصر الكلاسى أربع لهجات ، هى : الأيونية ، والأركادية ، والقبرصية والاغريقية الغربية .

أما الاغريقية الوسطى ، فهى اللغة المشتركة للعالم البيزنطى. حتى القرن السادس عشر الميلادى ، وعنها جاءت اللهجات الاغريقية الحديثة (١)

ثانيا ــ المجموعة الحامية :

تمثل هذه المجموعة : الحبشية القديمة ، والمصرية القبطية القديمة ولغات النوبيين الكوشتيه بالسودان ، والبربرية ببلاد المغرب فى شمال افريقيا .

وتنسب هذه الجماعة الى حام بن نوح عليه السلام ، والكوشيون أبناء حام من بعده وتعتبر هذه المجموعة من اللغات المتأخرة ، لانها ليست لغات حضارة فضلا عن عجزها عن الوفاء بمطالب متطلبات الحياة الراقية . (٢)

ورويت الحاميات والساميات فى الالف الخامسة قبل الميلاد موثقتين .

ومكانهما : هو المنطقة العربية الافريقية من الشمال الشرقى .

ووجد بعض المستشرقين علائق وتشابها بين الساميات والحاميات وتبادل التأثير والتأثر للتجاور ، والمجال الجغرافى الواحد .. فعدوهما مجموعة واحدة . ولكن فصلهما افضل ، لأن التشابه ليس كبيرا ، والساميات ذوات حضارة وثقافة ، كما أن أمثلة التقارب المضروبة ليست كثيرة : فيذكر

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ١٨٠ وما بعدها ، والوجيز للأنطاكى ــ
(٢) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٣٠.

بعض العلماء (١) : أن جذر السامية والحامية يتميز بالوضوح للفكرة المعبر عنها وبالتحديد ، ويضرب المثل بأن الجذر المصرى والسامى (م و ت ــ MWT) والبربرى (م م ت MMT) ، يعنى فكرة الموت .

وفى السامية : (ح ش ب ــ HSB) ، وفى المصرية : (ح س ب ــ HSB) وفى الكوشيتيه (هـ س ب ــ HSB) بمعنى : يحسب أو يعد . وفى السامية : (ل ب ب ــ LBB) ، وفى المصرية بتليين اللام (ل ى ب ــ LYB) وفى البربرية : (أول ــ AUL) وفى الكوشيتيه (ل ب ــ LB) ، بمعنى قلب .

ولكن ليس بين أيدينا حتى الآن كتابات تسعف بقدر أكبر فى التقارب والتماذج المدعى بينهما .. كما دفع ذلك بشدة الدكتور جواد على ، كتابه (تاريخ العرب) . وبعضهم يرى الرأى القائل بوجود علاقة عضوية بين الشعوب الحامية والسامية ، وبين لغاتها الكثيرة ، ويراه رأيا يقوم على حقائق التاريخ والجغرافيا ، وعلم اللغة المقارن (٢) ، ولكل وجهة .

ثالثا ــ المجموعة السامية :

تنسب هذه الجماعة الى سام بن نوح عليه السلام ، وسام فى العبرية (SEM) كما فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين . والذى ينص على أن سام بن نوح ، هو أب لكل من الآشوريين والآراميين والعرب والكنعانيين .. الخ .

ويرى (ولفنسون) فى « تاريخ اللغات السامية » أن هذه التسمية (السامية) : « أصلح وأوفق ما اهتدى اليه العلماء لتسمية كتلة الأمم التى تقطن بلاد آسيا الدنيا ، والتى كونت وحدة دموية ولغوية مستقلة » .

والذى أطلق مصطلح (السامية) هو العالم الألمانى (شلوتزر) وزميله (ايكهورن) . وشاع استعماله فى نهاية القرن الثامن عشر ١٨٧١ ، وظفرت الساميات ببعض العناية الدراسية ، نظرا لأن لبعضها حضارات راسخة ،

---

(١) فى التطور اللغوى ص ٣١

(٢) المصدر السابق ص ٣٤

ولتوفر علماء الغرب على دراستها والعناية بها . وان كنا نطمع فى المزيد ، لتبيان مزايا العربية الخالدة فى ضوء شقائقها .

وسكنت هذه الجماعة القسم الغربى من آسيا ، وبعض النواحى المتاخمة له من شرق افريقيا . اى فى الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق ، وسيناء وبلاد الحبشة .

موطن الساميـــة :

بعض العلماء يرى ان الموطن الاصلى للساميين هو ارض ارمينية ، بالقرب من حدود كردستان ويراها (نولدكه) مهدا للآريين ايضا .

ويذهب الأستاذ جويدى الى ان موطنهم كان فى جنوب العراق ، لوجود الفاظ مشتركة تدل على العمران والحيوان والنبات ، ويعارضه المستشرق (نولدكه) بأن بضعة كلمات غير كافية كدليل ، فضلا عن الاختلاف الكبير البادى فى اساسيات تسمية الأشياء الحيوية للحياة .

وبعضهم يزعم ان اليمن السعيد ، او القسم الجنوبى الغربى من جزيرة العرب ، او الحبشة ، او كل الجزيرة العربية ـــ من غير تحديد لمنطقة ـــ هو الموطن الأول لهم . ولعل هذا اقربها الى الصحة (١) .

مميزات الساميات :

تمتاز الساميات عموما بما يلى :

١ ـــ اختصاصها بحروف لا توجد فى غيرها ، مثل : (ض ـــ ط ـــ ظ ـــ ح ـــ خ) .

٢ ـــ ليس فيها اسماء مركبة تركيبا مزجيا ، وهو كثير فى المجموعـــة الآرية .

٣ ـــ الضمائر فيها متصلة او منفصلة ، وفى الآرية منفصلة فقط .

٤ ـــ تعتمد السامية فى تركيب الكلمات على الحركات ، والآرية تعتمد على الحروف الصوتية .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ، ولغات العالم ، لميه وكومين ص ٣٢ ، ٣٣ .

٥ ــ يتم الاشتقاق فيها بتغير الحركة أو الزيادة أو النقص فى اى موطن. وتعتمد الآرية على الزيادة فى الأول غالبا ، وفى الآخر نادرا .

٦ ــ يتميز المؤنث بالتاء الفارقة فى السامية ، وفى الآرية أدوات للتمييز بين المذكر والمؤنث (١) .

اللغات السامية :

اللغات السامية تجمع بينها وجوه شبه عديدة وكثيرة ، توحى بأنهاتفرقتعن أصل واحد ، أو انها لهجات تفرعت من لغة واحدة . ومنها ما مات واندثر ، كالأكدية والسبئية ومنها مالا يزال باقيا الى اليوم كالسريانية والعبرية والعربية . ولا نعلم عن اوليـة لغات السامية شيئا ، لأن التاريخ صمت عن ذلك .

ومن اهم لغات السامية وفروعها :

(أ) الأكدية او البابلية :

البابلية والأكدية تسميتان للغة واحدة ، نسبة الى منطقة (أكد) فى جنوب العراق ، او الى مدينة (بابل) عاصمة المنطقة .

واصحاب هذه اللغة قبائل سامية هاجرت من الجزيرة العربية ، أو من ناحية سورية حوالى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، الى العراق . وسكن فريق منهم جنوبى العراق وأسس أشهر ملوكهم (سركون الأول) عاصمته باب (ال) (بابل) اى باب الله حوالى ٢٨٠٠ ق . م . وغدت أشهر مدينة فى العالم القديم . واتسع نفوذ هذه الدولة حتى شمل بلاد الشام وفلسطين .

وكان الشعب السومرى او الشومرى ، يسكن هذه المنطقة من قبل هجرة البابليين وله حضارة زاهرة فى الحساب والفلك والتشريع لا تقل عن حضارة قدماء المصريين المعاصرين له .

وبعد هجرة البابليين سكن الشومريون منطقة شومر ، جنوب (بابل) . وتأثر البابليون بالشومريين كثيرا ، وعرفوا عنهم الحضـارة والتشريع ، وكتبوا بخطهم المسمـارى وتأثرت لغتهم السامية كثيرا باللسان الشومرى .

---

(١) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

الذى ينسب الى الأسرة الآسيوية القديمة ، وبنى الأكديون حضارتهم على أساس الحضارة الشومرية ، التى حاولت استرداد عزها وملكها فيما استطاعت .

وبعد أن وطد الأكديون أركان ملكهم ، بدأوا يكتبون لغتهم السامية بالخط الشومرى المسمارى ، فرمزت العلامة للفكرة أو المقطع الصوتى ، وساد اللسان الأكدى حوالى ٣٠٠٠ سنة .

ولتأثر الخط الأكدى بالشومرى ، تبين أن أبجديته خلت من أحرف التفخيم : (ط ، ظ ، ص) وخلت أيضا من حروف الحلق : (ء — هـ — ع — ح — غ — خ) لأن الشومرى كان أضيق من أن يتسع للأكدى . وظل الأكدى محتفظا ببعض مظاهر الاعراب ، فى الضم والكسر .

وأبرز آثار اللغة الأكدية فى الساميات الأخرى هو أسماء أشهر السنة :

Nissanu	نيسانو	نيسان	Iyaru.	أيرو	أيار
Simanu	سيمانو	حزيران	Duzu	دوزو	تموزا
Abu	آبـــو	آب	Ululu	أولولو	أيلول
Tisritu	تشريتو	تشرين أول	Arahsamna	ارح سمنا	تشرين الثانى
Kislima	كيسليمو	كانون الأول	Tebtu	طبتو	كانون الثانى
Sabatu	شباطو	شباط	Addaru	ادارو	آذار (١)

ويشترك الأشوريون مع البابليين ، فى التأثير والتأثر باللغة الشومرية اذ أن الأشوريين سكنوا أعلى العراق ، بينما سكن البابليون جنوبها كما سبق .

(ب) الأشورية :

الأشوريون قبائل سامية من اخوة البابليين ، هاجرت من جزيرة العرب حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . وخضعت لبابل دينيا وفكريا أول الأمر ، وسكنوا القسم الشمالى من بلاد العراق ، فى الحوض الاعلى لنهر دجلة ، وأسسوا

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ص ٣٤ ، وفقه اللغة العربية د . نجا ، ص ٣٤

مملكتهم هناك وجعلوا عاصمتها (آشور) بين نهرى الزاب الصغير والعراق سنة ١٣٠٠ ق . م وجرت حروب بينهم وبين البابليين . فهزموهم سنة ٨٠٠ ق . م . واستولوا على بابل ، واتسع ملكهم فشمل الشام . وجاء ملكهم (سركون الأشورى) وجعل عاصمة ملكه نينوى . ودامت الحروب بينهما قرابة الف سنة . وانقض عليهم ملك بابلى من اسرة كلدانية ، فأزال دولتهم وقهرهم .

وكان للأشوريين لغة ، الا ان اللغة الشومرية طغت عليها ، فاستعملوها فى الأدب والتشريع والحضارة ، ولذلك يطلق عليهم بعض اللغويين : (البابليين ــ الأشوريين) (١) ، جامعين تحت هذا الاسم ، كل القبائل السامية التى سكنت العراق ، اثر الموجة السامية الاولى ، الى جنوب العراق ، أو الى شماله

(ج) الآراميـــة :

الآراميون قبائل سامية هاجرت الى العراق حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م والذين استقروا فى الجزء الاعلى من العراق ــ فى الشمال ــ عرفوا بالسريانيين ، والذين استقروا فى الجزء الأسفل عرفوا بالكلدانيين . وكانت الهجرة الآرامية تسللا بطيئا ، للمقاومة العنيفة التى لاقوها من الأشوريين والكلدانيين ، وبنى اسرائيل ، ولكنهم انتصروا فى النهاية ، واصبحت لغتهم الادب والفكر لمساحة شاسعة من المنطقة لعدة قرون .

يقول اسرائيل ولفنسون : « بقيت لغة الحضارة ، هى اللغة الآرامية التى كانت فى تلك العصور لغة العمران عند أمم الشرق الأدنى » .

وعد بعض العلماء التدمرية والنبطية من اللهجات الآرامية .

واصبح لكل منهما لغة مستقلة ، هى السريانية ، والكلدانية . وتأثرت لغة السريان بالبابلية ، والأشورية ، والعبرية واليونانية ، فأصبحت خليطا من هذه اللغات .

---

(١) المصدر السابق .

وكان السريانيون متفوقين فى النواحى العلمية ، والفلسفية ، والأدبية والدينية فأنشأوا المدارس فى حران ، والرها ونصيبين . وعليهم اعتمد العباسيون فى نهضتهم العلمية ، فترجموا كتبهم (١) .

والسريانية اسم أطلقه الاغريق على الآراميين . ولاتزال السريانية حية الى اليوم على السنة عدد من سكان سوريا ، لاسيما قرية (معلولة) القريبة من دمشق وقد سمعته أنا من بعض سكان قرى لبنان فى البقاع .

وتأثرت لغة الكلدانيين — فى الجنوب — بالبابلية ، والأشورية والعبرية وقامت نهضة علمية فى مملكتهم ، لتثبيت دعائم ملكهم ، فاستخدمت لغتهم فى التدوين العلمى ، وتسجيل الشرائع ، وكتابة الطلاسم .

ولثبات اللغة ، وقوة الجانب العلمى ، لم يستطع (يختنصر) ابان غزوه للكلدان ، على زحزحة هذه اللغة عن مكانتها فبقيت حضارتها مزدهرة ابان القرنين ٧ ، ٦ . ق . م (٢) .

(د) الفينيقية ، او الكنعانية :

الفينيقيون ، او الكنعانيون ، قبائل سامية ، هاجرت من الجزيرة العربية الى بلاد الشام ، حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م ولغتهم قريبة من اللغة العبرية ، حتى ظنهما بعض العلماء لغة واحدة ، او ان العبرية لهجة كنعانية .

وكان الفينيقيون أصحاب تجارة ، وعمارة ، وحضارة ، وركبوا البحر ، وأسسوا الممالك والمستعمرات ، ووزعوا الأرض ، فازدهرت حضارتهم ، وانتعشت مادياتهم .

وأسسوا مدنا وممالك فى داخل الشام ، فانقض عليها العنصر الآرامى والعبرى ، فقضى عليها . وانشأوا مجموعة على سواحل الشام ، وبعض جزر البحر المتوسط ، بقيت حتى القرن الأول الميلادى .

وغامر فريق منهم بركوب البحر ، فوصلوا الى شمال افريقية ، وأسسوا لهم مستعمرات خارجية ، من اشهرها : مملكة (قرت حدش) وهى (قرطاجنة) اى القرية الحديثة ، بالقرب من تونس الحالية (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥ . (٢) المصدر نفسه .
(٣) الوجيز ص ٧٩ ، نقلا عن ولفنسون .

وامتد نفوذهم فشمل عددا من جزر البحر الأبيض المتوسط . والساحل الشرقى لبلاد الأندلس ، وجزءا من جنوبى ايطاليا .. فقوى ملكهم ، وتجارتهم ، وملاحتهم ، واهتموا بالعلوم والصناعة .. وظلت دولتهم قوية ، الى ان انقض عليها من الشرق اليونان والآراميون ، فثلوا عرشهم ، وانحسر ملكهم وتقلص على سواحل البحر الأبيض ، ثم ازال الرومان دولتهم بعد حروب طاحنة ، استمرت حوالى ١٢٠ عاما .

ويظن انهم أول من اهتدى للخط الكتابى ولم يهتموا بتدوين حضارتهم على عكس اخوتهم الساميين .

واعظم ما قدموه للعالم ابجديتهم ، التى استفادت البشرية منها ، ويرجع تاريخ أبجديتهم الى القرن ١٤ ق . م (١)

(هـ) العبرية :

اختلف العلماء فى معنى (عبرى) : فمن قائل : هو لقب ابراهيم الخليل عليه السلام ، بعد ان عبر النهر ، او هو اسم احد اجداده ، او بمعنى الرحلة والتنقل وعدم الاستقرار . وكان هذا دابهم حتى استقروا فى فلسطين فى نهاية القرن ١٣ ق . م .

ويراد بالعبريين : الشعوب التى تتصل بأنسابها الى ابراهيم الخليل وهى : بنو يعقوب ، وبنو اسماعيل ، وبنو مدين ، والعمالقة ، واهل ادوم ، واهل موآب وعمون .

وكانت القبائل العبرية تتنقل فى صحراء سيناء وشمال الحجاز . ونظرا لاتصالهم بأمم الصحراء ، فقد أمكن عقد مقارنات بين الأدبين : العربى والعبرى ، ولوحظ بينهما وجوه شبه قوية ، أقوى من أى لغات سامية اخرى .

ويقسم تاريخ العبريين الى طورين : طور ما قبل السبى ، وطور ما بعده ويتناول الطور الأول : عصر القضاة وعصر الملوك . وفى الأول كانوا بداة ، وانتهى هذا العصر فى سنة ١٠٤٠ ق . م . وفى الثانى توحدت القبائل تحت راية ملكهم (شاؤل) ، واشتهر منهم سليمان وابنه عليهما السلام ،

---

(١) المصدر السابق ص ٨١

وينتهى هذا العصر سنة ٥٨٦ ق . م . حين هاجمهم (بختنصر) البابلى ، وخرب فلسطين ، وسبى بنى اسرائيل ، واجلاهم الى بابل . وحاولوا بعد السبى استعادة ملكهم فأخفقوا ، ثم اتجهوا الى تأسيس دولة : (المكابيين) (١٤٠ — ٣٦ ق . م) حين جاء الفتح الرومانى . وبعد ذلك انقرضوا وذابوا فى أمم شتى ، بسبب الحروب والهجرة ، والامتزاج مع الشعوب المجاورة ، ولاسيما الآراميين .

واللغة العبرية — كما أسلفنا — شديدة الشبه بالكنعانية (١) .

وقد مرت اللغة العبرية فى أطوار كثيرة ، بدلت من سماتها وخصائصها :

فقد كانت قبل السبى البابلى سليمة نقية ، لم تؤثر فيها المؤثرات الآرامية ولكنها تأثرت — بعد السبى — بالفارسية والبابلية ، والآرامية ، حتى اتخذوا اللسان الآرامى لسان مخاطبة لهم ، فأثر كل ذلك فى العبرية ، واعتراها الخلط والتشويش . واستعملوا أسماء الشهور البابلية .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد اتصلوا باليونان وبفلسفتهم ، ورغبوا فى العلوم أكثر من الآداب ، ولم ينسوا تدوين أسفار العهد القديم ، ومحاولة تنقية لغتهم . لكن المستعملة اليوم على كل حال ، ليست هى العبرية القديمة .

على حين تمتع اليهود فى العصور الاسلامية فى مصر والاندلس بحرية ، لم تكن لهم تحت الحكم المسيحى ، فنما أدبهم وازدهرت لغتهم ثانية تحت الحكم الاسلامى وان بقى تأثرها بما اختلطت به من اللغات (٢) .

وتكتب العبرية بخطين : خط قديم مشتق من الخط الكنعانى فيما قبل السبى . وخط يشبه الخط الآرامى ، وعرف عندهم بالخط المربع ، أو الاشورى وهو المستعمل حتى اليوم .

واخترع اليهود نظام الحركات لضبط لغتهم ومحافظة على النطق ، واستقرت هذه الحركات بعد القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، واشتهر منهـا : النظـام العراقي والنظام الطبرى المألوف الى اليوم .

---

(١) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٣٧

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ٢٦٢

(و) الحبشـــية :

اللغة الحبشية ، هى لغة المنطقة الحبشية فى افريقيا ، واهم لهجاتها الجعزية والأمهرية أو الأمحازية .

وقد هاجرت قبائل يمنية الى الحبشة قديما وعرفوا باسم (الجعزية) أى الأحرار واسست مملكة ، وجعلت عاصمتها : (اقسوم) ، ودام ملكهم حتى ١٢٧٠ م .

ووجد علماء اللغات شبها كبيرا بين آثار لغتهم ، وبين اليمنية القديمة وأقدم آثار جعزية وصلتنا يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٠ م ، واهمها النقوش التى عثر عليها فى عاصمتهم (اقسوم) ، ومنسوبة الى ملوكهم ، عزانا وتزانا وآل (عميدا) (١) .

ولم تعمر هـــذه اللهجة طويلا ، اذ تغلب الأمهريون على الجعزيين سنة ١٢٧٠ م ، فأخذ نجمهم فى الافول ، وسطعت شمس الأمهرية .

وتنسب الأمهرية الى منطقة (أمهرا) ـــ وينتســـب أصحابها الى سليمان وملكة سبأ ـــ ، واتسع نطاقها ، واستعملت فى الأدب والدواوين حتى اليوم .

ولاحظ العلماء وجود صبغة حامية قوية فى هذه اللغة . وفى الحبشية لهجات اخرى ، لكنها ليست قوية ، مثل التيجرية ، والتجرائية ، والجوارجية ولهجة مدينة هرر ، ولهجة أهل جافات ، وقبائل ارجوبا .

كما لاحظ العلماء أن اللغة الجعزية حافظت على عناصر سامية قديمة لم يبق لها أثر فى الساميات الأخرى .

(ز) العربيـــة :

تنتمى العربية الى العائلة اللغوية الكبيرة : (السامية) ، وهى .. لغة العرب ، ووعاء الرسالة الخاتمة ، والتى حملت أمانة الحضارة الاسلامية عبر القرون لملايين البشر ، وبها نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين . وتمتد كلغة دين لآلاف الملايين من البشر ، صمدت حين اهتزت لغات ـــ وبقيت ـــ لثرائها ـــ حين بادت السنة ، وكسبت أرضا وناسا حين انحسرت لهجات : وصدق الله حيث يقول :

« انا نحن نزلنا الذكرا وانا له لحافظون » (١) .

---

(١) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٣٩

وتتوزع اللغة العربية فى عدد من اللهجات ، بعضها عاش فى جنوب الجزيرة ، وبعضها فى شمالها . وبعضها لم يقو على عاديات الزمن والحتوف السود فبادت واندثرت . وبعضها حمل بين طياته عوامل نمائه فتحدى وبقى وازدهر والفصحى هى التى حظيت بعناية اللغويين قديما وحديثا .

وتقع جغرافيا فى الفرع الجنوبى مع الحبشة ، وعربية الشمال تعرف بالعدنانية ، وتعرف عربية الجنوب بالقحطانية ، أو السبائية ، أو الحميرية ، أو المعينية وكلها لغة اليمن القديمة .

وظهرت العربية فجأة على مسرح الحضارة العالمية لغة نامية متكاملة فى صرفها ونحوها وبيانها وسعة مفرداتها . وهذه هى ما يقصد بها (الفصحى) وتسمى أحيانا بالقرشية ، لغلبة خصائص لهجة قريش عليها ، والا ففيها من اللهجات الاخرى ، الشىء الكثير ، أوصلها بعضهم الى أربعين لهجة . وتسمى احيانا بالحجازية ، وهى التى دون بها الشعر الجاهلى ، ونزل بها القرآن الكريم ، وجاء بها الحديث النبوى الشريف والتى لا تزال الى اليوم لغة العلم والأدب والدين .

ووصلتنا شابة قوية قبل ظهور الاسلام بحوالى مائتى سنة تقريبا .

والسبب فى رقيها وسيادتها : مكانة قريش الدينية ، والسياسية ، والتجارية والتهذيب الدائم للهجتها ، وابعاد كل مستكره أو ثقيل عنها ، وجلب كل خفيف ومستملح من الألفاظ من اللهجات العربية الأخرى اليها . فامتازت بالغزارة والاعراب الكامل ، والايجاز ، والجمال ، ودقة التعبير .

وطفولة العربية لا نعرف عنها شيئا ، يقول الدكتور أنيس :

« حين نفكر فى حال اللغة العربية ، قبل ظهور المسيحية (أى قبل الاسلام بسبعة قرون) نجد أنفسنا فى ظلام دامس ، فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع الى تلك العهود ، فأقدم ما عثر عليه لايكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى . وليس معنى هذا أن اللغة العربية ، لم تكن موجودة قبل المسيحية أو أنها احدث من شقيقاتها ، كالعبرية مثلا . بل يؤكد لنا

---

(١) الحجر : ٩

المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع الى السامية الام ، اكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى » (١) .

والسبب فى فقدان النصوص : أمية العرب الاقدمين ، ولذا فان اقدم نصوصها لا تجاوز قرنين من الزمان قبل الاسلام . ولعل دراسة الساميات عموما تزيل هذا الابهام .

ويمكن دراسة العربية جغرافيا فى شمالها وجنوبها ، كما يمكن دراستها تاريخيا الى بائدة وباقية ، فكلها لهجات للغة واحدة ، لقوم من العرب بعضها بائدة ، وبعضها باقية .

فالعرب البـــائدة :

هى التى بادت ، ولا نعرف شيئا من تاريخها على وجه محقق ، سوى ما قصته علينا الكتب السماوية ، وما أنبأت به الآثار والنقوش .

ومن أشهر هذه القبائل

« عاد » وتوطنت الأحقاف ، جنوبى الجزيرة العربية .

و « ثمود » فى الحجر فى شمال شبه الجزيرة .

و « طسم وجديس » وقد اقامتا باليمامة . و « العمالقة » المتفرقون فى الجزيرة بين عمان والحجاز وفلسطين (٢) .

وتتضارب الآراء كثيرا فى أماكن هذه القبائل البائدة .

والعرب الباقية :

هى التى بقى تاريخها وآثارهـــا للآن . وهم طبقتان : قحطـــانية ، وعدنانية .

فالقحطانية تنسب الى قحطان ، وقد ارتحلوا من العراق الى اليمن ، لوفرة خيراتها . وولد لقحطان : يعرب ، وجرهم . وولد ليعرب يشـــجب ، وتفرع منهم بعدئذ : قبائل كهـــلان ، وحمير ، وطىء ، والأزد ، والأوس ، والخزرج ..

واما العدنانية ، او الاسماعيلية ، او المستعربة :

فهم ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام . وعاش اسماعيل مع

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٣٣

(٢) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٣٩

أمه بجوار جرهم بمكة سنة ١٧٠٠ ق . م . وقد بعثه الله الى جرهم ، والى العمالقة بجوارهم ، والى اهل اليمن .

وتفرع العدنانيون بعدئذ فروعا كثيرة ، منها : عك ، ومعد ، ونزار ، ومضر ، وربيعة ، وانمار .. وتفرع من مضر (قريش) ذات التاريـــخ المجيـــد (١) .

ويهمنا الآن أن نعرف شيئا عن لهجاتهم .

أولا ــ اللهجات الشمالية ، فكان منها :

١ ــ اللهجة الثمودية :

هى عربية صميمة ، الا فى بعض كلمات ونظم يسيرة تختلف فيها عن لهجة قريش ، كما وجد على قبر نقش يعود تاريخه الى الرابع الميلادى . ونصه : (ذن ــ لقض ــ بنت ــ عبد ــ منت) . اى هذا القبر للقيض بنت عبد مناة (٢) .

ويرى بعض الباحثين : أن النقوش التى تسمى (النقوش العربية) ، والتى سبقت ظهور الاسلام ، هى لغة ركيكة لا تشبه العربية الفصحى . ويذكر أن اشهر واقدم هذه النقوش نقش النمارة ، وهى أنقاض لمخفر رومانى فى جبل الدروز . ونقش (زبد) عثر عليه فى اللجـــا ، قريب من حوران فى دمشق .

فنقش نمارة كتب تخليدا لذكرى ملك اسمه : امروء القيس بن عمرو ، المتوفى عام ٣٢٨ ، وكان ملكا على الحيرة ، وامتد نفوذه الى بادية الشام . ونص النقش : (تى نفش مرفيشا) اى هذا قبرامرىء القيس . ويصـــف الباحث عبارة النقش بأنها سريانية . ثم يقول : ولكن فى النقش عبارة عربية واحدة ، وهى : « فلم يبلغ ملك مبلغه » .

ويتوصل الباحث الى أن النص لرجل آرامى لا يعرف من العربية الكثير(٣) ولكنا نقول : بل هى عربية شابها بعض الفاظ دخيلة .

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ (٢) ولفنسون ص ١٧٥
(٣) نظريات فى اللغة ص ٦٦ ، ٦٧

٢ ــ اللهجة اللحيانيــة :

بنو لحيان ، من بطون العرب ، التى سكنت شمال الحجــاز ، قرب هضبات خيبر . وقد عثر المستشرقان (جلازر ، ودوتى) ، على نقــوش لحيانية كثيرة ، وبالرغم من أن النقوش استعصت على الحل زمنا ، الا انها عربية ، لأن فيها حروف (الذال ، والثاء ، والغين ، والضاد) كما فى اللغة العربية ، وكذلك فيها : أفعل التفضــيل وعلامة التنبيــه ، التى هى من خصائص العربية (١) .

٣ ــ اللهجة الصفوية :

ليس هناك من بين العرب من يسمون بالصفويين ، ولكن أطلق بعض المستشرقين هذه التسمية على جملة نقوش عربية عثروا عليها فى الحرة ، بين جبل الدروز ، وتلول أرض الصفاة . وترجع هذه النقوش الى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد .

ويشوب هذه اللهجة بعض ألفاظ نبطية وآرامية ، غير أنها ــ مــع ذلك ــ عربية خالصة ، وتستعمل ألفاظا عربية ، مثل : أسد ، وليث ، وغزال ، وجمل ، وبكر ، وقنفذ ، وورل ، وضبع ، وبقر ... الخ . وجاء فى نقش صفوى :

(لبرد ــ بن ــ أصلح ــ أبجر ــ وشتى ــ هدر ــ وذبح ــ فهلت ــ سلم) . أى . لبرد بن أصلح بن أبجر ، وشتى (فى هذه الدار) ، وذبح ذبيحة فيا أيتها اللاة سلام .

٤ ــ اللهجة الجاهلية :

وهى تسمية اصطلاحية أيضا ، تطلق على اللهجة التى سبقت ظهور الاسلام بحوالى قرن واحد . وعثر على نقوشــها فى منطقة الصــفاة ، ويتراوح تاريخ هــذه النقوش فى الفترة من سنة ٣٢٨ م حتى ٥٦٨ م (٢) ومنه نقش النمارة السابق .

ومثله نقش (زبد) الذى عثر عليه فى (اللجا) بحوران جنوبى دمشق

---

(١) ولفنسون ص ١٧٢

(٢) الوجيز ص ٩٦

وهو مكتوب باللغتين : اليونانية والعربية . وجاء فى النص العربى : انا شرحبيل بن ظلموا (ظالم) بنيت ذا المرطول (الكنيسة) سنة ٤٦٣ ، بعد مفسد (خراب) خيبر ، وهو نص عربى ، يعرف صاحبه اكثر من لغة ، وقد تشوب هذه النصوص بعض الفاظ من لغات مجاورة ، او لغة حاكم أجنبى ، أو خصم عنيد محارب :

فقد كان للثموديين حروب مع (سركون) ملك آشور ، وهزمهم فيها . وكان الرومان يستأجرون جنودا من الثموديين للحروب . وكان اللحيانيون يسكنون على مشارف الشام والعراق ، ويقعون تحت النفوذ الفارسي او الرومى (١) فلا غرابة فى أن تتخلل بعض الالفاظ والتراكيب ، السمات الاجنبية ، ولا يخرجها ذلك عن عربيتها .

هذا بعض ما كان من أمر اشـــهر اللهجات العربية فى الشمال .

ثانيا ــ اللهجات العربية الجنوبية :

يرجع تاريخ القحطانيين فى الجنوب الى القرن السابع قبل الميـلاد تقريبا وتاريخهم شديد الغموض . ومن هذه القبائل : المعينيين ، والسبأيين ، والقتبانيين والأوسانيين ، والحضرميين ، وغيرها ... والمعينية نسبة الى مملكة معين ، والسبأية كانت فى مملكة سبأ التى عاصمتها مأرب الشهيرة .

وظلت السيادة للسبئيين فى اليمن زمنا طويلا استغرق عهود بابل ، وآشور والفرس واليونان والرومان وكان من ملوكها (كرب) ، الذى سمى الدولة بالحميرية وبقيت الى عهد ذى نواس ، الذى انهزم أمام الحبشـــة سنة ٥٢٥ م ، وظل حكم الحبشة لبلاد اليمن حتى سنة ٧٥٠ م ، حيث حررها الاسلام من الحكم الأجنبى (٢) .

وقد عثر على نقوش كثيرة لهؤلاء الاقوام تبين ملامح لهجاتهم .

وهى لهجات تتشابه ، كأنها لهجة واحدة ، ولا تتعدى الفروق بعض الفاظ فيما بينها . وكلها عربية صحيحة لا تختلف عن الفصحى الا فيمـــا تختلف فيه لهجة قريش عن لهجة تميم .

---

(١) ولفنسون ص ١٧٧

(٢) المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية ، لأغناطيوس هويدى ، نقلا عن الوجيز للأنطاكى ص ٩٨ ، ٩٩ .

واليك طرفا من الخلافات بين المعينية والسبئية ..

فضمير المفرد الغائب فى السبئية ، كما فى الفصحى ، والمعينية تجعله سينا (كتابه = كتابس) والسبئية تعدى فعلها بزيادة الهاء ، والمعينية بالهمز : (هراق = أراق) . والقتبانية والحضرمية تجعل التعدية بزيادة السين ، فبدلا من (هراق) ، تقول : (سراق) (١) .

شبهات حول العربية ، فى صلة العدنانية بالقحطانية :

تلقى القحطانيون العربية من بقايا العرب البائدة ، وعن طريق الجراهمة انتقلت الى العدنانيين . وعملت بعض الفروق اللغوية تغيرا بين اللهجات الشمالية كالثمودية واللحيانية والصفوية ، وبين اللهجات الجنوبية ، كالمعينية والسبئية ، فكان هناك تفارق بين اللهجتين ، كما فى هذا النص : (لستم ويغث بن جشم هوعل) ، اى (الوعل لتيم يغوث بن جشم) . واحيانا يكون التفارق شديدا ، كما فى هذا النص : (ب وهق وصوابت ومحفدت وهجر هموا) اى : « واعلو السور مرة اخرى » .

ودعا ذلك ابو عمرو بن العلاء (١٤٥ هـ) ، أن يقول : « مالسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » . ويتفق ابن جنى (٣٩٥ هـ) مع استاذه الفارسى فى قولهما : « لسنا نشك فى بعد لغة حمير عن لغة بنى نزار » (٢) وهذا وذاك قول مبالغ فيه ، تلقفه المستشرقون ، وحكموا بأن اللهجات الجنوبية لغات سامية مستقلة ، ليس بينها وبين لهجات الشمال شبه . وصدق هذا القول بعض الكتاب والباحثين ، أمثال : الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، حين نفى شعر الشعراء الجاهليين فى الجنوب كامرىء القيس ، كما نفى ذلك : ابوعمرو بن العلاء ، واما الدكتور صبحى الصالح : فيصف الفرق بأنه « عظيم » (٣) ، وهو وصف قريب من وصف ابن جنى واستاذه الفارسى .

والحقيقة ان لهجات الشمال والجنوب عربية صرفة ، وان دخل الجنوبية بعض تأثيرات آرامية كثيرة .

---

(١) المصدر السابق

(٢) فقه اللغة العربية . د . نجا ، ص ٤٥

(٣) الوجيز ص ١٠٣

والسبب الذى وقع فيه القائلون بالنفى أو البعد :

ان النقوش المعثور عليها قليلة العدد والمادة اللغوية .

وكثير من هذه النقوش لم تحل رموزه حتى الآن ، كاللحيانية .

والمعثور عليه محدد المواضيع : فى تمجيد صاحب قبر غالبا — مما يضيق مجال التعبير ، ويفرض تكراره .

كما أن الكتابة لم تكن — يوما ما — تمثيلا أمينا دقيقا لما يلفظ : الا ترى اننا مازلنا نضيف واوا الى (عمرو) ، ونحرم (هذا) من الألف أوتكتب الانجليزية (Light) للضوء ، ولا تنطق (gh).

وعلى ذلك : فقد قرأ المستشرقون العلم العربى (عليو) فى السبئية — (علياو) مع أن قراءته الصحيحة (عليو) فى على ، ولكن اثبات الواو فى (عليو) هو اشارة الى الأصل الاشتقاقى ، كما ننطق نحن (رمى) بالالف ، ونكتبها بالياء اشارة الى اصلها الاشتقاقى ، على حين تكتب (جلا) بالالف ، لأنها واوية .

كما كان الرسم الاملائى يختلف بين الشمال والجنوب : اذ كان التنوين يكتب فى اللهجات الجنوبية ميما ساكنة فى آخر الاسم ، بينما لا يكون الحال هكذا عند الشماليين : فاذا كتب الشماليون : (كتابهم كتاب جميل) ، كتبه الجنوبيون : (كتبهمو كتبم جملم) كما أن عدم وجود رموز للحركات الطويلة — كحروف العلة — وعدم وجود الحركات القصيرة — كالفتحة والضمة والكسرة — فى تلك النقوش زاد من صعوبة قراءتها قراءة صحيحة ، والنطق لها على مثال ما كانوا ينطقون ، وقد طوى الزمن ذلك .

فضلا عن أن ترجمة النقش كانت تتم بلغة المستشرق ، ثم ينتقى أسهل أو اشهر لفظ لتأدية المعنى ، مثل لفظ (مقتوى) الذى ترجم الى لفظ مساعد ، وتداوله الكتاب : فحدث الفرق للترجمة الحرفية بين مساعد وبين معنى اللفظ فى شطر بيت عمرو بن كلثوم : متى كنا لأمك مقتوينا .

ومثل ذلك يقال عن الترجمة من استلهام السياق ، عند ما تغمض بعض المفردات (١) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ — ١١٨ بتصرف .

وساق الأستاذ الانطاكى ادلة اثبات على أن عربية الشمال والجنوب لهجتان للغة واحدة .

منها : اتفاقهما فى عدد الأصوات اللغوية ، والابجدية المكونة من ٢٨ حرفا .

واتفاق فى قواعد الصرف . واتفاق فى معظم المفردات .

ورجال قريش لم يحتاجوا الى مترجمين فى رحلة الشتاء الى عرب الجنوب . كما خاطب النبى وفد اليمن بلهجتهم : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » .

كما نفى الاستاذ الانطاكى قول المستشرقين فى ان لهجات الشمال ابتلعت لهجات الجنوب . ومن شاء مزيدا من الفائدة ، فليرجع الى كتابه القيم (١) .

والخلاصة اننا يمكن ان نقول : ان هناك تفارقا بين لهجات الشمال ولهجات الجنوب ، كما هو الشأن فى انشعاب اللغات الى لهجات ، وتأثر اللغات واللهجات بما يجاورها ، وذلك شىء طبيعى فى التأثير والتأثر ، أما التباين المطلق الذى يدعيه بعض الباحثين فشىء لا نقرهم عليه ، لأنه زعم باطل ، وفهم خاطىء .

وبعد تلك الجولة نستعير هذا الرسم لشجرة اللغات السامية ، من كتاب الأستاذ الدكتور صبحى الصالح (٢) ، توضيحا لمكانة اللغة العربية بين شقائقها وفروعها .

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ — ١٢٦ بتصرف .
(٢) دراسات فى فقه اللغة ، د . صبحى الصالح ص ٧١

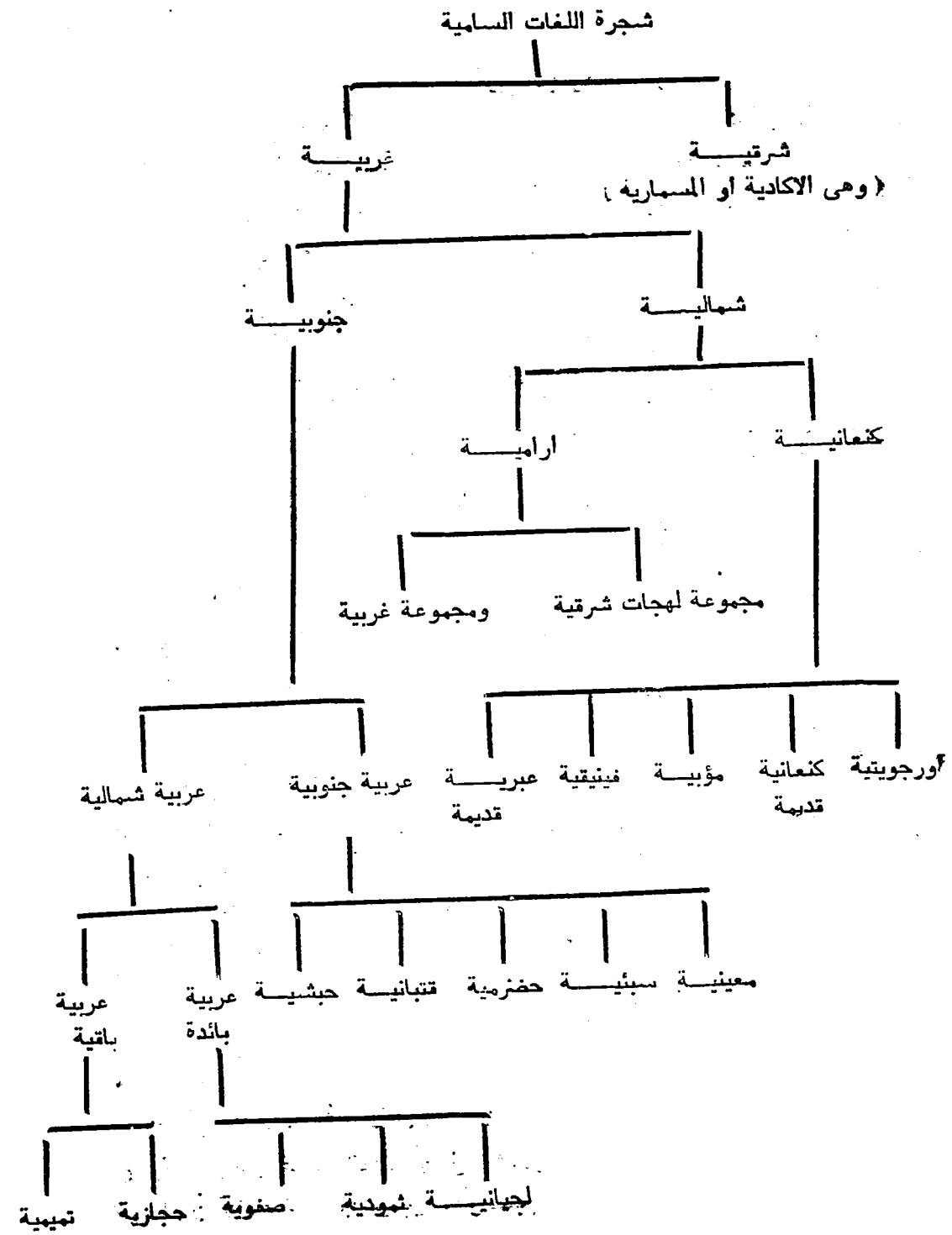
شجرة اللغات السامية
شرقية
(وهى الاكادية او المسماريه)
غربية
شمالية
جنوبية
كنعانية
ارامية
مجموعة لهجات شرقية
ومجموعة غربية
أورجويتية
كنعانية قديمة
مؤبية
فينيقية
عبرية قديمة
عربية جنوبية
عربية شمالية
معينية
سبئية
حضرمية
قتبانية
حبشية
عربية بائدة
عربية باقية
لحيانية
ثمودية
صفوية
حجازية
تميمية

تعقيـــب :

- تشتمل اللغات السامية الحاميـــة أربع مجموعات لغويـــة ، هى : مجموعة اللغات السامية ، واللغة المصرية ، والليبية البربرية ، والكوشية .
- تتفرع اللغات السامية ـــ جغرافيا ـــ الى ثلاثة فروع ، هى : الفـــرع الشرقى ، وتندرج فيه لغات : بابل وآشور ، والتى وصلنا الكثير منها بالخط المسمارى .

والفرع الغربى ، وتندرج فيـــه الآرامية القديمة بفرعيهـــا : الكلدانية والسريانية والكنعانية ، وتشمل : الفينيقية ، والعبرية ، واللغـــة التى اكتشفت فى (أوغاريت) برأس الشحرا .

والفرع الجنوبى ، تندرج فيه : العربية والحبشية . ولغة الأحبـــاش القديمة تعرف (بالجعز Geizz) بكسر الجيم والعين وتشديد الزاى ، أى لغة المهاجرين من اليمن الى افريقيا ، ، أو الأحرار .

- وتغطى مجالا فسيحا ، هو شبه جزيرة ، وشمالها فى الشام ، وجزءا كبيرا من افريقيا .
- تتجانس المجموعة الســـكانية لشعوب المنطقة نســـبيا . وان تفاوتت حضـــــارتهم .
- وانكمشت اللغات الحامية ، وانتشرت مكانها اللغات السامية ، ولعبت دورا حضاريا رئيسيا فى التاريخ .
- الاتفاق فى كثير من العناصر النحوية والصرفية بين السامية والحامية ، جعل بعض العلماء يجعلهما مجموعة واحدة ، لوجود علاقات عضوية بين الشعوب الحامية السامية وبين لغاتها الكثيرة ، كما تثبت ذلك حقائق التاريخ ، والجغرافيا ، وعلم اللغة المقارن .
- مازال فى المجال الجغرافى فى اللغات السامية والحامية ـــ ذات الحضارة العريقة لغات مجهولة ، تنتظر البحث والتنقيب والدراسة .
- اقتحمت العربية مجالا واسعة للغات عديدة من مجموعات لغوية مختلفة كالفارسية والهندية ، والتركية ، والماليزية ، والنيجيرية .
- ولا فرق بين عربية العدنانيين فى الشمال ، وبين عربية الجنـــوب فى اليمن للقحطانيين والمعينيين ، والسبئيين والحميريين .

- لايعرف اللغويون من اللغات واللهجات ـــ الشيء الكثير ـــ الا ما تطور ، وترك خلفه تاريخا عريضا ، ونقوشا مدونة واضحة .
- معرفة جميع لغات العالم كلها عسيرة ، ومتعذرة .
- ليس هناك لغة افضل من اخرى ، لان اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تتطور بتطور الانسان وتنمو بنمو حضارته . و « كل فتاة بأبيها معجبة » كما يقول المثل العربى .
- للغة مجرى ، تنشعب فيه اللغات كلما بعد المجرى : فالأرمنية والايرانية والروسية ، والألمانية واللاتينية ... مجراها واحد ، على ما بينها من تباين واختلاف فى اشياء كثيرة .
ومثل ذلك يقال عن : العربية ، والعبرية والبابلية والآشورية والفينيقية . من السامية .
- لا اعتبار للكتابة وقواعدها فى اللغة ، وانما الاعتبار للفظ وطريقة ادائه ، لأن الكتابة ليست من جوهر اللغة ، وانما هى عرض ورموز للغة التى هى مجموعة اصوات ، واللغة اقدم من الكتابة .
- رسم حدود للغة محددة تحديدا قاطعا ، غير ممكن ، بل هى مشكلة لا تحل حلا مرضيا . لأن انتشار اللغة لايمكن ضبطه للهجرة وغيرها . ولأن التفاهم لا ينقطع فجأة .
- ما يقال : من ان اللغات التى من اسرة واحدة انحدرت عن لسان واحد ، هو اب لها جميعا ، قول افتراضى ، لايمكن اقامة دليل علمى قاطع عليه ، لسكوت ما قبل التاريخ عن بيان ذلك .
وما يقال : من أن الوحدة العنصرية الدموية تجمع بين الشعوب الناطقة بمجموعة لغوية معينة ، لا يسنده الواقع . فان كثرة من شعوب امريكا اللاتينية تنطق الاسبانية وليس بينها وبين الاسبان هذه الروابط .
والشعب الفرنسى ينحدر من قبائل الفرنك وقبائل الكلت . ويسكن أرض الغال التى لم تكن لأسلافه ، ويتكلم بلسان مشتق من اللاتينى ، لاعلاقة له ببلاد الغال ، ولا بقبائل الفرنك .
- محاولة الربط بين اللغة والجنس البشرى ، أو رقى شعب يتكلم لغة معينة كالآرية دليل الحضارة .. قول مردود : فكل شعب قادر على اكتساب لغة اخرى ، واى لغة ، وأن يرقى بأى لغة اذا تهيأت له اسباب الرقى والحضارة .

الفصل السادس

الأصوات اللغوية

قلنا : ان اللغة فى ذاتها عبارة عن أصوات ذات دلالة . وعلم الاصوات يدرس على مستويين : علم الأصوات العام : (Generalphonetics) وعلم الاصوات فى سياقها ، أو علم الأصوات التشكيلى أو التنظيمى (Phonology)

ويتفرع علم الأصوات الى :

وصفى (Descriptive) لدراسة اية لغة صوتية لفترة زمنية معينة .

والى تاريخى : (Historical) اذا طالت الفترة الزمنية .

والى : مقارن (Compartive) ، حين مقارنة لغتين أو أكثر على وجه المقارنة .

وتسير دراسة الأصوات على مرحلتين :

مرحلة تختص بالمادة ذاتها : (Material) ، وهى التى تسمى (Phonatics) . وتعنى بدراسة أعضاء النطق ابتداء من الشفتين والتجاويف الأنفية والفمية والحنجرة والاحبال الصوتية ، والرئتين دراسة تشريحية لمعرفة وظيفة كل جزء فى احداث وتكوين الصوت .

ومرحلة تختص بتجريد هذه المادة ، والانتهاء بها الى صورة قواعد عامة ، وتسمى هذه المرحلة (Phonology) ، وتعنى بدراسة الصوت فى سياقه ، والنظم الصوتية للغة معينة ، وكما ينطقها أصحابها فى ممارستهم اليومية (١) .

---

(١) مذكرة فى الأصوات اللغوية . د . بشر ص ٢٢

ومباحث علم الاصوات فى جملتها شديدة التداخل ، يعسر احيانا فصلها ، ولذا يدرجها بعض العلماء كلها مع بعضها .

والاصوات جزء من اللغة ، وعلم اللغة محكوم بقوانين تتصل بعلوم مختلفة تتحكم وتؤثر فيه ولابد من دراستها ، والاستعانة بها فيما يخص الجانب اللغوى عند دراسته ، مثل علم الصوت (Accovstic) ، وعلم التشريح (Anatome) وعلم وظائف الاعضاء : (Ahyslology) ، وعلم مبادىء النفس (Psychcology) ، ومبادىء علم الاجتماع (Sociology).

« والكلام يتكون من اصوات ثابتة هى المصوتات : (الحركات) ، التى ينفصل بعضها عن بعض بوساطة (فونيمات) ، تقترب عامة من نموذج الضوضاء . وهى عادة تتميز بحركة اغلاق لأحد أعضاء النطق ، تتفاوت اداء ، وتعقبها حركة فتح لهذه الأعضاء .

هذه الحركات النطقية هى التى يطلق عليها الصوامت ، ومن مجموع الصوت مع حركة الفتح فى بدئه ، وحركة الاغلاق التى تنهيه ، يتكون المقطع ، الذى تتنوع بنيته من لغة لأخرى .

وهكذا نجد أن الكلام فى كل اللغات ينقسم الى مجموعات أولية قصيرة ، مشتملة على مجموعة من الأصوات التى ينفصل بعضها عن بعض بوساطة الحركات النطقية المتفاوته الطول » (١) .

ويشيد العلماء المحدثون بعلم وظائف الأعضاء (او علم التشكيل الصوتى ، كما يسميه الدكتور تمام حسان) (٢) ، ويفرعون هذا العلم على الأصوات اللغوية ، ويفرقون بين العلمين : بأن علم الأصوات اللغوية يدرس الأصوات اللغوية ، وكأنها مجرد حوادث فيزيائية ، لا علاقة لها باللغة التى هى أحد عناصرها ، فيهتم بمخارجها وصفاتها ومقادير شدتها ، وعدد ذبذباتها واطوالها .. الخ .

بينما يهتم علم وظائف الأصوات ، أو التشكيل الصوتى بوظيفة كل صوت فى اللغة فيتساءل عن كثرة ورود هذا الصوت او قلته فى هذه اللغة ، وعن امكان وقوعه فى هذا المقطع او ذاك ، وعن قبول مجاورته لذاك الصوت

---

(١) فى التطور اللغوى ص ٢٠

(٢) مناهج البحث فى اللغة . د . تمام حسان ص ١١١

ثم لا .. الى آخر ما هنالك من المباحث التى ترمى الى وضع القواعد الصوتية ، التى تجرى عليها الأصوات فى لغة ما من غير الحاح على الطبيعة الفيزيائية للاصوات .

والطريف أن العرب الأقدمين عرفوا من مباحث هذا العلم الحديث (علم وظائف الأعضاء) .

فقولهم عن النون والراء انهما لا تجتمعان فى صدر كلمة عربية ... وملاحظاتهم الكثيرة لما يستحسن من تراكيب الحروف وما يستقبح ... كل ذلك من لب المباحث (الفونولوجية) (١) .

ويتكون الجهاز الصوتى فى الانسان من :

١ ــ الرئتين ، لاستغلال الهواء الخارج منهما .

٢ ــ القصبة الهوائية التى تصل ما بين الرئتين والحنجرة .

٣ ــ والحنجرة ، وهى كحجرة غضروفية ، وبروزها الامامى يسمى بتفاحة آدم .

٤ ــ الوتران الصوتيان ، ويمتدان افقيا فى الحنجرة وبينهما فراغ يسمى بالمزمار ، وفوق زائدة لحمية تسمى : لسان المزمار ، تحمى طريق التنفس اثناء البلع ومرور الطعام فى المرىء ولا يهتز الوتران اذا كانا متباعدين ، ويهزهما الهواء اذا كانا متقاربين ويحدثان الصوت : ثم تقوم تجاويف الحنجرة والحلق والفم بتضخيم الصوت على نحو ما تصنع الآلات الموسيقية .

٥ ــ الحلق : وهو الجزء الذى بين الحنجرة والفم،وهو يضخم الصوت .

٦ ــ اللسان وهو عضلة شديدة المرونة ، وأهم جزء فى الجهاز النصوتى ، وبه تتنوع وتتمايز الأصوات .

٧ ــ الحنك الأعلى . ويسمى بسقف الفم ، والجزء الأمامى منه صلب يدعى الغار ، والجزء الخلفى منه رخو يدعى الطبق .

٨ ــ اللهاة : وهى الزائدة اللحمية فى آخر الحنك الأعلى الرخو .

٩ ــ الأسنان : العلوية والسفلية فى الفم .

١٠ ــ أصول الأسنان ، وهى اللثة .

---

(١) الوجيز ص ١٣٩

١١ ــ الفراغ الأنفى ، الذى يندفع خلاله النفس أثناء انغــلاق طريق الفـــم .

١٢ ــ الشفتان : وهما عضلتان مستديرتان ينتهى بهما الفم .

وقد مر بنا من قبل طريقة احداث الصوت اللغوى .

● وعلم الأصوات المجردة (الفوناتيك) يتناول هذا الجانب بالدراسة التشريحية ودراسة وظائفها ، المباشرة وغيرها فى انتاج الأصوات . كمــا يتناول دراسة الصوت ومكوناته وعناصره الاساسية ، من حيث عـــدد الذبذبات وطبيعتها ، وتكونها فى موجات هوائية .. كما يدرس صفــات الصوت من جهر وهمس وانفجار واحتكاك ، وانطلاق وانتقال ... وعرف علماؤنا العرب القدامى ذلك فى علم التجويد ، الذى حافظ على نطـــق القرآن الكريم كما أنزل ، ووضحوا مخارج الحروف وصفاتها وكيف أن حروف الاظهار الحلقى هى : (همز ، هـ ، ع ، غ ، ح ، خ) . وحروف الادغــام هى ، (ى ، ن ، م ، و) بعد النون الساكنة والتنوين .

وحروف الأخفاء هى : (ص ، ذ ، ث ، ك ، ج ، ش ، ق ، س ، د ، ط ، ز ، ف ، ت ، ض ، ظ) بعد النون الساكنة أو التنوين .

وبهذا العلم ، وبجهود علمائنا القدامى ، مثل سيبويه ، وابن جنى ، وغيرهما فى علم الأصوات الذى بهر الغرب ، واستفادوا منهم ابان نهضتهم، وعجبوا أن يصدر مثل هذه الدقة عن علماء عرب .

وبذلك عرف العلماء تصنيف أصوات العربية ــ مثلا ــ بحسب طرق النطق ــ على رأى ــ فيما يلى :

١ ــ فيها خمسة عشر صوتا مجهورا ، هى :

(ب ، م ، و ، ض ، د ، ظ ، ذ ، ز ، ع ، غ ، ج ، ل ، ر ، ن ، ى) .

٢ ــ وثلاثة عشر صوتا مهموسا ، هى : (ط ، ت ، ك ، ق ، همزة ، ف ، ث ، س ، ش ، خ ، ح ، هـ ، ص) .

٣ ــ واربعة اصوات مطبقة ، هى : (ص ، ض ، ط ، ظ) .

٤ ــ واربع وعشرون صوتا غير مطبق ، هى : ماعدا المطبقة .

(والمجهود ما هز الوتران الصوتيان ، والمهموس بخلافه . والمطبق ما يرفع به اللسان الى أعلى الحنك ، حتى يصير كالطبق له ، وغير المطبق بخلافه) .

وفى ايجاز نذكر طرفا عن هذا العلم :

الذبذبة الصـــوتية :

هى حركة الجسم فى اتجاه معين ، حتى تصل الى مكان معين .

والموجـــة الصـــوتية :

هى مجموع الذبذبات الصوتية الناجمة عن تأثير احداهما فى الأخرى . وتكون بسيطة اذا كان الجســـم المحدث للصـــوت نقيا ومتماثلا . أما اذا تفاوتت فى ذلك فهى مركبة .

(أ) ومن الأصوات مالا يؤثر فى الأوتار الصوتية بالاهتزاز ، فتكون غير حنجرية لأنها تصحب الهواء الخارج من الرئتين ، فتمر بالقصبة الهوائية والحنجرة دون تأثير فى أوتارها ، ثم تمر بباقى الاعضاء ، وهى الحلق واللسان والشفتان ، وقد يحدث أن يحتجز الهـــواء احتجازا تاما عند النطق بأحد الحروف (كالتاء) ، فمع أنها لا تهز الأوتار الصوتية الا أنها تحجز الهواء عند اتصال عضوى النطق ، وهما : طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ـــ وتعرف هذه الاصوات بالشديدة المهموسة .

(ب) أما الأصوات الحنجرية : فهى التى تؤثـــر فى الأوتار الصـــوتية بالاهتزاز والتذبذب وذلك مثل (الباء) ، التى تهز الأوتار الصوتية واذا وصلت الى الشفتين جعلتهمـــا ينطقان انطباقا تاما يحول دون مرور الهواء ، ولذا يقال لهذا النوع من الاصوات الحنجرية الانحباسية . وهناك لون آخر يقال له : الاصـــوات الحنجرية الانطلاقية لهز الأوتار الصوتية ـــ مع مرور الهواء الى الخـــارج بلا حائل يحبسه ، وذلك مثل : أصوات اللين القصيرة ـــ الحركات الثلاث ـــ أو الطويلة ، وهى حروف المد ، (أ ، و ، ى) أو حروف اللين كما ما يطلق عليها المحدثون (١) .

---

(١) التجويد والأصوات . د . نجا ص ١٨ ـــ ٢٦ بتصرف .

والأصـــوات تختلف :

فاذا تحرك الوتران الصوتيان حال مرور الهواء ، كان الحرف مجهورا، لهزة الأوتار الصوتية ، والا فهو مهموس .

والصوت الطليق ، هو الذى يجرى معه النفس طليقا لا يعترض طريقه عقبة حتى يخرج من الفم .

والصوت الحبيس : هو الصوت الذى يحدث معه انسداد جزئى او كلى فى نقطة من نقاط القناة الصوتية .

والأستاذ الأنطاكى ، هو صاحب التسمية : (بالطليقة والحبيسة) ، ويراها أفضل من تسمية الدكتور تمام حسان (بالصحاح والعلل) ، لان هذه تسمية تليق بالصرف . كما يراها افضل من تسمية الدكتور محمود السعران (بالصوامت والصوائت) لأن فيها تناقضا ، اذ كيف يسمى الصوت صامتا ؟ وكذلك اعترض على من سماها (بالسواكن والحركات) ، أو (الســـواكن واصوات اللين) ، للالتباس بين الساكن الذى لا تتلوه حركة ، والساكن الحبيس (Consonnes) (١)

● اما علم الصوت التشكيلى او الفونولوجيا : فيدرس الصوت فى سياقه وفى لغته المعنية ، وطريقة نطق أصحابه له فى نطقهم الطبيعى للغتهم . وكذلك معرفة مدى تأثره بما يجاوره من اصوات ، حتى تتضح صورة (الفونيم) اى : الوحدة الصوتية التى تتشكل باختلاف المواقع المؤثرة فيها . ويتضح المقطع الصوتى ، فنعرف الطريقة ، التى ركبت منها الكلمات ، فى تلك اللغة وكذلك اجزاء التفعيلات العروضية ..

والمقطـــع الصـــوتى :

هو تقسيم بسيط للحدث اللغوى ، أو هو الدفعة الهوائية التى تضم وحدة صوتية بسيطة ، يمكن تجزئتها الى اقل منها ، لبساطتها .

وتختلف المقاطع الصوتية باختلاف اللغات :

فمن الخصائص البنيوية التى يجب أن تتوفر للمقطع العربى :

١ ــ يجب أن يبدأ بصامت ، أو طليق كما يسميه الأستاذ الأنطاكى .

---

(١) الوجيز ص ١٤٦

٢ — وأن يثنى بحركة .

٣ — وتختلف المقاطع فى العنصر الثالث ، الذى لا وجود له فى المقطع الأول ، وهو حركة فى الثانى وصامت فى الثالث .

ومقتضى ذلك : أن الكلمة العربية لا تحتمل فى أولها صامتين ، وان كانت تحتملهما فى وسطها ، فى مثل : « يكتب » حيث تتجاور الكاف والتاء ، والكاف نهاية المقطع الأول والتاء بداية المقطع الثانى (١) .

كما أن الكلمة العربية لا تقبل تجاور ثلاثة صوامت ، بله اربعة فاذا اجتمعت ثلاثة وسط الكلام ، وجب تحريك احدهما ، ليرتد النسيج النطقى الى الاصل المقبول وهو ما يسميه النحاة : (التحريك للتخلص من التقاء الساكنين) ، أى التحرك للتخلص من تجاور ثلاثة صوامت .

على حين أن الانجليزية — مثلا — تقبل البدء بحركة ، مثل :

(important) ، بمعنى مهم . كما يمكن للانجليزية ايضا — أن تبدأ بصوامت ، دون حركة تفصل بينها ، مثل : (Street) بمعنى شارع ، ففيها : (St) تعقبها الراء المتحركة بحركة : (ee)

ولذلك تستعين العربية بهمزة الوصل ، للتوصل بها وبحركتها الى النطق بصامتين ، حين تبدأ الكلمة بهما ، مثل ، الامر : من كتب يكتب . فتسهيلا للامر اجتلبنا همزة الوصل ، ليكون البدء بمتحرك أى (بصامت + حركة) .

المقاطع اللغوية :

ينفتح الفم اثناء الكلام وينغلق ، ولا يمكن أن يكون الكلام كله من أصوات طليقة فقط ، ولا من أصوات حبيسة فقط . ولذا حلل اللغويون الكلام الى وحدات صوتية ، أكبر من وحدات الأصوات المفردة ودعوها المقاطع .

فالمقطع اللغوى هو : مجموعة من الأصوات المفردة ، تتألف من صوت طليق واحد معه صوت حبيس واحد أو اكثر .

---

(١) راجع : الأصوات اللغوية . د . انيس ، ومناهج البحث فى اللغة ص ٥٩ وما بعدها . وفى علم اللغة العام ص ١٠٨ ، والتجويد والأصوات د . نجا ، ص ٢٧

ففى كلمة (قال) مقطع واحد ، يتألف من صوت طليق واحد هـو : الفتحة الطويلة (الالف) ، وعلى جانبيه حبيسـان اثنان ، هما : القـاف و اللام . وفى كلمة (هاتى) مقطعان : أولهما : (ها) الذى يتألف من الفتحة الطويلة (الالف) ومعها الهاء ، و الثانى (تى) الذى يتألف من الكسرة الطويلة (الياء) ومعها التاء . أما الكلمة (ضرب) فتتألف من ثلاثة مقاطع ، كل منها مؤلف من فتحة قصيرة ، مع حبيس واحد ، وهى على الترتيب : (ض . ر . ب)

وتنقسم المقاطع من حيث موضع الطليق (الصامت) أو من حيث الطول والقصر الى ثلاثة اقسام لكل منهما :

فمن حيث موضع الطليق تنقسم المقاطع الى :

١ ـ مفتوح : وهو المقطع الذى ينتهى بالطليق ، مثل : ب ، ب ، ب ، با ، بى ، بو .

٢ ـ مغلق : وهو ما انتهى بالحبيس ، مثل باب : عيد ، عود .

٣ ـ مضاعف الاغلاق : وهو ماتلا الطليق فيه حبيسان ، مثل : بحر ، قرد ، قفـل .

وتنقسم من حيث الطول والقصر الى ثلاثة اقسام ايضا :

١ ـ قصير : وهو ما تألف من طليق قصير مع حبيس واحد ، مثل : ب . و . ف .

٢ ـ متوسط : وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيس واحد ، مثل : يا . فو . فى .

٣ ـ طويل : وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيسين أو أكثر ، مثل : باب ، كيس ، عود .

أو من طليق قصير مع ثلاثة حبيسات ، مثل : بدر . قرب . هند .

وينقسم المقطع فى العربية الى خمسة أشكال :

١ ـ حبيس + طليق قصير = (قصير مفتوح) .

٢ ـ حبيس + طليق طويل = با (متوسط مفتوح)

٣ ـ حبيس + طليق قصير + حبيس = من (متوسط مغلق)

٤ ـ حبيس + طليق طويل + حبيس = باب (طويل مغلق) .

٥ — حبيس + طليق قصير + حبيس + حبيس = بحر (طويل مضاعف الاغلاق)

ويرى أن الأشكال الثلاثة الأولى شائعة فى العربية . أما الرابع فقليل ، ويرى غالبا فى نهايات الكلمات ، ووجوده فى حشوها نادر جدا ، مثل :

« **مدهامتان** » (هام) ، « **والضالين** » (ضال) . أما الشكل الخامس فلا يرى الا فى نهايات الكلمات ، عند الوقف عليها بالسكون (١) .

وبعض العلماء يعطى أقسام المقاطع فى العربية اصطلاحات أخرى ، والخلاف لفظى ، لا أثر له :

فالمقطع الأول : مفتوح ، ويتكون من : ساكن + لين قصير . أو ساكن + لين طويل .

والثانى : مقفول ، ويتكون من : ساكن + لين قصير + ساكن .

والثالث : مفتوح مغلق ، ويتكون من :

(أ) ساكن + لين طويل + ساكن . كالمقطع الاخير فى الرحيم ، حين الوقف عليها ، أو وقع بعد حرف لين حرف مدغم فى مثله ، **كالحاقة ، والصافات .**

(ب) ساكن + لين قصير + ساكنان . ويتحقق فى حال الوقف على كلمة منتهية بحرف مشدد ، حين الوقف . مثل : « **أين المفر** » ، « **الى ربك يومئذ المستقر** » (٢) .

وبعضهم يقسم المقاطع الى :

١ — مقطع قصير ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة .

٢ — مقطع طويل مفتوح ويتكون من صامت + حركة طويلة .

٣ — مقطع مقفل ، ويتكون من : صامت + حركة قصيرة + صامت .

ويتفق الجميع على أن هذه المقاطع الثلاثة تكثر فى الكلام العربى المتصل، وتنحل الصيغ اليها كلها أو بعضها .

---

(١) اللغة ، لفندريس ص ٨٤ ، والوجيز ص ٢٣٨ — ٢٤٢

(٢) التجويد والأصوات . د . نجا ، ص ٢٧ — ٢٩

أما الصورتان الأخريان ، فهما :

٤ ـ مقطع مديد مقفل بصامت ، ويتكون من : صـــامت + حركة طويلة + صامت .

٥ ـ أو مقطع مديد مقفل بصامتين ، ويتكون من :

صامت + حركة قصيرة + صامتين (١) .

وهاتان الصورتان تردان فى النطق فى حالة الوقف غالبا .

على كل عرف العلماء بذلك أن لكل لغة نظاما خاصا فى تأليف الفاظها ونسجها .

وأن هذا المزج للأصوات ـ كما يسميه ابن جنى (٢) ـ يسمى بالنسيج الصوتى وأن ما تقبله لغة من هذا النسيج الصوتى وتكثر منه ، قد ترفضه لغة اخـــرى ، أو يندر وجودها فيه .

وأن معرفة مقاطع لغة معينة تعين على معرفة أصلها وأثيلها ، وما هو اجنبى عنها أو دخيل ، أو مولد فيها .

وأن اللغة تقبل ما يلائم ويواكب خصائصها وطبيعتها ، وترفض ما عدا ذلك .

وأن الكلمة فى اللغة العربية يمكن أن تتكون من : مقطع واحد ، حتى سبعة مقاطع ، نمثل لها فيما يلى :

من مقطع واحد ، مثل : ب ، ذا . ومثل : (ق) فعل أمر من وقى . ومثل : يد ومثل : باب ـ ومثل : عمر . وقد تمثلت فى هذا المقطع الأنواع الخمسة من المقاطع كما ترى .

من مقطعين ، مثل : قالوا (قا ـ لو) .

من ثلاثة : مثل : كتب (ك ـ ت ـ ب) .

من أربعة ، مثل : شجرة (ش . ج . رتن) .

---

(١) فى علم اللغة العام ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) سر الصناعة ، لابن جنى ١/٧٧

من خمسة : مثل : شجرتك (ش . ج . ر . ت . ك) ،

من ستة ، مثل : شجرتكما (ش . ج . ر . ت . ك . ما) .

من سبعة ، مثل : فسيكفيكهمو (ف . س . يك . في . ك . هـ . مو)[٢]

ومثل : انلزمكموها (ا . نل . ز . م . ك . مو . ها) .

ومعنى ذلك ان العربية لا تقبل ان يكون فى نسجها :

١ ــ كلمة مؤلفة من ثمانية مقاطع او اكثر .

٢ ــ كلمة فى صدرها او حشوها مقطع من النوع الخامس .

٣ ــ كلمة مجردة من اللواحق مؤلفة من اربعة مقاطع من النوع الأول ، اللهم الا اذا دخلها بعض الضمائر ، مثل (شجرتك) .

٤ ــ كلمة مجردة من اللواحق ، مؤلفة من ثلاثة مقاطع من النوع الثانى . وان وجدت هذه الكلمة فهى قطعا اعجمية ، مثل (قاديشا ــ عامودا) . اما اذا كانت العربية ذات لواحق فلا مانع من ان تأتى ثلاثة مقاطع من هذا النوع ، مثل : « باعوها »

٥ ــ كلمة مؤلفة من مقطعين ، أولهما من النوع الثانى ، وثانيهما من النوع الخامس . وان وجدت فهى اعجمية ، مثل (جومرت) ، بمعنى كيس فى لهجة حلب ، مثل ابن (تومرت) .

٦ ــ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع : أولها من النوع الثالث ، والثانى والثالث من النوع الثانى . فان وجدت كلمة من هذا النسيج فهى اعجمية ، مثل : (سرغايا) ، ومعناها : عالم القرية فى سورية ، واللفظ سريانى . الا ان بعض الكلمات فى العربية تعد من هذا القبيل ، اذا وقف عليها بالالف بدل التنوين المنصوب ، مثل : (قنطارا) .

٧ ــ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع : أولها من النوع الثانى ، والثانى والثالث من النوع الثالث . وان وجدت كلمة من هذا النسيج فهى اعجمية ، مثل : (شابندر) اى نقيب التجارة فى الفارسية .

---

(١) الوجيز ص ٢٤٣

قياس الصوت اللغـــوى :

عنى علماء الأصوات بقياس مدة الصوت اللغوى وطوله ، ومعرفة الزمن الذى يستغرقه نطق صوت من الأصوات ، مقدرا بجزء من الثانية . وبذلك يقتدى الخلف بالسلف فى معرفة مدة الصوت ونطقه نطقا صحيحا ، كما أنه يعين على تعلم اللغة على أصـــول سليمة .

ووجد علماء الأصوات أن الحروف الأنفية مثل (النون ، والميم) تستغرق فى النطق زمنا أطول من نطق حرف اللام أو الراء . وأن الحروف الطليقة الطويلة (الالف ، والواو ، والياء) ، تأخذ ـــ أيضا ـــ زمنا أطول من أنصاف الحروف (الفتحة والضمة والكسرة) .

ومن هنا قدر العلماء أن الـــدال المتطرفة فى الانجليزيـــة ـــ مثلا ـــ تستغرق فى النطق حوالى ٠٫٠٥ من الثانية . بينما صوت (A) يستغرق فى نطقه حوالى ٠٫٤٣ من الثانية .

وقد يكون الصوت طويلا بطبيعته ، كما اذا كان طليقا ، فيعد طولا طبيعيا كنطق النون والميم ، والراء .

وقد يكتسب الصوت طولا من مجاورته لصوت آخر ، فيسمى طولا مكتسبا كنطق النون فى مثل : (دبابات) ، فالالف الأخيرة أطول من الأولى ، لوقوعها فى مقطع منبور . ومثل الألف فى (ســـماء) ، والالف الأولى فى **(مدهامتان)** ، وكذا الف (سعى) ، لوقوع الأولى قبل همزة ، والثانيـــة قبل ادغام ، والثالثة متطرفة .

ولم يخف ذلك على علمائنا القدامى ، فذكروا أنواع المـــد : اللازم والطبيعى والمتصل والمنفصل ، ولعدم توفر الآلات الحديثة لديهـــم قدروا الأطوال بقبض الاصبع أو بسطه لتقدير الحركات وقياسها ، كمـــا فى علم التجويد الذى بهر علماء الغرب بنظامه ودقته ، برغم بدائية القياس وتقدير الحركات .

* * *

---

(١) الأصوات والتجويد . د . ابراهيم نجا .

معلوم أن الصوت ناتج عن ذبذبة لجسم ما ، فى وسط ما . وكلما زاد عدد الذبذبات كلما ارتفع الصوت واحتد ، والعكس بالعكس .

ونحن ننوع فى نطق الكلام على حسب الحاجة ارتفاعا وانخفاضا لغرض نريده : فاذا قلنا مثلا : (هذا قلمك) ، أمكننا أن ننوع فى نطقها فى معرض الاستفهام أو التقرير ، أو الاجابة ، أو السخرية ...

وهذا التنوع فى النطق يسمى (بالتنغيم) الذى يحدد المعنى ويدل على الغرض المطلوب ، ويضفى على اللغة كمالها ، حين النطـــق بها مـــع ملاحظة التنغيم .

وهناك لغات لا يراعى فيها التنغيم ، لأن قواعد التنغيم فيها لم تحظ بالدراسة والضبط . ومع ذلك يحار السامع فى فهم بعض عباراتها : أتقرير هى ؟ أم استفهام ... مما يشعر بالحاجة الى وضـــع ضوابط للتنغيم .

ومن اللغات ما يخضع للتنغيم تحت قواعد صارمة ، مثل اللغة الصينية التى تعتمد على التنغيم فى تحديد معانى مفرداتها ، مثل كلمة (فان) فهى تفيد فى اللغة الصينية ستة معان لا رابط بينها ، وهى : (نـــوم . يحـــرق . شجاع . واجب . يقسم . مسحوق) ، والنغمة عند النطق هى التى تحدد كل معنى من هذه المعانى (١) .

ولو أخذنا نصا ممتازا من الشعر أو النثر ، ثم طبقنا عليه ضوابط التنغيم عند نطقه ، وفى أداء مجيد للالقاء ، لأحسست بروعة الأداء وجمال المعنى .

وحين يلقى المتكلم القول على عواهنه بدون مراعاة للتنغيم ، أو يتعلم لغة اجنبية دون ان يعرف قدر التنغيم الواجب حيالها .. يأتى القول غير جميل ، وقد يشعر بنفرة أو يحوج الى مراجعة لتبيان المراد .

وقريب من الكلام الكتابة : فكلما كان المكتوب مرقما ، وبه من الفواصل والنقط وعلامات التعجب والاســـتفهام ... كلما شعر القارىء براحـــة فى القراءة وسهولة فى الفهم ، وسرعة فى الانجاز .

---

(١) أضواء . د . خرما ، ص ٢٦٤

وهناك محاولة ذكية للدكتور تمام حسان ، فى كتابه : (مناهج البحث فى اللغة) لوضع ضوابط التنغيم فى العربية ، حبذا لو وجدت من يتمها ويوضح معالمها ، اذ هى بعض الخصائص الصوتية المهمة ، ومثلها : (النبر (Strees) وليس فى الأبجديات ما يدل عليها ، ويكشف عنها ، مع ان العرب القدامى اسهموا بقسط وافر فى دراسة الصوتيات .

* * *

النبر (STREES)

النبر : هو الوضوح السمعى لمقطع من مقاطع الكلمة اكثر من غيره . ويتحقق النبر بالنشاط الفجائى الذى يعترى اعضاء النطق ، حين التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة ، فيؤدى ذلك النشاط الى زيادة فى مدة المقطع ، او حدته .

فيسمى نبر مدة اذا ادى الى زيادة طول المقطع المنبور بالنسبة لما يجاوره من المقاطع .

ويدعى نبر حدة اذا ادى الى زيادة شدة المقطع المنبور بالنسبة لما يجاوره من المقاطع .

ونشاط اعضاء النطق يتحقق فى أن الحجاب الحاجز ينشط كثيرا حين النبر . كما تقوى حركات الوترين الصوتيين ، ويقترب أحدهما من الآخر ، ويحجز الذبذبات خلفهما ، ويؤدى ذلك الى زيادة حدة الصت المنطوق ، وذلك فى حالة الصوت المجهور (Voiced) .

أما مع الأصوات المهموسة (Voiceless) ، فيبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما ، اكثر من ابتعادهما فى حالة الصوت غير المنبور ، فيتسرب مقدار اكبر من الهواء ، يجعل الاحتكاك او الانفجار اقوى واوضح فى السمع .

كما يلاحظ نشاط اللسان والشفتين فى المقطع المنبور .

ومن اللغات ما يخضع نبره لقواعد صارمة لا يحيد عنها ، كالعربية مثلا ، وكالفرنسية التى تنبر أواخر الكلمات فيها دائما . بخلاف الانجليزية التى تحفظ موقع النبر لكل كلمة على حدة ، فان نبرت أولها دلت على شىء ، وان نبرت آخرها دلت على شىء آخر .

وللنبرة أثره ـ فى اللغات التى تلتزم به وتقبله ـ فى تحديد معنى الكلمة .

والعربية تخضع لقواعد صارمة فى النبر مع أنه لا يغير من معنى الكلمة فيها .

ويتمثل النبر فيها فى قراءة المجيدين من القراء للقرآن الكريم ، والعارفين بقواعد التجويد معرفة وافية . وذلك كنبر المقطع الأخير ، من كلمة « قدير » وعلم التجويد هو الذى دلنا على مواقع النبر فى العربية .

ومثل نبر الكلمات الآحادية المقطع ، مثل : كم ، قم ، لا . أو مثل نبر المقطع الثانى فى مثل : قام ، بها ، لكم ...

كما تنبر فيها الكلمة والجملة ، عند ارادة ذلك فى العربية (١) .

* * *

المورفيم (MORPHEME)

ذكرنا أن الكلام ، فكرة ، تحت مؤثر ، واختيار معان ، واطلاق أصوات فى قوالب لغوية متعارف عليها ، ويربط هذه الوحدات الصوتية روابط تفرضها قواعد اللغة وتلك الوحدات الرابطة بين وحدات المعانى ، هى التى تسمى « بالمورفيمات » .

ويختار المتكلم لأداء رسالته أصغر وحدات للصوت ، وهى ما يسميها اللغويون : (بالفونيمات) : الصوت اللغوى البسيط مأخوذة من (Phone) بمعنى الصوت المفرد البسيط فى علم اللغة ، (يؤدى الصوت اللغوى البسيط) ويركب من كل مجموعة منها الشكل المناسب للتعبير عن (المورفيمات) التى أصبحت متوفرة لديه .

ويمكن تعريف (المورفيم) بشكل عام بأنه : أصغر وحدة لغوية ذات معنى : فالمفردات المجردة ، و « أل » للتعريف ، وكل من التغييرات الصرفية التى تطرأ على المفردات : (مورفيمات) (٢) .

ففى كل عبارة لغوية ، مثل (كتب على درسه بالقلم) أربعة عناصر ، هى :

١ ـ الماهيات ، كالمعنى المأخوذ من قولنا : كتب على درسه بالقلم ، وهى هنا : الكتابة ، وعلى ، والدرس ، والقلم .

---

(١) راجع : التجويد والأصوات (النبر) د . ابراهيم نجا

(٢) أضواء . خرما ، ص ٨٢ ، والوجيز للأنطاكى

٢ — والألفاظ التى تدل على هذه الماهيات ، ويسمى كل منهـا (سـيمنتيم Semantem) او دوال الماهية (١) ، وهى هنا : عـلى ، درس ، كتب ، قلم .

٣ — والمعانى التى تربط بين الماهيات ، وتدعى : الفصائل ، او المقولات ، او الأبواب النحوية . وهى هنا : حدوث الكتابة فى الماضـى ، وصدورها عن معرف وكون الدرس مجهولا ، وأداة الكتابة : القلم .

٤ — والألفاظ التى تدل على المعانى الرابطة بين الماهيات ، وهى ما تسمى : (بالمروفيمات) ، وهى هنا : المفردات المجردة ، والضمة القصيرة على الفاعل و (ال) التعريف ، والضمير فى الدرس والباء فى القلم وللمورفيم انواع ، أهمها :

المورفيم الصوتى ، كالضمة او الحركة عموما ، وحروف العلة ، والتنوين ، ومنـه مورفيم المقطع الواحد ، مثل : ما .

والمورفيم التحريفى ، او التحويرى : اى ما يحدث التغيير فيه بدون زيادة شىء ، وانما بتغير مكان الصوت ، مثل حمار وجمعه على حمير ، أو استبدال الصوت بآخر مثل (Feet — Foot) فى الانجليزية لقـدم واقدام ، او يقوم على اطالة صوت مثل : عدل عادل ، وصدق وصدق بالتشديد ، أو تقصير الصوت ، مثل : حاذر وحـذر .

وهناك مروفيم ترتيبى : بمعنى أن تقدم مالابد من تقديمه ليدل على المعنى ، فاذا عكست تبدل المعنى . واللغة العربية لم تعرف ذلك المورفيم الترتيبى الا نادرا ، لأن الحركات الاعرابية تعصم من الخطأ عند تبـدل الكلمات اللهم الا اذا خيف اللبس ، فتلزم الكلمة مكانها ، كما فى : ضرب موسى عيسى وكان الفاعل هو موسى . بخلاف بعض اللغات الأجنبية ، فلو قدمت الفعل مثلا — فى الانجليزية ، كانت الجملة استفهاما .

وقد عرف العرب (المورفيم) ، ودرسوه ، ومن يراجع كتاب (المغنى) يجد الدقة والاحاطة والقطع والافتراض ، ، لكن بقيت للموضوع جوانب عديدة تستدعى الدرس .

تلك لمحة عن التركيب البنيوى للكلام ، و (المورفيم) احد عناصره .

* * *

---

(١) اللغة لفندريس ص ١٠٥

الفونـــيم (PHONEME)

علماء اللغة يطلقون (الفونيم) على الأصوات اللغوية ، المفردة المميزة . فهم يعنون (بالفونيمات) مجموعة الوحدات الصوتية التى تشكل النظام الصوتى للغة .

وهذه الأصوات المفردة المميزة ، هى ما يقصد من حروف الأبجدية أن تدل عليها ، مع ملاحظة أنها ـــ فى الواقع ـــ أكثر عددا من تلك الحروف كما انه لا معنى لأى منها ـــ الحروف ـــ بحد ذاتها ، اذ لو كانت كل منها تدل على معنى مورفيم معين ، لاحتجنا الى استعمال عدد من الأصوات المفردة بعدد (المورفيمات) . أو المفردات التى نحتاجها فى حياتنا ، وهى تعد بالآلاف اذا حصرنا كلامنا بلغة الحديث العادية فقط ، وهذا أمر يكاد يكون متعذرا ، ويجعل من اللغة نظاما . يبلغ تعقيده درجة تقف حائلا دون اتقانه (١) فتحايلت اللغات البشرية على هذه الصعوبة باختيار عدد محدود ، من تلك الأصوات المفردة المتميزة ، الا انها تركت لأهل اللغة حرية تركيب تلك الأصوات على شكل مفردات متميزة تعد بمئات الألوف فى كل لغة .

و (الفونيم) أو الوحدة الصوتية للغة ـــ كما ذكرنا ـــ تتمثل عادة بحروف الهجاء ، ولكنها ـــ عددا ـــ تربو على حروف الهجاء . ونمثل لذلك بفونيم : « ث » فى اللغة الأنجليزية ، فانه عنصر من عناصر اللغة ، كما فى (Thin) ونكن هذا « الفونيم » لا رمز له (أى لا حرف له) بل يرمزون اليه بحرفى (Th) (٢) كما أن علماء (الفونتيك) يقرران للفونيم الواحد اكثر من لفظ واحد : قد يكون له ثلاثة الفاظ أو أربعة : فان فونيم (أ) فى كلمة (Speak) هـــو غيره فى اللفـــظ فى كلمـــة (Park) . وقل مثل هذا فى فونيم(T) ،فانـــه فى (Sting) غيره فى (Teem) ، وأيضا الفونيم (A) فى (Father) وفى (Fat) وفى (Female) مختلف .

● وقد تدم كتاب : (فى علم اللغة العام) عن (نظرية الفونيم)دراسة

---

(١) أضواء . د . خرما ، ص ٨٢

(٢) نظريات فى اللغة ، لأنيس فريحة ص ٨ ، ٩

قيمة ، عالجت هذا الموضوع المتشعب الغامض بدقة ، نوجزها فى هذا المقام :

فالفونيم ، يقصد به (الوحدة الصوتية) على مستوى التشكيل أو التنظيم الادائى ، وقد تقوم هذه الوحدة على صوت واحد (Phone) ، وقد يدخل تحتها مجموعة من الأصوات أو الأعضاء ، التى يطلق عليها أيضا (All Phone) ومعناه : صوت آخر ، اشارة الى وجود هذا الصوت الآخر الى جانب غيره داخل الفونيم .

فالفونيم — اذن — مصطلح (فونولوجى) ، تدور حوله بحوث كثيرة وربما كان — أيضا — من أعقد ما واجه العلماء من مصطلحات ، عندما أرادوا تحديد مفهومه (كما يقول د . عبد الصبور شاهين) ، لاختلافه الأساس الذى تقوم عليه هذه الوحدة الصوتية : أهو اساس عضوى ؟ أم نطقى ؟ أم سمعى ؟ أم وظيفى ؟ أم نفسى ؟ أم أنه خليط من هذه أو تلك ؟ أو منها جميعا ؟

كل ذلك قال به العلماء ، حين اختلفوا فيما بينهم ، ودفع اختلافهم علماء آخرين الى انكار فكرة (الفونيم) ، بل وانكار أن يكون صحيحا القول بوجود مستوى للدراسة (الفونولوجية) الى جانب المستوى (الفوناتيكى)(١) .

أما انكار (الفونيم) كلية ، فالغاء سريع فج للمسألة برمتها لا نوافق عليه وأما اختلافهم فى التحديد للمفهوم فأمر شائع فى الأمور العلمية .

وينقل الكاتب ما يشير الى هذا الاختلاف ، عند تحديد المصطلح من معجم اللغة الفرنسية (لروبير Robert) ، فنجده مستخدما فى (علم الأصوات التقليدى) بمعنى أنه : « عنصر صوتى فى اللغة المنطوقة ، يقوم على أساس عضوى (هو تكوينه بواسطة أعضاء النطق) ، وعلى أساس سمعى . ويصنف علم الأصوات (الفونيمات) الى حركات وصوامت ، وأنصاف حركات ، أو أنصاف صوامت » .

أما فى علم الأصوات التشكيلى (الفونولوجيا) ، فان هذا العنصر نفسه معتبر وحدة متميزة للتعبير الصوتى (٢) .

---

(١) فى علم اللغة العام ص ١١٥

(٢) المصدر السابق ، نقلا عن معجم اللغة الفرنسية .

والعملية اللغوية بطبيعتها متشابكة ، ومتداخلة ، وكل عنصر من عناصرها يتداخل مع غيره ، لتعدد المواقف والاطراف فيها .

ويطوف بنا الكاتب على علماء اللغة ، رغبة فى تحديد المصطلح ، ورأيهم فيه فيحكى عن (دوسوسور) : أنه عالج مشكلة (الفونيم) ، بالتفرقة بين جانبين من جوانب النشاط ، يبدوان اثناء الكلام ، وهما :

الجانب العضوى ، والجانب السمعى (الاكوستيكى) . ويرى ربطها ببعضها منهج دراسى صحيح ، لأن التأثير الواقع على الأذن هو الأساس الطبيعى لكل نظرية .. هذا العنصر السمعى يوجد بصورة لا شعورية عندما نبدأ فى النظر الى الوحدات الفونولوجية : ذلك اننا بواسطة الأذن نعرف ما يكون صوت (B) أو (T) مثلا . ولو اننا استطعنا ان نسجل (فيلما سينمائيا) لجميع حركات الفم والحلق ، فى اثناء نطق سلسلة من الأصوات ، فربما كان من المستحيل ان نكشف عن الانقسامات فى هذا التتابع من الحركات المنطوقة ، فلا نعرف متى يبدأ صوت معين ، ولا أين ينهى (١)

فالاعتماد على التأثير السمعى يمكننا من معرفة الوحدات الصوتية ، والتميز بين بعضها وبعض : « ذلك أننا فى سلسلة الكلام المسموع يمكننا أن ندرك مباشرة : ان كان صوت معين مازال ممثلا لصفاته أم لا . فما دام لدينا احساس ببعض التوافق ، فان هذا الصوت واحد » .

ويضرب الكاتب صوتا من العربية يوضح كلا « دوسوسور » : فالكلمة : (شعر) مكونة — من حيث الكتابة — من ثلاثة رموز ، ولكنها — من حيث النطق — ستة اصوات : أولها (الشين) ، وهو يتميز باحتكاك فى المنطقة الأمامية من الفم ، فما دام هذا الاحتكاك مستمرا ، فان صوت الشين يظل فى حالة تولد سمعى ، حتى اذا ما انتهى الاحتكاك ، فاننا نحكم بأن الشين قد انتهت ، ليبدأ من بعدها اصدار صوت الفتحة . وهكذا فى الصوت الثالث (العين) ، وهو عبارة عن احتكاك فى منطقة الحلق مع تذبذب فى الأوتار الصوتية ، يليه صوت الفتحة ثم الصوت الخامس (الراء) ، ثم الفتحة .

كما يذكر « دوسوسور » : أن الأصوات المتتابعة مقسمة بالزمن ،

---

(١) المصدر السابق ص ١١٧

ولكنه ليس زمنا موسيقيا محدد الكمية ، متساوى الوحدات ، بل هو زمن توافقى متميز بوحدة التأثير : « فتحديد الأصوات فى السلسلة المنطوقة لابد — اذن — أن يعتمد على التأثير السمعى ، ولكن وصفها لابد ان يعتمد على الحدث النطقى ، لأن الوحدات السمعية فى سلسلتها الخاصة غير قابلة للتحليل ، فيجب أن تلجأ الى سلسلة حركات التصويت — وسنلاحظ — حينئذ — أن الصوت الواحد يقابلة حدث واحد خاص به :

فصوت (B) زمن سمعى = صوت (B) زمن نطقى .

والوحدات الأولى التى نحصل عليها عند تقسيم السلسلة المنطوقة سوف تكون مركبة من (B ، و B) وهى التى نطلق عليها : (فونيم Phoneme)

واخيرا يصل « دوسوسور » الى تعريف « الفونيم » على انه : « مجموع التأثيرات السمعية ، والحركات النطقية ، للوحدات المسموعة ، والوحدات المنطوقة ، كل منهما بشرط الآخر » (١) .

فهو عنده مركب من اعتبار الجانب السمعى والعضوى ، وكل منهما شرط حدوث الآخر ، ولكل وحدة صوتية (فونيم) زمن تستغرقه ، لا يمكن تصورها بدونه ، فاذا نطقنا مثلا : (TA) فهو مجموع زمنين متواليين ، أو هو : امتداد زمنى معين (T) وامتداد آخر هو (A).

وهذه اسس موضوعية يمكن لمحها فى السلسلة الكلامية المنطوقة .

● **الفونيم** عند نيقولاس سيراجيفيتش تروبتسكوى (N.S. Trivbetzko) (١٨٩٠ — ١٩٣٨)

وضع (تروبتسكوى) للفونيم تعريفا مختصرا ، هو : « أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس » .

وهذا التعريف يوافق تعريف (بلومفيلد Bloomfield) للفونيم بأنه أصغر وحدة متميزة « . وتعريف (بهلر) للفونين ، بأنه : (علامة صوتية فى جسد الكلمة » .

واساس التعريف عند (تروبتسكوى) أن كل لغة تفترض وجود متغايرات فونولوجية متمايزة ، و (الفونيم) مصطلح يطلق على هذه

---

(١) فى علم اللغة العام ص ١١٨ ، ١١٩ .

المتغايرات التى لا تقبل الانقسام الى وحدات فونولوجية متميزة ، اكثر صغرا » .

وهو متفق مع (دوسوسور) على تحديد الجانب العضوى والسمعى فى وصف الفونيم .

وقدم لتعريفه : بأن مجموعها غير قابلة للتجزئة او التحليل الى وحدات فونولوجية أصغر من هذه الوحدة .

فليست الفونيمات كالقطع من الأحجار ، تتكون منها الكلمات المختلفة. وانما الكلمة عنده كشبح ، يحتوى على شىء اكبر من مجموع حروفها أو فونيماتها ، وهو الوحدة التى تضم تتابع هذا التجمع ، وتميز الكلمة وتمنحها فرديتها ، مع أن هذه الوحدة ليست مستقرة فى جسمها .

ويمكن تحليل جسد الكلمة الى فونيمات ، كما يمكن تحليل اى لحن مكون من مجموعة نغمات السلم الموسيقى الى « النوت » التى يتألف منها السلم ، مع أن اللحن يحتوى زيادة على (النوت) شيئا يمنحه شبحه الموسيقى الخاص .

وضرب (تروبتسكوى) مثلا بفونيم (الباء) ، ووصف العمليات التى تتم عضويا ، حتى يمكن نطقها ، والأثر السمعى المحدد ، والقدر الزمنى . وكل هذا يعتبر وحدة (فونولجية) واحدة ، غير قابلة للتحليل الزمنى ، أو التفرقة والتجزئة .

ووظيفة (الفونيم) : تمييز كلمة عن أخرى اذن .

وهى على هذا النحو توشك أن تجعل من الفونيم وحدة تجريدية ، تتحقق ببعض خصائصها فى الصورة الصوتية المختلفة ، حين قال : « ان الأصوات المحسوسة التى تبرز فى اللغة ليست سوى رموزماديةللفونيمات . . وليست هذه الأصوات هى الفونيمات فى ذاتها » (١) .

والتمييز والتنظيم الذى جعله « تروبتسكوى » للكلمة من الفونيم يمكن تطبيقه على اللغة العربية ، كما فى هذه الأمثلة :

---

(١) فى علم اللغة العام ص ١٢١ — ١٢٧ بتصرف .

اذا حل حرف محل آخر ، دون تغيير فى المعنى ، كالسين والصاد (والصاد أصلها سين) فى كلمة ، مثل (مسيطر) ، فالصوتان صورتان لفونيم واحد .

وان ترتب عليه اختلاف معنى ، مثل (سار ، صار) فهما صوتان لفونيمين مختلفين .

واذا تقارب الصوتان من نفس اللغة فى الناحية السمعية أو النطقية ، ولا يبرزان مطلقا فى نفس الاطار الصوتى ، فانهما صورتان تركيبيتان لنفس الفونيم ويطلق عليهما الدكتور تمام حسان مصطلح التخارج بين أعضاء الفونيم مثل (النون) فهى نونات مختلفة التخارج من حيث الموقع :

فهى : أسنانية ان سكنت قبل صوت الثاء ولهوية ان سكنت قبل القاف وغير ذلك اذا سكنت قبل الباء ... الخ . وهذا خاص بلغة معينة ، فلا يمكن أن ينطبق على لغة أخرى ، كما نقل عن (دانيال جونز) قوله : « ان الفونيم فى لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة فى خصائصها ، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها فى نفس البيئة الصوتية ، التى يستعمل فيها الآخر أبدا (١) .

● وبعضهم يعتبر (الفونيم) فكرة تقوم فى الذهن ، على اساس عقلى تجريدى والمتكلم يستحضرها فى عقله ، ويحاول نطقها ، بالسليقة والتدريب:

يقول (بوندوان Bonduin) عن الفونيم : « انه المعادل النفسى للصوت اللغوى » .

ويقول (فان ويك Van Wyk) : « فونيمات لغة ما تشكل طائفة من العناصر اللغوية التى توجه ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية » .

ويقول أيضا : « ان الفونيمات هى أصغر الوحدات التى يشعر الوعى اللغوى بانها غير قابلة للانقسام » . وهو بهذا يتفق مع (تروبتسكوى) .

ويرى ادوارد سابير : « انها أصوات مثالية ، يكون بها احساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعة اكثر تحققا فى نظر المتكلم الفطرى ، من الأصوات الموضوعة نفسها » .. ويؤيد بأن

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ، د . حسان ص ١٢٨ — ١٣١ بتصرف .

« السيكولوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة فى نطاق أبسط ضـــامت وحركة » (١) .

ويقول (ماريو باى) عن الفونيمات : « انها الأصوات ، أو المجموعات الصوتية المتقاربة ، التى يدرك علاقتها شعور الجماعة التى تتكلم لغـــة معينة ، والاختيار الموضوعى للفونيمات هو (المغايرة) ، أو الاختلاف فى المعنى ، الذى يظهر أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر ، مع بقـــاء سائر حروف الكلمة كما هى » ويقول أيضا : « ان وظيفة هذا العلم (الفونيمات) هو وصف اصوات لغة معينة ، وتصنيفها على اساس من احساس المتكلمين باللغـــة » .

فالتفسير لكل ما سبق يعطى تفسيرا نفسيا وعقليا ــ شعور الجماعة واحساسهم ــ بجانب ما اعطاه تفسير « تروبتسكوى » .

و « تروبتسكوى » يرفض فكرة التفسير النفسى والذهنى ، وينقضها بقوله : « ان العلاقة بين الصوت والفونيم ذات صبغة لغوية ، يتدخل فيها اى عامل نفسى آخر ، ونحن نستدل على خصائص الصوت الوظيفيـــة بخصائص الفونيم ، لا العكس لأن الفونيم فكرة لغوية وليس فكرة نفسية ، وتعريفه لا يتحقق بواسطة المفاهيم النفسية .

والواقع أن التفسير النفسى والعقلى والذهنى ، يجب أن ينحى : فقد كانت اللغة قبل أن يكون شيء من ذلك . وان أصبحت حاملة الفكر والمعبرة عنه بعد أن ارتقى الانسان ــ ونحن بصدد تعريف عنصر لغوى »

● ويرى (دانيال جونز) : أن الفونيم مقصور على مجموعة أصوات متقاربة ، محكومة بسياق صوتى . يقول : « انه عائلة او مجموعة من اصوات اللغة المتقاربة سماعا ونطقا ، والتى لا تظهر مطلقا فى نفس الاطار الصوتى ».

فالأصوات المفردة ليست (فونيمات) عنده ما دامت تنطق بصـــورة واحدة دائما ويربط (الفونيم) بمشكلة الكتابة الصوتية .

ويرى الدكتور شاهين : أن نقطة ضعف اعترت تصوره هذا لقصره الفونيم على مجموعة الأصوات المتقاربة ، والمحكومة بالسياق الصوتى .

---

(١) أسس علم اللغة . د السعران ، ص ٤٨ ــ ٥٠

وقد لجأ (جونز) الى نظرية الأصوات المجردة ، وفيها يعتمد على السمات المشتركة التى يسفر عنهـا اداء الأصوات عدة مرات ـ رغـم الاختلاف فى كل مرة ـ وبذلك تنشأ الفونيمات على أساس من التجريـد للعائلة الصوتية ، وبذلك يقع (جونز) فى خطأ هو أنه يعرف الفونيـم بعلاقاته بالصور الصوتية . وتلك هى الدائرة المفزعة التى أشار اليهـا « تروبنسكى » من قبل ، حين ارتضى عكسها ، الذى يعرف الصورة الصوتية بعلاقتها بالفونيم .

● ويتصور « فريمان توادیل » Freeman Twaddill الفونيم ، بأنه يدل على النسبية والتغاير ، ويمكن فهم فكرته بتلخيص نظريته ، على النحو التالى (١) :

« ان التعبير (اى الحدث الكلامى المحسوس) هو ظاهرة مادية ، (اى : صوت) مرتبط بمدلول محدد ، والتركيب الصوتى الذى يتكرر فى تعبيرات مختلفة ، وله دائما نفس المعنى .. يسمى : صـيغة (Forme) واى صيغتين يختلف مدلولهما ـ من حيث المبدأ ـ مختلفتان أيضا من الناحية الصوتية (باستثناء الجناس النادر نسبيا فى جميع اللغات) .

ودرجة التنوع الصوتى بين هاتين الصيغتين المتميزتين يمكن أن تختلف . والحد الأدنى من الاختلاف الصوتى بين صيغتين غير متماثلتين يتطابق مع اجزاء التركيب الصوتى المدروس ، ومن مجموعة الصيغ التى يتميز بعضها عن بعض فى الحـد الأدنى تتكـون المجـموعة المصنفة (Class) ، هـذه المجموعة تتميز بالتركيب الصوتى المشترك بين مجموعة أعضائها . واذا كان الحد الأدنى من الاختلاف ينصب تأثيره فى جميع أعضاء المجموعة على نفس الجزء (فى بدء الكلمة او فى نهايتها مثلا) فان معنى ذلك أن هذه المجموعة منظمة .

(وضرب مثلا لتوضيح ذلك بمجموعة المانية ، قابلها الدكتور عبدالصبور : بمجموعة عربية ، لتقريب المفهوم موضوع التمثيل ، على النحو التالى) :

المجموعة الألمانية :

Lahm = كسيح ـ Kam = جاء ـ Rahim = قشدة

Nahm = أخذ

---

١ ـ فى علم اللغة العام ، ص ١٢٨ ـ ١٣٨ بتصرف

والمجموعة العربية : حام ، دام ، رام ، سام ، شام ، صام ، عام

فالعلاقات بين اعضاء مجموعة كهذه هى الحد الأدنى من التعارضات (الفونولوجية) ويطلق (فريمان نواديل) على هذه التعارضات مصطلح : (ميكروفونيم Microphoneme) او الفونيم المصغر .

فالفونيمات المصغرة فى المجموعة الالمانية هى الأصوات (N.L.K.R. وفى المجموعة العربية هى (ح . د ، ر ، س ، ش ، ص ، ع) . وهى جميعا تتأثر بوجود (AM) فى المجموعة الالمانية ، على حين يتنوع تأثير الفونيمات المصغرة فى (ام) فى المجموعة العربية .

والمقابل الصوتى للفونيم المصغر يحتوى كثيرا على السمات النطقية ، فلدينا مجموعتان شكليتان منسقتان على هذا النحو ، اذا ما كانت العلاقات بين (فونيماتهما) المصغرة متماثلة ، كما فى المجموعتين الانجليزيتين :

Pill — Till — Kill — Hill

Nap — Gnat — Knack — Nab

فهما متقابلتان : لأنه حتى ولو لم تكن الطبيعة الصوتية لفونيماتهما المصغرة من نفس النوع فى الحالتين ، لأن (P.T.K. تنفسية فى البداية ، وغير نفسية فى النهاية) . ومع ذلك فان العلاقات بين هذه الفونيمات المصغرة التى تحتل نفس المكان ، فى مختلف المجموعات الشكلية المنسوقة على هذا النحو ، تكون (ماكروفونيم Macrophoneme) أوفونيما مكبرا .

وواضح من تقابل المجموعتين الفرق بين الفونيم المصغر والمكبر : ان المصغر قليلا ما يتعرض للتغيرات الصوتية مع اختلاف المواقع . على حين أن المكبر يتميز بقدر كبير من قابلية التغير فى المواقع المختلفة .

وبذلك التقى (تواديل) مع (تروبتسكى) فى اعتماد فكرة التعارض المرتبطة بالجانب الوظيفى للفونيم . وانه الغى الاحكام (السيكولوجية) المسبقة التى تكونت حول الفونيم ..

وأخيرا : فان الصورة التى نميل الى الأخذ بها — هى ما ارتآها الدكتور — عبد الصبور شاهين (١) . وهى ان فلزة (الفونيم) وسيلة الى

---

(١) فى علم اللغة العام ص ١٣٨ .

تصنيف الأصوات اللغوية فى مستواها السياقى . وهى أيضا وسيلة الى تحليل الصيغ اللغوية على أساس من الأصوات ووظائفها الدلالية . وهو تحليل لا ينبغى أن يتجاهل اصطلاح أصحاب اللسان ، الى جانب اعتماده على العناصر العضوية والنطقية فى تحديد الفونيم .

والى هنا ننهى هذا القدر من الحديث عن جانب الأصوات فى اللغة ، على أمل أن تكون فكرتها قد اتضحت ، حتى يحين الحديث عنها باسهاب فى موضعها باذن الله .

وقد اعتمدنا كثيرا على كتاب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين فى دراسة الفونيمات ، لأنه تناولها بالتفصيل لأول مرة على نحو واف شاف واستقصى أهم الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع (الفونولوجى) ، مع محاولة التطبيق على العربية .

* * *

الفصل السابع

حياة اللغة

عظمت العناية فى العصر الحديث بدراسة (حياة اللغة) ، وصراعها مع غيرها ، وانشعابها الى لهجات فى القديم والحديث ، واعتبر البحث فى ذلك من أهم فروع علم اللغة . وخاصة فى اللهجات واسباب تفرقها وتعوتها على غيرها ويطلق علماء الغرب على هذا الفرع (الدياليكتولوجى Dialectology)

فاللغة تشبه شجرة تتدلى فروعها الى أسفل ، فتلامس التربة ، وترسل فى الأرض جذورا تصبح أشجارا فتية فيما بعد .

وقد تموت الشجرة الأم ، ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة .

واحيانا نقيم حول اللغة سياجا من أحكام شديدة ، وقوانين ثابتة ، وقد نقيم حولها هالة من التقديس ... فنطيل بذلك فى عمر اللغة وحياتها الى حين ولكن لابد من التغيير الجزئى والكلى فيها ، حتى تمسى مغايرة لما كانت عليه من قبل ، وذلك ناموس تخضع له اللغات .

وقد أشار علماؤنا العرب الى اللهجات العربية اشارات عابرة ، ولم يعنوا العناية الكافية الا بلهجة قريش ، باعتبارها اللهجة السائدة والمتفوقة على غيرها من اللهجات ، والتى نزل بها القرآن الكريم ، وأصبحت لغة الدين والعبادة ، وشئون الحياة .

وذكر علماء النحو بعض اللهجات التى خالفت السنن العربى العام فى النطق والحديث ، ونسبوها أحيانا الى أصحابها ، واغفلوا ذلك أحيانا أخرى .

وحبذا لو اتجهت العناية اليوم الى بحث اللهجات العربية على أسس منهجية ، حتى تفيد الدراسات اللغوية العربية بتأصيل وتأثيل روافدها .

وسنذكر فى هذا الفصل شيئا عن :

ـ حياة وصراع اللغات ، وما يعتورها فى مسيرها دفعا وتعويقا وتأثرا وتأثيرا .

ـ وكيف يكون انتشار اللغة واتساع رقعتها مدعاة لتفرقها الى لهجات . تتقارب أو تتباعد ، وتفوق بعض اللهجات على بعضها حتى تصبح لغة ، كالقرشية ، والانجليزية ، ثم لا تلبث أن تعود الى الانشعاب فى لهجات من جديد (١) .

* * *

(١) لمزيد من البحث والفائدة فى هذا الصدد ، راجع :
ـ علم اللغة ، د . وافى ، ص ١٦٩ ـ ٢٤٨ ، واللهجات د . انيس ص ١٦ ـ ٢٥ ، واللهجات العربية د . نجا ، ص ٦ ـ ١٧ .

صراع اللغـــات :

يقال : ان اللغة كائن حى ، ومعنى هذا أنه :

يعترى اللغات ما يعترى الأحياء ، من : غنى ، وفقر ، ومن سعة وضيق ومن انتشار وانحسار ، ومن تجمع وتفرق ، ومن دعة واضطراب ، ومن عزة وذلة ، ومن حياة وموت .

فقد يتاح للغة ما أن تنتشر ، وتتسع رقعتها ، ويكثر عـــدد الناطقين بها ، مثل اللاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، ومثل اللغات الحية فى العصر الحديث .

وقد تنحصر اللغة فى رقعة ضيقة ، وتظل حبيسة هذه الرقعة الضيقة ، حتى يقدر لها أن تنطلق غازية منتشرة مسيطرة ، تنداح دائرتها ويتســع مداها .

أو على العكس من ذلك تقبع فى رقعتها المحدودة ، حتى تتلاشى وتصبح نسيا منسيا ، كاللغة (البسكية) التى كانت محصورة بين فرنسا واسبانيا ، ثم طمسها ما جاورها من لغات .

واللغة التى تتلاشى ، لاتملك فى طياتها عناصر الحياة والبقاء والنمـــو غالبا . وهى حينئذ لاتموت حتف انفها ، وانما تصرعها لغة اخرى ، لهـــا من عوامل البقاء والتنمية ، ما يمكنها من أن تغزوهـــا فى عقر دارهـــا ، وتنتصر عليها .

واسباب اتساع لغة ما ـــ اذن ـــ وانتشارها ، هو :

١ ـــ اما الغلبة فى الصراع ، والانتصار فى الحرب ، والمقهور مولع بتقليد الغالب ، وخاصة اذا كان للمنتصر حضـــارة وثقافة ورقى ، وليس للمنهزم شىء من ذلك :

فقد كانت اللاتينية قديما احدى لغـــات الفرع الايطالى من مجموعة (الهندو اوربية) ، محصورة فى منطقة ضيقة من ايطاليا . واصبحت بعد انتصارها فى الصراع لغة رسمية لكل من : ايطاليا ، والبرتغال ، واسبانيا ، والجول (فرنسا) ، والالب ، والبانيا .

وكانت اللغة العربية محصورة فى شبه الجزيرة العربية ، وحين اعزها

الله بالاسلام ، وحملته رحمة للعـالمين ، تغلبت على كثير من اخواتهـا الساميات ، وانتصرت على اللغة الكوشية ، والقبطية ، والبربرية ، وبعض مناطق الفارسية ، واصبحت لغة الملايين ، بعد ان كانت لغة لبضعة آلاف .

وكم اتسعت رقعة الناطقين بالانجليزية اليوم فى اماكن بعيدة وشاسعة ، كما هى فى : امريكا الشمالية ، وكندا ونيوزيلندا ، وجنوب افريقيـا ، واستراليا ... ويتكلم بها اكثر من ٣٠٠ مليون .

وكذلك البرتغالية التى نشرها الاستعمار فى جزر المحيط الهنـدى ، والبرازيل ومناطق من افريقيا ، حتى اصبح المتكلمون بها اكثر من مائة مليون .

٢ ــ وكذلك الهجرة القومية والمكثفة ، او الاستعمار الثقيل بقضه وقضيضه ، سبب رئيسى من اسباب انتشار اللغة ، وانبساط رقعتها ، وخاصة اذا كان المهاجرون او الغزاة اصحاب حضارة وثقافة ومنعة ، وكانوا كذلك كثرة كاثرة :

فحين اغار النورمانديون من الفرنسيين على انجلترا ، فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، لم تقهر لغتهم الانجليزية ، لأن عدد المغيرين لم يكن كثيرا .

ولكن حين نزح الانجليز السكسونيين ، من اواسط اوروبا ، الى انجلترا ، وكان عددهم كثيرا ، تغلبت لغتهم الانجليزية على (السلتية) لغة سـكان البلاد الأصليين ، مع ملاحظة ان المغيرين والمغار عليهم لم يكونوا اصحاب حضارة ، ولكن رجح النصر كثرة المغيرين . وملاحظة أن اللغتين المتصارعتان كانتا ايضا من مجموعة اللغات الآرية .

وتغلبت العربية حين حملت رسالة الاسلام وحضـارته فى فتوحاتها على كثير من الساميات ، وعلى القبطية فى مصر ، والبربرية فى شـمال المغرب العربى ، والفارسية فى بعض بلاد فارس ... واضحت لغة الدولة والدنيا والدين ، مع ان العرب كانوا قلة فى بلادهم ، وفى الفتوحات الاسلامية بالنسبة لأهل البلاد التى دخلت الاسلام ، الا ان الحضارة والثقافة الاسلامية رجحت الكفة للعربية .

على أن احتكاك العربية باللغات المغزوة والمجاورة جعلها تؤثر وتتأثر حسب قانون التجاور والصراع :

فتأثرت بالآرامية فى الفاظ الحضارة والصناعة والتفكير الفلسفى . كما تأثرت باليونانية فى مفردات مثل (اسطوانة ، ناموس ، اسفنج ، انجيل ، اسقف ...) وتأثرت بالفارسية فى الأدب : فى الأخيلة والتشبيه والتراكيب .

كما اثرت العربية كثيرا فى التركية .

غير ان أثر العربية فى الفارسية كان اكثر ، اذ ان معظم المفرداته الفارسية الحديثة — عربى الأصل ، وكذا فى اللغات الأردية ، والأفغانية ، والكردية والبخارية .. لأن هذه الأجناس استقبلتها بحفاوة وقداسة .

وكان تأثرها بالسريانية أوضح من تأثرها بالقبطية فى مصر والبربرية فى شمال افريقيا ، اذ لم تتأثر بهما العربية الا قليلا .. ومثلهما اللغة القوطية فى اسبانيا ، حين احتكت بها العربية ، فصرعتها فى زمن قصير .

وكما ذكرنا أن اللاتينية لغة الرومان ، سادت على لغات ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. حين غزتهم ، لأن اللاتينية كانت لغة حضارة وثقافة .

وتمطر اللغة الغالبة المغلوبة بسيل من الألفاظ ، فتوهن الكلمات متنها ، ثم تضمحل وتتلاشى بعد حين فى كل مظاهرها .

٣ — واحيانا تتعايش اللغتان معا ، ولا تستطيع احداهما التغلب على الأخرى ، ويرجع ذلك الى عراقة كليهما فى الثقافة والحضارة ، أو لقلة افراد المهاجرين أو الفاتحين .

فاللاتينية — مثلا — لم تتغلب على الاغريقية ، لعراقة الأخيرة فى الحضارة .

والتركية (لغة الامبراطورية العثمانية) فى ابان عظمتها وسطوتها ، لم تستطع التغلب على اى لغة فى البلاد التى خضعت للأمبراطورية ، اذ ليس للتركية حضارة سابقة ، فضلا عن أنهم لم يمتزجوا بأصحاب البلاد التى حكموها زمنا ليس بالقصير .

والانجليزية لم تقهر الهندية ، مع طول استعمار الانجليز للهند ، لأن الهند عريقة فى الحضارة ، ولعدم امتزاج المستعمر بأهل البلاد .

مع ملاحظة : ان تعايش اللغتين يجعلهما يتأثران ببعضهما ويقترضان الألفاظ ، وتسبغ كل لغة على ما اقترضته من الأخرى من حيويتها ما يميز

شخصيتها وذلك كما حدث بين الفارسية والعربية ، وتلك سنة اللغات حين الاحتكاك والتجاوز .

كذلك تتأثر اللغات بالاحتكاك فى الحروب ، أو التجارة ، أو المجـاورة : فالانجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والبرتغالية ـ مثلا ـ تتقارض المفردات وتأثرت كلها أيضا ببعضها بسبب الحروب التى قامت فى أوروبا .

والحروب الصليبية نقلت الى اللغات الأوروبية ، كثيرا من الألفاظ .وذكر بعض العلماء أن الأسبانية أخذت من العربية أكثر من أربعمائة لفظة فى شئون البحرية وحدها .

فضلا عن ان المعاملات التجارية ، قد اثرت كثيرا ، ونقلت أسماء الأشياء التجارية المتبادلة ، وما يلزمها

والعلاقات الثقافية لها أثرها الكبير فى التأثير والاقتراض ، كالفارسية واليونانية والأوربيات ، وأثرها فى العربية قديما وحديثا . وكلها تأثيرات سلمية .

***

اللغة واللهجـات :

اللهجة : عبارة عن قيود صوتية تلحظ عند الأداء . أو هى مجموعةصفات لغوية ، تنتمى الى بيئة لغوية خاصة .

وعلماء العرب الأقدمون لم يفرقوا فى الاستعمال بين : اللغة ، واللهجة ، واللحن . وانما استعملوا الكل بمعنى واحد : فقالوا : لغة طىء ، ولغة تميم ، ولغة أزدشنوءة ... ويريدون اللهجة .

وقال أعرابى فى صدد السؤال عن مسألة نحوية : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى .

وقد استعمل القرآن الكريم (اللسان) بمعنى اللغة كثيرا .

وتتميز اللهجة بصفات يمكن حصرها فى الأصوات ، وكيفية نطقها . ومتى كثرت الصفات الخاصة بعدت اللهجة عن أخواتها .

ويمكن أن تتجاور عدة لهجات فى البيئة اللغوية الواحدة ، ومتى تميزت وتحددت لصفات معينة أمكن تعتها باللهجة ، ويتم ذلك بعد مضى مدة ليست بالقصيرة .

وتفرع اللغة الى لهجات نتيجة لازمة لسعتها وانتشارها ، اذ لايمكن أن تحتفظ بوحدتها طويلا ، ومن ثم تنشعب الى لهجات ، وتكثر الصفات المميزة للهجة حتى تبعد اللهجة — أو اللهجات عن اللغة ، وقد تصبح لغة ولغات :

فاللاتينية — مثلا — كانت احدى لغات الفرع الايطالى ، من مجموعة اللغات الآرية ، وفى العصور الوسطى انشعبت اللاتينية الى لهجات ، ثم بمرور الوقت أصبحت لغات ، هى : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانية ، والبرتغالية ... ، بينما انزوت اللاتينية نفسها ، حينما اكتملت تلك اللهجات واستقلت . بل وأصبح لهذه اللغات لهجات : فلهجة باريس غير لهجة الفرنسية فيما عداها ويظهر الاختلاف بصورة أوضح فى المناطق الناطقة بالفرنسية . وكذلك الحال بالنسبة للانجليزية فى لندن وبقية أجزاء انجلترا ، والشعوب الناطقة بالانجليزية فى أنحاء المعمورة .

ومثل هذا حدث للأسبانية بعد انتشارها الكبير ، واتساع دائرتها .

وكذلك اللغة العربية التى كثرت وتشعبت لهجاتها ، لكن الفصحى احتفظت بخصائصها ، لأنها لغة القرآن الكريم والدين والأدب الراقى والدواوين .

وغالبا ما تصبح اللهجة الغالبة لغة الدواوين والعلم والأدب : فقد أصبحت لهجة باريس ، ولهجة لندن ، ولهجة مدريد ، والسكسونية فى المانيا ... لغات الآداب والتأليف بعد تفوقها على غيرها من اللهجات وانتشارها ، لغلبتها فى الصراع .

ولا يمكن فصل اللهجات المتجاورة عن بعضها فصلا تاما بحدود قاطعة ، لصعوبة ذلك ، وقد شبهها بعضهم بأمواج البحر التى تتتابع ولا يمكن عدها ولا حدها ، ولا الفصل بين بعضها فى تتابعها .

ومع تعدد اللهجات فى البيئة اللغوية الواحدة ، فان كل بقعة تصبغ لهجتها بلون خاص : كما يلاحظ فى البيئات الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، والحضارية ، والصحراوية ... كل على حدة لها لهجتها

الخاصة التى تميزها عن غيرها ، وتشيع فيها الفاظ تناسبها ، ولا تتداول فى غيرها .

وهذه اللهجات تبقى طويلا مادام افرادها منعزلين ومحافظين ، وتمتص ما ينقل اليها من لهجات اخرى بسبب زواج او تجارة ، او هجرة افراد قلائل ، وتذوب فى وسط هذه اللهجة التى انعزل وحافظ أهلها على السمت اللغوى للهجتهم .

ويحتفظ اصحاب هذه اللهجات بميزاتها ، حتى اذا عادوا الى بيئتهم الأصلية ، ظهرت من جديد ، وعلى سجية أهلها ، وان لوحظ بعض الانحراف الطفيف فى الأداء ، أو الصوتى لبعض المفردات نتيجة التأثر السابق ، وان حافظ المتكلم وتحفظ فى طريقة الأداء ، كالذى يهاجر من الصعيد الى القاهرة او الاسكندرية مثلا ، ثم يعود بعد مدة الى موطنه الأصلى .

وتتأثر اللهجات بالعوامل التى تؤثر فيها ، وتتدخل فى تشكيلها ، وهى كثيرة ، يمكن تلخيصها فى : العوامل السياسية ، وقيمتها التى تتمثل فى الرقى أو غيره . والعوامل الاجتماعية التى تحدد الأنماط السائدة فى المجتمع ، وترعى العادات والتقاليد والنظم وانماط الثقافة . وعوامل تاريخية وجغرافية ومناخية ، توضح ملامح البيئة ، وتحكى تاريخها ، وتظهر فروق الفصائل والأجناس الانسانية ، وما يميزون به عن غيرهم ، من فروق جسمية وعضوية وفروق فى أعضاء النطق ، وديناميكية العقل والذكاء ، والتجاوب النفسى والروحى ... وكل هذا بدوره سبب فى انشعاب اللغة أو اللهجة الى لهجات ولغات جديدة ، وان تراخى اثر بروزه ووضوح ملامحه على السطح زمنا ، لكن لابد منه بعد ان تتسع مسافة الخلف من جديد .

وقد تتزاحم اللهجات فى البلد الواحد ، وتتعايش فى سلام برغم اختلافها ، بسبب اختلاف طبقات الناس وفئاتهم : من موظفين وحكام وعمال وجنود وبحارة واصحاب حرف وصنائع . ومرجع ذلك الى اختلاف طرق التفكير ، والثقافة والمستوى المعيشى ، والبيئة الاجتماعية ، والعادات والتقاليد ، والأدوات التى تستخدم فى كل بيئة ، وما يلزم كل نتاج من المواد الخام ، وطرق الجلب والتصرف فيها .

وقد يشتد انحراف لهجة خاصة بجماعة او اصحاب حرفة ، فتغرب

فى هذا الانحراف حتى تصبح وقفا على أصحابها ، لا يفهمها غيرهم ، كلغة بعض المتصوفين ، والنحل الباطنة ، والرهبان ، وكلغة الوصفات الطبية البدائية ، وقد حكى الدكتور عبد الصبور نموذجا لها فى كتابه : « فى علم اللغة العام » كأنه طلسم سحرى ، أو رموز لحجر الفلاسفة واكسير الحياة ، كما روت كتب الخرافة فى دنيا السذج والبلهاء .

ونقل الدكتور على عبد الواحد فى كتابه ، طرفا مما جاء فى صحيفة المصرى فى ١٩٥٠/٢/٢٥ م عن لغة البحارة ، وما تمتاز به لهجتهم طبقا لمقتضيات حياتهم الاجتماعية وشئون البيئة ، جاء فيه : المريس — فى لغة البحارة — هو ريح الجنوب ، والقرية : هى خشبة الشراع الأكبر . والبومة : هى الخشبة التى يربط فيها القلع . وينصلح : أى يهلك . واللبش : هو الريح من الجنوب الشرقى . والقلفطة : هى رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ...

وقد استطاع رجال الشرطة أخيرا الى فك بعض رموز لهجة اللصوص وقطاع الطرق ، وطريدى العدالة .. وما يتعاورنه من الفاظ لا يفهمها غيرهم فى محيطهم ودائرتهم .

فتفرق اللهجات نتيجة لازمة لانتشار اللغة وكثرة المتكلمين بها ، وبخاصة اذا نأت بهم الديار ، نتيجة للعوامل السالفة . ومن هنا يظهر انه لا يمكن حمل الناس على لغة واحدة ، كما حاول بعضهم وأخفق ، لانها ستتفرق فى لهجات بعد حين طال او قصر ، ويبقى اختلاف الألسن كأختلاف الألوان آية من آيات المبدع العظيم : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم . ان فى ذلك لآيات للعالمين** »(الروم : ٢٢) .

* * *

الفصل الثامن

مع اللغة في تطورها

اللغة ككائن حى ، تتحرك وتموج وتضطرب ، وتحيا وتستخدم وتتغير وتموت ، كشأن الأحياء .

ولا يمكن أن تثبت اللغة ثبوت الدين فى دائرة الخلود ، بل لابد من تغيرها وتطورها .

ومعرفة حياة اللغة وتقلباتها ، وتأثرها وأثرها ، وتماسكها أو تلاشيها ... كانت من البحوث القيمة ، التى أولاها (علماء اللغة) عناية كبيرة ، فى مجالات :

● علم الاجتماع اللغوى (Sociology of Language) ، لبيان العلاقات التى تربط بين اللغة ومجتمعها ، وأثره فى مختلف المظاهر اللغوية ، من حيث تركيبه وحضارته وبيئته .

وكان التعاون بين علماء اللغات والاجتماع مفيد لكليهما :

اذ استفاد الأولون من دراسة الألفاظ ودلالتها — على نحو دقيق — فى واقع الاطار الحضارى والاجتماعى ، وتفسير التغير اللغوى تفسيرا كاملا فى ضوء الظروف السابقة .

واستفاد الآخرون : أن اللغة من أهم مظاهر السلوك الاجتماعى ، وسبب لانتماء الفرد لمجتمعه .

● كما عظمت العناية ببحوث (علم النفس اللغوى Linguistic psyology) لبيان العلاقة بين اللغة ، والحالة النفسية ، والتفكير والايحاء ، والتداعى ، والسلوك .

● وكذلك بحوث : علم الدلالة (السيمنتيك Semantique) ، وخاصة علمى : البنية : الاشتقاق والتصريف (المورفولوجيا) ، والتنظيم ، فى أقسام الكلام وأنواعها ، ووظائفها فى التركيب ، فى المسارين : التاريخى والمقارن .

● وكذلك علم الأساليب : (الستيليستيك Stylistique) ، الذى ينوع فنون القول باختلاف العصور عند الشعوب ، فى اطارى المقارنة والتاريخ ايضا .

أما الجانب التعليمى فى كل ما سلف فقد استقل بنفسه ، وأصبح علما مستقلا ، وكثير من علماء اللغة ، لا يعدونه من ابحاث علم اللغة اليوم .

وقد احتاجت اللغة فى دراسة جوانبها الى تكاتف وتعاون هؤلاء العلماء ، حتى يتم توضيحها والكشف عنها فى قطبيها : من ناحية الأصوات ، والمعانى ، اذ هما المظهران الرئيسيان لها :

من ناحية الشكل والصورة ، فى الأصوات وأجهزة النطق ، التى تحتاج لعلوم : الطبيعة ، والفيزيولوجيا ، والتشريح ، والانثروبولوجيا .

ومن ناحية المخبر ، وهى المعانى التى تؤدى اليها الأصوات ، ولما كانت المعانى يتم بها تنظيم علاقات التفاهم ، والتعبير عن الحاجات والمشاعر والأحاسيس احتاجت فى دراستها الى علوم : الاجتماع ، والنفس ، والتاريخ والبيئة الجغرافية .

* * *

اللغة فى مسارها التاريخى او الموروث :

التطور والتغير ناموس فى كل مجتمع ، والمجتمع بأسره وما يدور فيه عامل فى خلق هذا التطور . والمدلول الاجتماعى يسبق دائما المدلول اللغوى ، الذى يخلفه ليغطيه برمز لغوى . واللغة أهم ظاهرة لغوية فى المجتمع ، ، التى يتوارثها الأجيال تباعا . وكل تطور نفسى أو عقلى أو اجتماعى ، أو بيئى ، أو حضارى ... تبدو مظاهره فى اللغة ، فتلاحقه ، وتتشكل معه تطورا وتغييرا واثرا وتأثيرا . وبازدياد ملامح التغير والتطور تتسع مسافة الخلف ، حتى تتشعب اللغة الى لهجات ، وتصبح لغات — كما أسلفنا — وهكذا دواليك .

وقد شبه بعضهم اللغة بشجرة « تتدلى فروعها الى أسفل ، فتلامس التربة ، وترسل فى الارض جذورا تصبح اشجارا فتية فيما بعد . وقد تموت الشجرة الام ، ولكن من فروعها تنشأ اشجار جديدة .

واذا قلنا : ان اللغة تموت ، فانما نقصد بالموت التغيير الكلى الذى يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذرى فى الحياة ، وفى الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول أن لغة اليوم مغايرة للغة الأمس .

وقد نستطيع أن نطيل حياة لغة باقامة سياج حولها من أحكام شديدة وقوانين ثابتة . وقد نقيم حولها هالة من التقديس ، وقد نضفى على أدبها مسحة من القدسية ... وجميع هذه تطيل فى حياتها ، ولكن لا مفر من المحتوم : (الموت) ، وكل حى يموت ، واللغة حية فهى خاضعة لهذا الناموس .... » (١) .

ونقول : اذا جاز ذلك الموت على كل لغة ، فان العربية وهى وعاء مقدساتنا لن تموت — باذن الله — وان نالها التطور والتغيير .

واللغة تنبع من أصل ، وتجرى فى روافد الى مصب ، وتتشعب بها المجارى والروافد ، وكلما بعدت عن نقطة الانطلاق ازداد التغاير والتباين .

وهذا التطور قوى التيار ، يجرف أمامه ما يعترضه ، ويصبغه بصبغته ، مهما نشط اللغويون بكل امكاناتهم فى ايقاف زحفه ، فقد يطيل الأجل قليلا ، أو يوقف الزحف يسيرا .. ثم تمسى اللغة متقوقعة ، أو غريبة الوجه واللسان ، أو هامدة الحركة .

ويؤيد ذلك : أن العربية وأخواتها الساميات : العربية ، والبابلية ، والأشورية ، والفينيقية والسريانية ، والحبشية ، على ما بينها من اختلاف .. كلها من انشعبت وتحدرت من مجرى واحد .

وأن اللغات : الأرمنية ، والايرانية ، والروسية ، والألمانية ، والايرلندية ، واليونانية ، والسويدية ، والدنمركية ، واللاتينية ،

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٥٠

والانجليزية ... على ما بينها من تباين كبير فى الأصوات والنظـــام والأساليب ... تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد ، من الجرمانية الأم .

ولم يبق للاتينية الا رسمها ، حين استقلت عنها ــ الفرنســية ، والايطالية ، والرومانية ، والبرتغالية ، والأسبانية .

وكالعربية الفصحى التى ظلت لغة كتابة وحديث وتأليف وأدب ، بينما تجد ــ اليوم ــ لهجاتها فى البعد عنها فى عامية الأقطار العربية ، وتغذ السير فى هذا البعد ، الذى استشرى وخيفت عقباه ونتائجه ، وبات بحاجة الى تدارك وعلاج .

ومعلوم أن لكل لغة صفات أساسية مشتركة بين عدد من أصواتها ، يعرفه أبناء تلك اللغة الا ان لكل انسان صفاته المميزة فى النطق ، وطريقة تعبيره وأدائه (Idiolect) ، حتى ليمكن أن نميز صوته عن غيره ، ومن بعيد ، وعبر الأثير واللاسلكى . ويرجع هذا الاختلاف الى التكوين الفسيولوجى لكل واحد على حدة ، وبسبب تعوده والفه . كما يتلون حديثه بما ينم عن شخصيته ومهنته وطبقته فى الحياة . والفروق الفردية فى النطق لا تخفى الأصوات اللغوية للمجموعة ، والتى تحميها الصفات الأساسية التى يشترك الجميع فى معرفتها والسير عليها . وتحديد هذه الصـــفات الأساسية لأصوات لغة ما كان هو السبب الداعى لنشوء نظرية (الفونيم) فى الدراسات اللغوية ، وعنها تفرعت (الفونولوجيا) .

وهذه الفروق الفردية بين الأفراد فى نطق الأصوات : حتمية ، لا يمكن ايقابها ، لأنها جبرية ، وكل انسان وطبيعة تكوينه ، وما تلونه عوامل البيئة .

كما أنها قديمة : فقد وصف سيبويه ــ فى القرن الثانى الهجرى ــ الضاد التى سمعها بأنها : الضاد الضعيفة ، اى ليست هى الضاد التى ينطقها الأعرابى الأصيل (١) . وقد قلبت هذه الضاد الى ما يقرب من الدال ــ اليوم ــ فى بعض اللهجات ، والى ظاء فى لهجات أخرى ، كما يشاهد فى العرق .

● والتغيير يشمل المفردات فى معانيها ، كما يشمل التراكيب ، وكما شمل الحروف : فاذا تتبعنا لفظ (جمع) وبعض مشتقاته فى العربية ــ مثلا ــ لوجدناها تطورت حضاريا كما يلى :

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤٠٦/٢

القواميس القديمة عرفت (جمع) بمعنى الضم والجمع والاجتماع للناس والأشياء ، والأمر الجامع . وعرفت : الصلاة الجامعة . وصلاة الجماعة ، وما عرفت الجمعية ، حتى القرن الثانى الهجرى .

ولكننا لو راجعنا معجم (دوزى) فى عصر الحضارة ، وراجعنا ـ أيضا : (كشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوى) (١) لوجدنا تشعب الاصطلاحات وكثرة الاستعمالات :

فالجمع : حسابى عند الرياضيين ، وهو ضم الأصل والفرع لعلة مشتركة ، ليصح القياس عند الأصوليين . وعكس المفرد عند النحويين .

والجامعة اليوم : تيار سياسى ، واكاديمى ، وشعبى فى الجامعة الشعبية .

وأهل السنة والجماعة ، وجماعة المسلمين ، للصف الاسلامى الموحد .

والجمعية العمومية ، والتعاونية . والاجتماع للقاء ، واجتماع المنجمين ، والاجتماع عند علماء الاجتماع ، واجماع الفقهاء ، وعلماء الكلام ، والنحاة (٢) .

ويقول المقرى : انجمعت على القلوب ، والقواميس لم تعرف (انجمع) . وجاء عن الادريسى (مجمع) ، وعندنا اليوم المجمع السنوى ، والمجمع اللغوى ، ومجمع البحوث ، ونكنى عن الزوجة بالجماعة ...

وقد كان تتابع الاضافات معيبا فى التراكيب ، كقول الشاعر :

* حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى *

فأصبح مألوفا فى تراكيب جديدة مثل : احتمال قرب سقوط مطر الشتاء .

* * *

---

(١) علم اللغة العربية ـ د . محمود حجازى ص ٢٩٩ وما بعدها .
(٢) كشاف التهانوى ٣٣/١

الاحتكاك اللغوى فى مجال التغيير :

الانسان مدنى بطبعة ، والاتصال ضرورى بين الأمم ، وقد كثر نتيجة لتذليل سبل الاتصال والاحتكاك اللغوى عندئذ لابد منه ، والتأثر والتأثير اللغوى نتيجة هذا الاحتكاك ، ومصير التأثير التطور والتغيير لاشك فى ذلك .

وسنة اللغات فى الاحتكاك الأخذ والعطاء ، والأعلى كعبا من اللغات هى التى تقرض أكثر مما تقترض .

والبلد المتفوق فى ناحية من نواحى الحياة أو الثقافة يعطى هذا الجانب ومع ألفاظه الى الذى افتقد هذا الشىء :

فقد أخذت اللاتينية عن الاغريقية ، مع حضارتها الشىء الكثير من الألفاظ ، وخاصة الطبية والفلسفية .

واخذت الجرمانية عن اللاتينية مفردات عديدة فى : التشريع ، والقضاء ، ونظم السياسة والاجتماع (١) .

واخذت الأوروبيات عن العربية كثيرا من الفاظ منتجات الزراعة ، مثل : الليمون ، والزعفران ، والسكر ، والكافور ، والقهوة ، والقطن ، والنسيج الموصلى ، والدمشقى . وهى على الترتيب :

Lemon, Saffran, Sugar, Camphor, Coffee, Cotton, Muslin, Damask

واخذت الأسبانية عن العربية حوالى أربعمائة لفظة ، فى شئون الملاحة والبحرية ، وكذلك صنع اليونان كالأسبان .

وكلمة (شاى) وفدت من ماليزيا ، وعمت أرجاء المعمورة (Tea)

واخذت العربية من اليونان : الفاظ الطب ، والفلسفة ، والمنطق ، وعلوم الطبيعة ، وكذلك الفردوس ، والقسطاس ، والبطاقة ، والسجنجل (للمرآة) ...

واخذت العربية عن الفارسية : أسماء التوابل ، والأدوات المنزلية ، مثل : الفلفل ، والقرفة ، والزنجبيل ، والدارصينى . والكوز ، والابريق ، والطست ، والخوان . ومن الطور : البنفسج ، والمسك ، والياسمين ، والكافور ، والعنبر . ومن النسيج : الديباج ، والسندس ، والاستبرق (٢) .

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٣٢

(٢) فقه اللغة للثعالبى ، الباب ٢٩ ، والمزهر للسيوطى ، النوع ١٩ .

وأثبتت العربية بما أخذته وعربته من اللغات الأخرى : أنها ذات قدرة بارعة على هضم الألفاظ الأجنبية ، وصقلها على أوزانها فيها ، وجعلها مثل الألفاظ الأصلية فيها ، حتى صرفتها واشتقت منها ، فقالت : فلسفة ، وتفلسف ، ومتفلسف . ونورز من النيروز .

* * *

اللغة والحضارة :

تعيش اللغة فى تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية ، والحضارية ، والسياسية ، وكل ما فى المجتمع عبر الأجيال ، لأن اللغة من الحياة الانسانية ولها ، والعنصر الانسانى هو الذى يضفى على اللغة مسحة من تأثير السحر والكمال والجمال . فهى أكثر من (فونيمات) وحياتها أو موتها أو تبدلها رهن بالعنصر الانسانى اذا عاش عاشت معه ، وان مات توارت معه ، سواء أكان موته حقيقيا أو معنويا .

واللغة أصدق سجل لتاريخ الأمة ، وميزان منزلتها من الحضارة ، وتعكس ما فى البيئة من مختلف الشئون الحياتية ، وتتأثر بكل ما يدور ويحدث فى البيئة موروث أو طريف . والانسان ابن بيئته : فان بدت باد وبادت معه لغته ، وان تحضرت حضر وتحضرت معه لغته : تتسع بانفتاح آفاقه وتنغلق بانعزاله :

فمن (الساميات) : « كانت (الآرامية) فى الشمال : قليلة الألفاظ ، مضطربة القواعد ، ثقيلة التراكيب ، صعبة النطق ، متنافرة الكلمات والحروف .

و (العربية) فى الجنوب : وفيرة المفردات ، رقيقة الحاشية ، انسيابية التعبير ، منطقية القواعد ، رحبة الأفق ، ووسعت كتاب الله لفظا وغاية .

وجاءت (العبرية) فى منزلة بين المنزلتين : ففاقت الأولى ، ولم تبلغ شأو الثانية » (١)

واللغة أداة بلاغ ، وحمالة حضارة ، ولكنها كما ثبت من الواقع — لا تحدد نوع الحضارة لمجتمع معين : فقد ثبت : « أن المجتمعات التى تتكلم

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٣٥

لغات مختلفة يمكن أن تشارك فى نفس الحضارة : كالحضارة العربية الاسلامية » ، التى حاكتها امم تنتمى الى لغات شتى .

وعكس هذا صحيح ايضا : « فمن الممكن ان تستعمل مجتمعات تنتمى الى حضارات مختلفة لغة واحدة ، كما هو حاصل فى الوقت الحاضر — مثلا — للغة الانجليزية » (١) .

فاللغة انعكاس لاهتمامات المجتمع الذى يتكلمها ، وتفى — دائما — باحتياجاته واهتماماته بشكل مرض للغاية . وهى — بالتالى — تساعد الفرد والمجتمع على التفكير الى العالم بطريقة ما ، ولكنها لا تمنعه من التفكير والتصرف بطريقة او طرق اخرى .

فاذا انتقل المجتمع من حال الى حال : من الزراعة الى الصناعة ، او من البداوة الى الحضارة ، لاتقف اللغة حائلا دون ذلك التحول ، لأن فى كل لغة امكانيات للتطور والتغيير ، بحيث تساير المجتمع الجديد فى كل ما يجد فيه من شئون . تسرع او تبطىء فى ذلك على حد ما فى طياتها من امكانات اليسر او العسر فى الحركة ، ولكنها سائرة نحو الوفاء بالتعبير عما جد فى المجتمع الذى تعايشه من مدالیل وامور .

وتصطبغ اللغة بما فى البيئة ، وترى انماط السلوك السائدة ، والاتجاهات الاجتماعية ، والطبقية ، وتوحى بدرجة الثقافة :

فحين يصبح فرس امرىء القيس خير وسيلة للسفر ، يصفه امرؤالقيس بتفصيل دقيق . وحين تمسى ناقة طرفة خير ركوبة ، وعليها زاده وامله وحياته . . يمطرها بأكثر من اربعة آلاف لفظة ، لاتدع شاردة ولا واردة من شئون ناقة الا احصاها .

وحين تمحل الأرض او تخلف السماء ، لا تجد اثرا للراحلين سوى الدمن والأطلال ، وبعر الآرام فى العرصات .

وحين يحيا القوم فى عيشة راضية ، يمدح الشاعر المراة : بأنها نؤوم الضحى ، ويضحى فتيت المسك فوق فراشها ، ومشيتها من بيتها الى بيته جارتها مشى السحابة لاريث ولا عجل .

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢٢٠

ويكون القوم الممدوحون : رقاق النعال ، وطيب حجزاتهم ، ويسوسون احلاما بعيدا اناتها ، وتخالهم جنا اذا جهلوا .

وقانون البيئة وانطباع ما فيها فى اللغة لا يتخلف ، والعنصر الانسانى ، هو الاداة والحمالة : فقد تزدهر الحضارة ، وتموج بها الدنيا من حوله ، وهو لايدرى .. لكن ما ان يتعامل مع الدنيا الجديدة وينفعل الا وتجد النقلة واسعة ، والجذوة متقدة ، اذا كانت القريحة وقادة :

تحدث اسانيد الادب : ان شاعرا وفد من البادية ، مشبعا بمشاهدها ، ويحمل بضاعتها ، مدح على بن الجهم ، فقال له :

أنتَ كالكابِ فى وفائكَ بالعهد ... وكالتَّيْسِ فى قِراعِ الخطوب

أنتَ كالدَّلْوِ لاعَدِمْنَاكَ دَلْوًا ... مِنْ كثيرِ العطا قليلِ الذَّنوب

فهم احد جلساء الأمير بتاديبه ، ولكن الأمير ادرك الامر بفطنته : فالشاعر استوحى محصوله ومخزونه اللفظى والمرئى ، فلم تسعفه الذاكرة باكثر مما عاشه واقعا فى بيئته . وابقاه الأمير زمنا يسيرا ينعم فى بحبوحة العيش ، ويتعامل مع الطبيعة فى اجلى مغانيها ومفاتنها ، ويشاهد الجوارى كالحوريات فى غدواتهن وروحاتهن .. وتحدث كتب الأدب ان ذات الشاعر راى فى روضة اريضة كالخميلة جارية تتهادى بين الشجر ، فهم بمغازلتها ، فتهددته بخنجرها ، فأمسك بيدها قائلا :

يا مَنْ حَوَى وردَ الرياض بخدِّهِ ... وحكى قضيبَ الخَيْزَرَان بقَدِّه

دعْ عنك ذا السيفَ الذى جرَّدتَهُ ... عيناك أمْضَى مِنْ مضاربِ حده

كلُّ السيوفِ قواطعٌ إنْ جُرِّدَتْ ... وحسامُ لحظك قاتلٌ فى غمده

إن رمتَ تقتلنى فأنتَ مخيَّرٌ ... مَنْ ذا يُعارِضُ سَيِّدًا فى عَبْدِه

وذات الشاعر هو القائل ايضا :

عيونُ المَهَا بينَ الرُّصافةِ والجِسْرِ
جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أدْرِى ولا أدْرِى

وهكذا تكون النقلة ، وهكذا يكون أثر البيئة ، وهكذا تكون اللغة مطاوعا لالمعى .

وكثير من العلماء يرون ان لكل لغة مقدرتها على التعبير عما فى بيئتها ، فلا مجال لتفضيل لغة على اخرى فى اية ناحية ، وانما التفضيل لحضـــارة على اخرى ، تحملها لغة :

يقول الأستاذ انيس فريحة :

« لقد اثبت علم اللغة الحديث : ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، يتميز بها كل مجتمع انسانى ، وهى ظاهرة انسانية ... لم تهبط من عل ، بل نشأت من اسفل ، وتطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بحضارته . وليس هناك مبرر للمفاضلة بين لغة واخرى ...

لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع .

وليست القضية قضية لغة افضل من لغة ، بل قضية حضارة ارقى من حضارة ، وحياة اغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة فى اصوات اللغة : كأن يقول احدنا : ان فى الايطالية اصواتا اعذب موسيقى من اصوات العربية ، فالذى نعده ـــ نحن البيض ـــ عذوبة فى الصوت ، قد يعده الهندى الاحمر قبحا وخشونة . وما نحسبه بيانا وفصاحة .. قد يرى فيه الزنجى غموضا وتعقيدا .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما اكثر عددا من مفردات لغة اخرى ، اذ قد يكون عندنا ـــ نحن البيض ـــ للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها ، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة اخرى مخالفة ، ولكن فعالة » (١) .

ونحن لا نوافق الأستاذ فى كل ما ذكره : فهناك عذوبة فى موسيقى بعض اللغات كالفرنسية ، يحب الانسان ان يسمعها ، ويأنس لها ويطرب ، ولو لم يدرك معناها . وهناك لغات غنية بمفرداتها ، واخرى فقيرة .. وناهيك (باللسان) الذى يضم بين دفتيه اكثر من مائة الف مادة .. ومخزونه الوفير هذا ارهاص بأنه يلبى اشواق الروح ومطالب الحياة والاحياء ، حين تدعو الحاجة ، وتلم الضرورة .

* * *

اللغـــة والفكر :

ثار جدل كبير بين العلماء والمفكرين ، بشأن قضية : توافق اللغة والفكر

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٤٨

وتفاعلهما . فكان التساؤل : هل يوجد فكر مجرد بدون رموز لغوية أوان اللغة والفكر مظهرين لعملية (بسيكولوجية) واحدة ، كوجهى قطعة عملة ؟

والسؤال بوجه آخر : هل هناك ارتباط بين طبيعة نظام اللغة ورموزها من جهة ، وبين تفكير مجتمع هذه اللغة وفلسفة ومظاهر التفكير ، التى أنتجها وينتجها هذا المجتمع من جهة اخرى ؟

بعض العلماء يؤيد هذا الترابط ، ويؤيد التجارب والدراسات : بأن اللغة تسيطر على طريقة تفكير المجتمع ، وان سلوك الفرد والمجتمع معزو الى اللغة المتكلمة وطبيعتها .

وبعض العلماء ينقض ذلك وينفيه . فمسافة الخلف واسعة ، والتطرف كبير بين النفى والاثبات :

يرى سابير (Sapir) : ان اللغة هى التى تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التى يتصرف ويفكر فيها . وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم الا من خلال لغته ، فالبشر واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة ، التى اتخذوها وسيلة للتفاهم فى مجتمعهم . حقيقة الأمر أن العالم الحقيقى مبنى الى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين » (١) .

وفى موطن آخر يوضح (سابير) نظريته : بأن اللغة طريق ممهد ، أو اخدود كالأخاديد التى تراها على سطح اسطوانة ، تمهد وتحدد للابرة لتمر فيه ، لتردد الصوت .

فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نموه ، ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر فى اللغة وتطورها ونموها . فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع (٢) .

ان ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوى الواضح أو غير الواضح . ولكن هذه الفكرة المولودة جديدا لا يصبح لها كيان ذاتى ما لم تلبس رمزا لغويا ، أى ما لم تضمن الفكرة فى (كبسول) لغوى ، عندما نشعر أن الفكرة المولودة جديدا قد أصبحت ملكا لنا ، وأصبحت تشكل جزء من تفكيرنا .

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢١٨

(٢) نظريات فى اللغة ص ٥٩

وكان (بنيامين وورف) اوضح واشد صراحة من أستاذه (سابير) : اذ جعل اللغة حاكمة تماما ، والمرء اسير لغته ، يقول : « ان الانسان اسير لغته ، وان اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار ، فنحن نقسم الطبيعة (العالم) بموجب الخطوط التى ترسمها لنا لغاتنا القومية » (١).

بينما يرى (الفرد كورزبسكى A. Korzybsky — ١٨٧٩ ــ ١٩٥٠) ، عكس النظرية السابقة : فلغة مجتمع معين لا تحدد الاطار لذلك المجتمع لان يرى العالم من خلال لغته . ويوضح ذلك بأن (الخريطة لا تمثل الرقعة الأرضية كلها) . أى أن اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من أشياء ، وما يحدث فيه من أحداث » .

وتأسيسا على الرأيين السابقين جعل العلماء طريقة التفكير عند العرب والفرنسيين استنتاجية : (Deductive) ، لأن الصـــفة فى لغتيهما تتبع الموصوف .

بينما تفكير الأمـــة الانجليـــزية تفكير استقرائى : (Inductive) ، لأن الموصوف عندهم يأتى بعد الصفة (١) .

وقيل ايضا : ان مجتمع اللغة التى لا تميز تراكيبها بين أحداث الجملة ، ومورفيماتها بدقة فى الاستعمال : مجتمع قدرى ، كمجتمع الهنود الحمر مثلا ، فلا ضابط له ولارابط ، وتفكيره ضحل ، وتعابيره بدائية محسوسة .

واى مجتمع لا تتوافر فى لغته بنيات الزمن ، وتتقاسمها مصطلحات التحديد المنطقى ، تتسم حياته بعدم احترام الزمن ، ولا يقيم للفكر والمنطق وزنا .

ولكن بعض علماء اللغة يردون هذا وذاك ، ويثبتون خطأ هذا القول : فقد ثبت أن ليس هناك لغات بدائية متخلفة ، ولغات عصرية متقدمة ، ففى مفردات كل لغة وتراكيبها ، ــ فى أى لغة ــ ما يغطى ويفى بمتطلبات وحاجيات هذا المجتمع ، ويتمشى مع ما يعوزه من أشياء : فقد ذكر طرفة ناقته وشئونها فى اكثر من اربعة آلاف لفظة فى مجتمع بدائى التفكير والبيئة فيه ضحلة . ويعرف (الاسكيمو) لصنوف الثلج والوانه الشىء الكثير ، ويعبر عن كل نوع

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢١٩

(٢) أضواء على النظريات اللغوية ص ٢١٨ وما بعدها .

بلفظة تخصه . وللأرز فى (الفلبين) اكثر من عشرين لفظة .. وتراكيب كل لغة تعين مجتمعها على التعبير الصائب ، والفهم والافهام .

وبعض الكلام لايدخل فى نطاق الفكر ، ولا تتلبس به اللغة تلبسا واضحا وقويا . فقولك : — مثلا — نمت الليلة نوما هادئا . وقولك لزميلك : تفضل معنا . لا تحتاج سوى لمسة فكر خفيفة .

فالمعادلات الرياضية كانت موجودة بصورة ما فى الذهن ، قبل تلبسها برمز لغوى ، ولكنه بعد تلبسه بها وضحها ، وقننها ، وجعلها تقترب بسرعة من الفهم والأذهان عند ذويها .

فضلا عن أن المدلولات الاجتماعية تسبق فى الظهور المداليل اللغوية ، التى تعنونها .

هذا ما يترتب على الرايين السابقين ، (لسابير) وتلميذه (بنيامين) من ناحية ، ورأى (الفرد كورزبسكى) من ناحية اخرى فى سيطرة اللغة على الفكر ، أو عدم السيطرة . وذكرنا طرفا مما اعترض به على النظريتين .

وهناك رأى فلسفى لا يفصل بين الفكر واللغة ، لانهما نوعان من السلوك البشرى : اذ يعتبر (جون واتسون John Watson) واصحاب المدرسة السلوكية : التفكير نوعا من الكلام الداخلى ، والمنطوق على مستوى الحنجرة . و (سكنير Skinner) لا يفصل بين الفكر واللغة ، لانهما نوعان من السلوك البشرى على حد سواء (١) .

ونقد هذا الرأى : بأن اللغة نظام تجريدى يشارك فيه ابناء المجتمع الواحد ، بينما الكلام الفعلى واحد من مظاهر القدرة اللغوية الكاملة .

والذى نرتضيه من هذه الآراء :

— أن العلاقة متبادلة بين اللغة والفكر ، وكذلك بينها وبين الحضارة والأحداث التى تدور فى المجتمع : فهما يعتمدان على بعضهما الى حد كبير . ونحن لا نستطيع التفكير ابعد من قدرتنا اللغوية ، كما لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه .

— وأن التجارب التى أجريت ومازالت تجرى دلت على أن اللغة تسيطر سيطرة كاملة على اى مظهر من مظاهر الحضارة ، أو احتواء الفكر احتواء كاملا .

***

(١) المصدر السابق

مجتمع اللغة والطبقية :

اللغة ناظمة عقد اى مجتمع ، ودليل هويته ، ومرآة احداثهوشئونه . وهى لذلك خير ترجمان لكل ما يدور فى المجتمع : ان فى اعلاه او فى قاعه وتعكس الأحداث الاجتماعية ، وهوية النظم والتقاليد ، والثقافة والانتماء الحرفى ، وكذلك القيم والسلوك السائدة ، لكل الأسنان والأجناس التى يموج بها هذا المجتمع :

وتكشف الألقاب والنعوت جانبا كبيرا مما سلف ، اذ عندما تسمع : حضرة صاحب الجلالة ، والسلطان ، والعظمة ، والسمو ، والفضيلة ، والغبطة ، والمعالى ، والسيد ، والباشا ، والبك ، والأفندى ، والأستاذ ، والدكتور ، والمهندس ، والأسطى ...

وعندما تتصدر الرسائل أو تنتهى بمثل هذه العبارات :

يتفضل سيدى ، ومولاى ، وأرجو ان تتفضلوا ... تدرك على الفور ان اللغة كشفت عن جانب من هوية المجتمع وبعض نظامة ، وطبقاته المتعايشة ، ونظامه السياسى ...

وبين شاسع بين هذا ، وبين ما عرفته العربية فى الصدر الاسلامى ، حين كان يخاطب الأعرابى النبى صلى الله عليه وسلم ، قائلا : يامحمد : اعطنى من مال الله .

وللمجتمع الفه وعاداته فى احاديثه وتعابيره التى تخضع لمعايير الذوق والأدب : فيكنى عما يسىء ويزعج ، ويورى عما ينفر ، ويغلف بمعسول القول ما يؤلم ، ويستر بأسلوب الحكيم ما يؤذى المشاعر والاحساسيس ، وما يستقبح ويستهجن ذكره :

وللعربية قصب السبق فى هذا المضمار :

ففى حديث السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ : « ما رأيت منه ولا رأى منى » والرسول يوصى بالا يقول احد : عبدى وامتى ، ولكن فتاى ، وفتاتى . والقرآن الكريم يقول فى ادب عال : « **نساؤكم حرث لكم** » (البقرة : ٢٢٣) ، « **فاعتزلوا النساء فى المحيض** » ، (البقرة : ٢٢٢) « **واهجروهن فى المضاجع** » (النساء : ٣٤)، « **فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا** » (المجادلة : ٤).

ويقول عمر بن أبى ربيعة فى مواسم تغزله :

* وكم من مالىء عينيه من شىء غيره *

ويقول فقهاؤنا : ينقض الوضوء من أحد السبيلين ..

وحتى اطباؤنا لا يذكرون الفاظ (السل) ، و (السرطان) ، لمن هو مريض بهما ..

ونحن لا نقول : مات فلان ، ولكن نقول : انتقل الى رحمة الله ، واراحه الله ، واعطاك عمره ..

واحيانا نلوذ بكلمة أجنبية : مثل (التواليت) ، أو مجاورة (كالحمام) و (اكس) ، لما دل عليها ..

وحتى قلنا للأعمى : بصير ، وللمريض : سليم ، وللأعور ، ممتع باحدى عينيه .

وذكرنا الشيطان ، ببسم الله الرحمن الرحيم ، لئلا يخرج لنا ، والشر بره وبعيد عن بيتنا .

كل ذلك من باب الأدب والاحتشام والحياء ، ومراعاة الذوق العام ، او مراعاة لأعراف ومعتقدات ، واسباب تعلم او تخفى .

وظاهرة الكلام المحظور اجتماعيا (Taboo)، محكومة اجتماعيا ، وقد يكون قانونيا فى البلاد المنعزلة والمحافظة ، والتى لا تقبل اطلاقا بخدش الحياء العام ، كما فى بعض البلاد الاسلامية ، وفى المجتمعات الانجليزية .

بينما يكون الحبل على الغارب فى البلاد المفتوحة ، للأدب الصريح والمكشوف ، فلا يستحى اهلها فى التعبير عن السوآت والعورات ، وتسمية المستور باسمه الصريح ، وتداوله فى كتب ومجلات سيارة . كاللغة اللاتينية قديما ، وبعض مجتمعات اوروبا حديثا ، وخاصة عند المنحرفين كالهيبيين ومن على شاكلتهم دونما حياء ولا خجل ، وقد يكون ذلك بسبب التحدى للمجتمع ، او الشذوذ ، او التمرد على السلطة والنظام القائم .

كما لاحظ علماء اللغة ان من الألفاظ ما يحظر على النساء ذكرها ، ومنها ما يكثر على لسانهن اكثر مما يكون على لسان الرجال ، وحبذا لو درس ما يدور فى مجتمعهن كاملا ، ليظهر الفرق جليا .

فالمراة الانجليزية كانت لا تتحدث عن رجل المائدة المكسورة ، والنساء عموما تكثر من ذكر الالفاظ العاطفية ، والتمييز الدقيق بين انواع الالوان ، بما لايعرفه معظم الرجال .

وتحابى اللغة احيانا جنس الرجال ، فتغضب جماعات النســـاء ، فالتغليب لجنس الرجال شائع فى العربية وغير العربية .

وذكر الدكتـــــور نايف خـــرما ، أن الانجليزيـــة حـــين تقـــول : (He is professional) تعنى أن الرجل محترما وينتمى الى احـــدى المهن المرموقة . بينما اذا قالت الانجليزية : (She is Professional) فيصف ذلك المراة بأنها مومس . وكلمة (Master) تعنى بالنسبة للرجل (سيد) . بينما مؤنثها (Mistress) تعنى أن المراة موسومة بوصف سوء . وفى الانجليزية اكثر من مائة كلمة بدلا من كلمة حيض .

واحيانا تسقط اللفظة اجتماعيا ، واصلها لا بأس به .. فلا تذكر الا فى وسط مثقف : كحديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اخوانكم خولكم اطعموهم مما تطعمون ، واكسوهم ... » والمعنى عبيدكم خدمكم ، بينما هم فى الحقيقة اخوان لكم ، فأنزلوهم المنزلة الاسلامية الانسانية .

***

الجهود الأدبية لصيانة اللغة واثرائها :

كل امة لها اسهام فى الحضارة الانسانية بشىء ، ولها ماضيها التليد ، وحاضرها المشرف ، ومستقبلها المرجى .. تحافظ على لغتها ، حفاظها على مقوم رئيسى من مقومات حياتها ووجودها .

والمستعمر قبل أن ينال ثروات الشعوب ومقدراتها ويسيطر عليها ، يوهن من عرى لغتها ، ويطاردها حتى تمسى فى زوايا النسيان .. لأنـــه يدرك أن اللغة مناط وحدتهم ، وناظمة عقدهم .

ولولا جهـــود الشيخ عبد الحميد بن بـــاديس الجزائرى واعوانه فى الجزائر ابان الاستعمار الفرنسى ، لكانت العربية فى خبر كان .

وعندما نتأمل المنجزات الحضارية فى تاريخ الشعوب .. نجد أن مفخرة من مفاخرها هى ابجدية الكتابة .

وقد كان قصب السبق فى هذا الجانب للحضارة السامية ، ثم نقلتها عنها الحضارة الفينيقية الى اليونانية والرومانية بعد ذلك .

وتدرجت الكتابة بالرسم المشخص للشىء الى الرمز عنه بشىء منه ، أو بخطوط متعارف عليها ، كما تحكيه لنا قصة الكتابة الأبجدية : فالمصرية القديمة رسمت الصقر بصورته ، ورمزت الهيروغليفية للشمس بدائرة فى وسطها نقطة . ورسم الفينيقيون للدلالة على الثور راس الهمزة . واستعانت الصينية بأكثر من أربعين خطا أساسيا ، توضحها خطط صغيرة فى ابجديتها .

وترجمت الحروف عن الأحداث — كما فى مقدمة الشيخ العلايلى — : فالسين والميم والكاف تشير الى السمك بمعنى : كف الماء القوى . والجمل والشجر ، لأى شىء عال ضخم كالجبل ...

ومن الأبجدية الفينيقية اشتقت الاغريقية ، ومنها اخذت اللاتينية ، ومنها كانت حروف الأوربيات الحديثة . ومن الفينيقية ايضا : اشتق العبرى القديم ، والآرامى ، والتدمرى ، والسريانى ، والنبطى ، ومن النبطى جاء العربية .

وكانت الكتابة نعمة جلى ، لأن الاعتماد على مخزون الذاكرة كثيرا ما يخون ، أو يتداخل فيحدث اللبس والخلط . فأصبحت لغة الكتابة ، وسيلة القيد ، والحفظ للتراث وعدم ضياعه ، وتولى الحكومات جهدها لتعليم اللغة المحلية ، وحفظها وصيانتها وتنقيتها مما يشوبها ويعلق بها . ويأتى ذكرها فى دساتير البلاد فى المرتبة الثانية ان لم تكن الأولى ، وتعكف المدارس والمعاهد والجامعات على تعليمها ، والتدريس بها ، وتلتزمها وسائل الاعلام المختلفة فى بث برامجها ، ونشر بضاعتها . وقد أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — زيد بن ثابت بتعلم لغة أجنبية ، وجعل فداء أسرى بدر بتعليمهم أبناء المسلمين الكتابة !

وكلما تقدمت وسائل الاتصال والتكنولوجيا ، كلما أعان ذلك على الثقافة، ووجدنا حركة التجديد فى اللغة فى تأثر الأدباء والكتاب باللغات الأجنبية ، وترجمة المفردات الأجنبية والتراكيب والأفكار .

وفى احياء المفردات المهجورة من بطون المعاجم القديمة رغبة فى التجديد ، ونقل المصطلحات الأجنبية .

والنشاط فى التاليف والترجمة .

والحث على التاليف اللغوى للأبحاث اللغوية ونشرها واشاعتها ..

وانشاء المجامع اللغوية للحفاظ على اللغة القومية وتنميتها ، وترويض الدخيل ، وانتقاء وصقل الوافد ، وايجاد البديل ..

وكل تلك-محاولات تطيل أجل بقاء اللغة ، ولكن سنة التطور والارتقاء والتغيير تنال من اللغة ، برغم كل الاحتياطات والسياجات ، سنة الأحداث والأيام فى اللغات .

* * *

الفصل التاسع

التطور الصوتي والدلالي في اللغة

تحدثنا فى الفصل السابق أن اللغة فضلا عن أنها وسيلة اتصال وتفاهم ، أنها تدخر فى كلماتها : أخلاق أهلها وعاداتهم ، ونشاطهم الأدبى والفكرى .

أو كما يقول (أناتول فرانس) فى ايجاز ، تسجل : « آثار الحياة العامة ، وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء . وكل كلمة من كلمات اللغة يقابلها فكر من الأفكار : كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم . وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصون .

وان كل كلمة من هذه الكلمات المجموعة ، انما هى لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما » . (١)

ورأينا أن اللغة لا تثبت على حال ، وانما تتقلب فى حركة دائبة وتغير شأن ما فى المجتمع من حياة وشئون وأحياء .

ويدور هذا التغير وفق قوانين معروفة فى اطار : علم الأصوات ، وعلم الاجتماع اللغوى ، وعلم النفس اللغوى ، وكذا علم الاساليب والدلالة : اى فى الشكل والمظهر ، وفى المعنى والمخبر ، فلا تثبت الأصوات على أول ما درجت عليه فى طبيعتها ، ولا المعانى الاجتماعية على مداليها ، على مدى الأجيال .

فقد وجد العلماء على طول المدى : أن ذوات القربى من اللغات تتقطع وشائجها ، وتمعن فى البعد والاغتراب . يقول ابن حزم :

---

(١) المناهج الادبية ص ٢٠٢

« الذى وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا : أن السريانية والعبرية والعربية ، التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ــ لغة واحدة ، تبدلت مساكن أهلها ، فحدث فيها جرش ، كالذى يحدث من الأندلسى اذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى اذا رام نغمة الأندلسى .

ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط ــ وهى على ليلة واحدة من قرطبة ــ كاد يقول : انها لغة أخرى ، غير لغة قرطبة .

وهكذا فى كثير من البلاد ، فان مجاورة أهل البلدة بأمة اخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله ...

فمن تدبر اللغة العربية والعبرية والسريانية .. أيقن أن اختلافها انما هو على ما ذكرنا ، من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة فى الأصل » (١) .

ونشطت جهود اللغويين لدراسة ميدان هذا التطور والتغير ، ومظاهره وأسبابه . ويعود ميدانه ــ كما قلنا ــ الى ناحيتى مبعث اللفظ ، ومحط الدلالة ، أى الناحية الصوتية والدلالية . ومظاهرة تلاحظ فى التغير البادى فى نطق الأصوات ، وتبدل المعنى الدلالى أو تحريفه من جيل الى جيل .

وأما أسبابه ، فترجع الى : عوامل عضوية ، أو صفات صوتية ، أو دلالية : فتتمثل العوامل العضوية فى اختلاف أعضاء النطق ، التى تميز صوت كل فرد عن غيره ، وكل جنس عما سواه وأيضا فى تطور أعضاء النطق من جيل لاحق عن سابق ، فى الاستعداد والبنية . وكذلك فى الأخطاء السمعية ، لعلة أو عارض ، فتحور وتغير الصوت بلا قصد عن وسمه وطبيعته وسمته .

وتتمثل العوامل الصوتية ، فيما ينتاب الصوت اللغوى من وهن أو حذف ، أو تفاعل مع جيرانه ، أو تبدل فى مواقعه وتناوب .

أما تغير الدلالة ، فيرجع الى أسباب بيئية ، أو حضارية ، أو نفسية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية . وقد أوضحنا بعض هذه المظاهر للتغير الدلالى فى الفصل السابق .

وتلك المظاهر تلقائية جبرية وشاملة : تطبع كل أفراد البيئة اللغوية

---

(١) الاحكام فى أصول الأحكام ١/٣٠

بطابعها وتجرفهم فى تيارها ، فيخضع لها الجميع ، ومن شذ لفت الأنظار اليه بسخرية ، أو استهجان أو دهشة من ابناء لهجته .

● فأعضاء النطق (الرئتان ، والقصبة الهوائية ، والحنجرة ، والوتران الصوتيان ، واللسان ، والشفتان ، والتجاويف الفمية والأنفية) تختلف من شخص لآخر ، وتتنوع الأصوات تبعا لذلك .

كما ان هذه الأعضاء تتغير من جيل لجيل ، وتتأثر بمؤثرات من بيئة لاخرى ، كما اثبت علم التشريح . وصوت البدوى والقروى اقوى واوضح واجش من صوت الحضرى . والاختراعات المعينة على نقل الصوت وتكبيره تجعله يميل فى طبيعته للخفوت ، وفى أعضائه للرخاوة ، وفى صفاته للميل الى الهمس والضعف . ونتيجة لذلك تتبدل صفات الحروف ، ومخارجها ، وقد تسقط ، ميلا الى الخفة والسهولة .. وهنا تبدو مظاهر الخلف فى النطق واضحة ، وبخاصة حين نتفق على مقياس ثابت نراه يحتفظ بسمات نطق الأقدمين ، كالعربية الفصحى عند الأول ، اذا قسناها على نطق المجيدين لقراءة القرآن الكريم اليوم مثلا

وحين ينطق الحرف الذى ضعف ، أو يترك الذى سقط ، يقلده السامع ويحاكيه فيصبح عرفا مألوفا ونهجا مأنوسا .

وقد تحدث سيبويه عن الضاد الضعيفة ، أى التى ليست فى عداد النطق العربى الصرف ، وهو فى القرن الثانى الهجرى ، قريب عهد بالبداوة ، والفصاحة واهلها .

وتحولت (الذال) فى عصرنا الى (ذاى) ، والى (دال) أيضا ، كما فى : (كزلك ودراع) (وأذن الى ودن) . وتحولت (القاف) الى (همزة ، أو جاف) ، كما فى (ألت ، وجات) . ومازالت بعض اللهجات تنطقها (قافا) كما هو الأصل . على حين استعصمت القاف فى أماكن (كالقرآن ، والقاهرة) وتبدلت فى أماكن ما كان يحق لنا التساهل فيها ، لأنها سماعية ، فقلنا (عبد الخالىء) .

وكذا تبدل فى الفرنسية حرف (A) الى (E) ، ونطق حرف التعريف فى الانجليزية من (ذا) الى (زا) ...

وصوت (شق) لثوب عندنا ، هو (جق) عند الفرس . اذ استسهل اللاغون لأعضاء النطق ما يوائمها فى كل عصر وبيئة ، وفى وضعها الجديد

بما لا يشق عليها ، ولا يكلفها الجهد والعناء اذ هى لا تعمل بطاقتها كاملة . ولهذ تفرقت اللغات الى لهجات ، والعكس بالعكس .

« وكلما كان الشعب قريبا فى النسب والدم الى اللغة الأم .. كلما كانت لهجته اقرب اليها : فالقبائل العربية المهاجرة الى البلاد العربية لهجاتها اقرب الى الفصحى للآن فى مظاهر كثيرة .

والايطالية اقرب الى اللاتينية من الفرنسية ، لصلة الايطاليين نسبا ودما بالرومان ، والفرنسيون اقرب الى الجنس السلتى والجرمانى » . (١) فلهجتهم فيها مظاهر خلف كثيرة وواضحة .

وتتسع مسافة الخلف فى النطق لما سلف ، فتمرن أعضاء النطق ارادياً واضطراريا ، ويؤدى كل ذلك الى ظواهر خطيرة فى اللغة :

فعاميات عربيتنا الفصحى بعدت كثيرا عن بعضها . وسقطت وتلاشت علامات الاعراب ، وكذلك حروف العلة ، كما فى قولنا (محمد وحمد ومصطفه وعبد الخالىء اعدين يسمع الرادى فى دور لعمده) اى : (محمد واحمد ومصطفى وعبد الخالق قاعدين يسمعون الراديو فى دوار العمدة) .

ومثل ذلك التغيير حدث فى غير العربية ، فقد تحولت (Fava) فى الفرنسية القديمة الى (Feve) ، وتحولت الأصوات القوية فيها الى أصوات ضعيفة، كما فى (Polomb) الى (Poln) وتخلت اللاتينية ايضا ـ لذات الأسباب ـ عن علامات الاعراب . » (٢) وتلك سنة اللغات فى تطورها ، ولا يملك الانسان لسننها تغييرا ، ولا لمجرياتها وزحفها صدا ولا توقيفا .

والتفاعل بين أصوات ، للتجاور أو التقارب ، كثيرا ما يجعلهما عرضة للتغير أو الانحراف : فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فيتكون منهما صوت لين مركب ، ويسقط ما يفصلهما من أصوات ، ففى اللاتينية ـ مثلا ـ : (Regina) تحولت فى الفرنسية القديمة الى (Reine) وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينما صوت ساكن (غير لين) لتسهيل النطق ، ففى الفرنسية

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٧٥ ـ ٢٨١ بتصرف .
(٢) المصدر السابق .

القديمة (Pooir) تحولت فى الجديدة الى (Pouvoir) وتارة يتحول احدهما الى صوت آخر اذا كانا متحدين ، ففى اللاتينية (Vicinus) تحولت فى التخاطب عند الرومان الى (Vecinus) . وتارة يتحول (اللين) الى (سلكن) ، فيخرج عن فصيلته خروجا تاما ، ففى اللاتينية ، (Piattea) ، اذ تحولت الى (Plattsa). (١) .

ولعل هذا التغير الأخير هو أظهر وأخطر ، فمعنى ذلك أن التغير والتطور سينال الحروف الساكنة كما نال اللينة .

ويشبه الدكتور وافى تفاعل الحروف الساكنة حين تجاورها وتقاربها ، فتتجاذب عند الاختلاف ، وتتنافر عند الاتحاد ، شبهها بالكهرباء فى الايجاب والسلب :

فالتجاور لصوتين مختلفين مخرجا يجذب الصوتين ، فليتصقان ، وينتقل احدهما الى الآخر ، كما فى حرفى R ، و B فى كلمة (Berbis) التى تحولت الى (Brebis) وتسمى ظاهرة النقل المكانى . أو يتحول الى صوت من نوع آخر ، كتحول الأول الى نوع الثانى ، كاللام الشمسية فى اللغة العربية (كالشمس) وتحولت فى العامية الى (سمس) . أو يتحول الثانى الى نوع الأول ، كما فى (Gamba) التى تحولت الى (Gamma) واحيانا يتلاشى احدهما ، أو يتمزجان .

أما اذا تجاور المتحدان أو تقاربا ، فانهما يتنافران :

فيتحول احدهما الى صوت مغاير للآخر ، كما فى (orphani) فى الفرنسية الى (orphe) ، اذ تحول اولهما . أو يتحول الثانى ، كما فى (Cribrum) اللاتينية ، التى تحولت فى الفرنسية (Cribic) ، وتسمى (ظاهرة التباين) .

واحيانا يسقط احدهما ، كما حدث فى معظم الأصوات المشددة ، التى تحولت الى اصوات مخففة ، كما فى بعض اللهجات (كلّمى أمّها عَمّها ، من كلْ بدْ) ، أى : كلمّى أمها وعمها) من كلّ بدّ .

وتارة يتساقطان معا ، ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما ، كتحول

---

(١) المصدر السابق .

اللام المشددة فى اللاتينية الى تاء أو راء فى آخر اللغة الجكسونية حين تقع بين حرفى لين ، مثل Belluw و Bella ، اذ تحـولا الى : Bet و Bera

وفى عاميات العربية الشىء الكثير من ذلك قولهم لما اختلفت هيئته وشكله، مثل : (يُسجد ، عُتُر ، خِلِص ، سُكُت ، كِبِير . . فى (يَسجد، عَتُر، خَلُص، سَكَتَ، كَبِير . .)وحدث تناسخ فى الأصوات ، كما فى : (صاخن ، ويسدق ، وضل ، فى عامية مصر . (وظوء،يظيع ، وينطى)فى عامية العراق . . فى ساخن ، يصدق ، وظل ، وضوء ، يضيع ، يعطى .

وأحيانا تتطور الأصـوات وتـدور حتى ترجع الى أصلها القديم ، مثـل (التـاء) فى الالمـانية فى كلمـة(Fraten)تحولت الى (ذال Th) فأصبحت (Bruther) ، ثم تحـولت الذال الى دال ، فأصـبحت (Bruder) وتحولت الدال فى الأسبانية الحديثة الى تاء ، فأصبحت (Bruter) . وبذلك عاد هذا الصوت الى الأصل القديم ، بعد هذه التطورات الثلاثة ، وقـد اصطلح العلماء الالمان على تسمية ذلك بالدورة الثلاثية » (١) .

وقد اشار علماء التجويد الى تفاعل الحروف وتأثر بالخارج قربا أو بعدا وبالمجاورة ، كما اشارت كتب القراءات والأدب واللغة الى وجود لهجات فى العربية الفصحى ، افردها علماء اللغة بكتب خاصة :

فالقراء السبعة ادغموا النون الساكنة والتنوين فى حروف (ى ن م و) ادغاما مصاحبا للغنة ، فى مثل « مَنْ يَقُولُ » ، « وبَرْقٌ يَجْعَلُونَ » ، « مِنْ نُور» ، « يَوْمئذٍ ناعمةٌ » : : : ولكن خلفا من القراء يقرأ بغير غنة عند الواو والياء ، فى مثل «من وَالٍ» ، « غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ » ، «ومَنْ يَجْعَلِ» (٢) . .

والنون الساكنة والتنوين يقلبـان ميما اذا جـاءت بعدهما البـاء ، عند جميع القراء ، مثل : «أنبئهم» «من بعدهم» « صمٌ بُكْمٌ » . بينما يكون حكمهما الاخفاء ، وهو حالة بين الاظهار والادغام ، وهو عار من التشديد ، مثل : « مِنْ تَحْتِهَا» ، «يَنْتَهُونَ» ، «مَنْثُورًا» ،«جميعاً ثُم» (٢) . ويكون

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٨١ وما بعدها بتصرف .
(٢) سراج القارىء المبتدى لابن القاصح ص ١٠١
(٣) المصدر السابق ص ١٠٢

الاظهار الحلقى اذا وقع بعدهما حرف من حروف الحلق (ء . هـ . ع . ح . غ خ) مثل : « مَنْ خَلَقَ » « عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ..

وجاء ادغام الحرف الأول فى الثانى ، فى مثل : «حتى إذا ادَّارَكُوا»، اصلها تداركوا . وجاء العكس فى قول الشاعر : ... « ونُظْلَمُ أحياناً فَيَظْلِم» . وجاء الفك والادغام فى مثل : «ومَنْ يُشَاقَ»، «ومَنْ يُشَاقِق»، وفى « لَقَدْ ظَلَمَكَ » (١) وحمزة والكسائى من القراء أمالا (الألف) المنقلبة عن الياء ، فى الأسماء والأفعال امالة كبرى ، اى متناهية فى الانحراف ، مثل : « اصطفى » « عيسى » (٢) وقرا ابو عمرو : «وإذا الرسل وُقِّتَتْ. (٣)وقراحمزة والكسائى : « افْتَمْرُنَه » ، بفتح التاء وسكون الميم من غير الف (٤) وقرا عاصم : « لَهُ شَمَرٌ » . ، بفتح الثاء والميم ، والباقون بضمهما . وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو : «نَفْساً زَكِيَّةً » ، وقرا الباون« زَكِيَّةً »بترك الالف وتشديد الياء (٥)

فهذه القراءات الصحيحة ، واحكام التجويد ، واللهجات الواردة ، كلها فصيحة ، وتمثل فى العربية علامة تسهيل للقراءة ، وان فى القراءات لهجات راعاها القرآن الكريم ، الذى نزل بلغة قريش ، فاذا نحن حاولنا تفصيح بعض الالفاظ العامية التى هالنا انشعابها ، لتعود الى الفصحى ، فسنجد كثيرا منها ترجع الى أصول عربية ، وبذلك تضيق مسافة الخلف بين عاميات العربية ، وبين فصحانا العزيزة : فالصاد فى الصبر والصلاة ، قد تحولت فى العامية الى (السين) ، بينما حدث العكس فى (صاخن)، وسجلت اللهجات: أن اعرابيين اختلفا فى نطق (الصقر) ، فقال أحدهما : هو بالصاد ، وقال الثانى : هو بالسين . واحتكما الى اول اعرابى قادم عليهما ، فقال : أما نحن فنقوله (بالزاى) . وجاء فى غيث النفع فى القراءات : أن القراء يقرأون

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤
(٢) المصدر السابق ص ١٠٣
(٣) المصدر السابق ص ٣٧١
(٤) المصدر السابق ص ٣٥٨
(٥) المصدر السابق ص ٢٧٩

(صراط) بالصاد ، وقنبل يقرؤه بالسين ، بينما خلف يقرؤه بالاشمام : اى بين الصاد والزاى (١) . فعسى ان نغذ الخطى لتفصيح بعض الفاظ العامية ، فى ضوء الصحيح الوارد عن علمائنا،وتعين كل الامكانات على نشره واستعماله، لتزدهر من جديد الفصحى بتيار أقوى ، فى وقت انحرفت فيه العامية بما ينذر بالخطر .

وما دخل العربية من تغيير أو تحريف قديم ، أشار اليه علماؤنا القدامى والمحدثون ، وحاولوا علاجه ، ونبهوا عليه ، وأقاموا حواجز لصيانة الفصحى لغة المقدسات فى كتبهم :

فلابن قتيبة (٢٧٦ هـ) لحن العامة ، وللحريرى (درة الغواص) ، ولابن السكيت (٢٤٤ هـ) اصلاح المنطق وللجواليقى (٥٣٩ هـ) المعرب ، ولابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ) تثقيف اللسان ...

فابن السكيت ينبه فى فصل على ماهو مفتوح الأول ، والعامة تضمه أو تكسره . وما يهمز وتركت العامة همزه ، مع أن ابن كثير يقرا : « قِسْمَةٌ ضِئْزَىَ » بالهمز . (٢) وحفصا يقرا (هُزُوًا) بالواو ، وغيره بالهمز ، وحمزة باسكان الزاى (٣) .

ويقول ثعلب فى (فصيحه) : « هذا اختيار فصيح الكلام مما يجرى فى كلام الناس وكتبهم . فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها فأخبرنا بصواب ذلك . ومنه مافيه لغتان وثلاث واكثر من ذلك ، فأخبرنا بأفصحهن ، ومنه مافيه لغتان كثرتا واستعملتا ، ولم تكن احداهما اكثر من الأخرى ، فأخبرنا بها » (٤) .

وهى محاولة ذكى أريب ، علنا ننقبها من جديد ، ونستهدى بها .

وفى سنة ١٢٩٦ هـ راينا مؤلف صديق حسن خان العنوجى : « لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من العرب ، والدخيل والمولد

---

(١) غيث النفع ، هامش سراج القارىء ص ٢٢٠ .
(٢) سراج القارىء ص ٣٦٠ .
(٣) غيث النفع ص ٢٨٠ .
(٤) مقدمة فصيح ثعلب

والأغلاط » . وعسى أن تقوم المحاولات والأبحاث والكتابات المعاصرة ، لتصف العلاج ، وتوقف زحف الداء ، حفاظا على العربية . وتوحيدا لشعوبها .

والتطور الدلالى كالتطور الصوتى :

في انه تلقائى آلى جبرى شامل ، ويزحف ببطء على مدى الأجيال ، ولا يفلت منه فرد يعيش فى مجموعته ، ولا يستطيع أحد ايقافه وسريانه فى اللغة .

وظواهره تصيب المفردات ، كما تلحق بالقواعد ونظم الجملة ، وتؤثر فى الأساليب .

وقدمنا ان اى لغه أو لهجة محتك بأخرى ، أو تغزوها تمطرها فى بادىء الأمر بسيل من المفردات ، يوهن متن المغزوة ويخلخله فيتداعى .

واحيانا تتطور المفردات بدون احتكاك خارجى ، فيخصص معناها أو يعم ، ويبقى على حقيقة وضعه أو يستأثر به نقل مجازى ، وقد يستعمل فى المعنيين ، الحقيقى والمجازى بمساواة او كثرة ، وقد يلمح الأصل الحقيقى وقد ينسى فيصبح المجازى كوضع ثان له . وقد تستعمل اللفظة فى معنى غريب وبعيد كل البعد عما وضعت له أولا :

فقد كان الدليل حادى القوم ومرشدهم الى الطريق ، وهو شاهد على صحة المسائل ، وهو الشاهد فى المسائل العلمية ، هو علامة تنصب على الطريق ، وهو جامع أسماء المشتركين فى الهاتف .. وكل استعمالاته قريبة المعنى من الأصل « وكلمة Boureau» فى الأصل صنف خاص من القماش ، واستعملت لغطاء المائدة ، ثم لنفس المائدة ، ثم لمائدة المكتب ، ثم للمكتب ، ثم لمقر العمل والادارة . فالعلاقة متسلسلة وقريبة ، ولكنها بعيدة بين الأول الأخير » (١) .

وعلامات الاعراب سقطت من أواخر الكلمات فى كل اللغات المغربة حتى نشأت عامياتها .

وتداعى المعانى لعلاقات الجوار والمشابهة جعل الدلالة لاتقف ثابتة : فالعقيقة هى الشعر على المولود ، ونقلت الى ما يذبح عند ازالة هذا

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ١٨٣

الشعر ، وكذلك الظعينة للمراة فى الهودج ، ثم اطلقت عليه . والمجد هو امتلاء بطن الدابة بالعلف والماء ، وانتقل بمعنى الامتلاء الى الكرم والشرف فسمت وارتقت ، وتصل العلاقة احيانا الى الضدية : فالسدفة للضوء والظلمة لانها بين بين فى الأصل . والجون : للأبيض والأسود ، اذ هو من جون البيت بمعنى طلاه باللون الأبيض للفرح ، وبالأسود فى الحزن . ويكون للعين ، وللخال ، وللسيف معانى كثيرة واستعمالات عديدة فى المشترك اللفظى .

وفى الأصل كان : الحج ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة .. لعموم القصد ، والدعاء ، والامساك : والطهارة ، والنماء .. لكنها قيدت فى الاستعمال الاسلامى : بقصد مكة فى زمن معين ، واعمال واقوال الصلاة والامساك نهارا فى رمضان ، واخراج جزء معين من المال يصرف لجهات معينة . وكانت كلمة (Arraiv) للوصول الى الشاطىء ، فعبت كل وصول بعدئذ . وكانت الحوة شية فى الخيل ، فأصبحت تطلق على كل اسود .

ولقداسة او تقدير يحتفظ المفرد بهيئته : فالقاف فى القاهرة والقرآن باقية ، ولم تبق فى البرتقال وقال .

وحين تنقرض العادة ينقرض اللفظ او يتحول فى الاستعمال : فجملة (رفع عقيرته) تستعمل اليوم لمن يرفع صوته فى الخطابة ، واصلها لاعرابى قطعت رجله ، فرفعها ونادى مستغيثا بقومه . وكذلك (بنى بأهلة) أصلها فى بناء الخباء عند العرب قديما لمن يعرس بزوجه ، ويبنى لها خباء ، وتطلق اليوم على من يدخل بأهله (١) .

وقد تبتذل اللفظة ، لأن المجتمع اشاع ابتذالها ، مثل (خول وعلق) والرسول ــ صلى الله عليه وسلم يقول : ــ موصيا بالخدم والعبيد : « اخوانكم خولكم (اى خدمكم) اطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم مالا يطيقون » . واللغة تقول على ما يمدح : هو علق نفيس . فانظر النقلة اليوم .

كما انقرضت نهائيا مفردات ، مثل : المرباع لربع الغنيمة ، والصرورة لمن يدع النكاح تبتلا ، والنوافج للابل التى تساق فى صداق المراة .

---

(١) فقه اللغة د . نجا ص ٤٧

وتتطور البيئة فتتغير الالفاظ فى مدلولاتها : فالقطار اليوم للآلة التى تسير بالبخار او غيره على قضبان حديدية وهو من قبل لعدد من الابل تسير متتابعة على نسق ووجهة واحدة . والريشة اصلها من الطائر واستعملت فى الكتابة ، وتطلق اليوم على قلم ذى سن من حديد .

وعدم وضوح الكلمة فى الذهن او السمع او لعاهة يجعلها فى استعمال غير ما وضعت له : فقد قال اعرابى للرسول الأكرم انه يخدع من التجار عند البيع ، فقال له النبى : قل عند البيع : (لاخلابة) اى لاخداع ، وكان الرجل الدغ فقال : (لاخيابة) ، وسمعها منه رواة الحديث فجمعته هكذا ، حتى تنبهوا لها فنبهوا عليها .

وكذلك مألوف الاستعمال المجازى خلفا عن سلف يثبت النقلة : « ففى الفرنسية (Saoui) للشبعان من الطعام أساسا . لكن كثر استخدامها فى وصف النشوان من الخمر مجازا وتهكما ، وتحرجا من استعمال الكلمة الصريحة فى هذا المعنى (Jvre) ، فظنت الأجيال التالية أن الأولى حقيقة وصريحة فى النشوان لكثرة استعمالها (١) .

وقد نقل الدكتور وافى عن (آثار حضارة الفراعنة) للأستاذ محرم كمال ، الفاظا مازالت تزاحم العربية فى فصحاها وعاميتها ، ففى مصر تستعمل هذه الالفاظ : (مم ، اومبو ، واوا ، تاتا ، كخ ، بعبع ، بمعنى : أونم (اى طعام) ، وامبمو (للشراب) ، وتوجع ، وامش ، وقذارة ، واسم لعفريت مصرى فى المصرية القديمة) . وفى لعبة الكرة الشراب : (سنو ، كحكو ، شكا .. بمعنى : يلعب ويتمنى ويضرب ، فى المصرية القديمة أيضا) .

كما تركت القبطية مفردات فى عامية العربية ، مازالت تستعمل ، مثل : (ترخ ، حمراة ، بيصارة ، ياما ، عنتيل ، باش ، لايص ، (يالا هيليليصا) ، جاى ، شبرامنت ، شبراخيت ، مينا ، ميت .. بمعنى تمطر ، تردد ، بيصورة لنوع من طعام الفول ، كثير ، قوى ، تبلل ، واقع فى الوحل ، (وقعنا فى الوحل) ، اغيثونى ، الحقل الغربى ، الحقل الشمالى ، محطة ، طريق) .

---

(١) علم اللغة د . وافى ص ٢٩١

والحضارة الحديثة تمطرنا كل يوم على الأقل بحوالى خمسين كلمة جديدة ، كتليفون ، وتليفزيون ، وراديو ، وكاسيت ، وسيوسيولوجيا ....

واحيانا يأتى الجديد ملفقا من لغات قديمة : مثل (بسكليت) اى دراجة ، اذ أن (بى) لاتينى يدل على التثنية ، و (سيكل) من أصل يونانى بمعنى الدائرة ، و (ات) علامة تصغير فى الفرنسية .

ويحاول بعض العلماء والأدباء احياء كلمات مهجورة ، أو بطريق النحت ، مثل تبغدد ، للمترف ، وجزارة الوظائف وسعودتها ، لتوظيف الجزائريين أو السعوديين محليا .

وللشيخ طاهر الجزائرى فى المجمع العلمى بدمشق (١) محاولة تتبعية فى احياء الفاظ لغوية ماتت : فالعطشان ما لايصبر صاحبه ، والذى لايصل الى الماء (لواب) ، وما يصاحبه صرير الأذنين فهو (تصرير الصماخ) ، ومع جفاف الريق (طلى) ، مع اضطراب وقلق ، فهو (القلعلع) .

أما الجوع ، فان صاحب تعب ، فهو (سغب) ، وبمصاحبة الغضب (ضرم) ، ومع البرد (خرص) ، ومع الضمور (خوى وطوى) . ومع الجزع والشكوى (قصف) . ومع اللين والتكسر يسمى (جخرا) . وان صاحبته انحناءة وقرقرة بطن ، فهو (اطيط) .. والطعام لرجل واحد يسمى (صحيفة) ، ولاثنين أو ثلاثة ، يسمى : (مئكلة) ، ولخمسة أنراد (صحفة) ، ولعشرة (قصعة) ، ولأكثر من ذلك (جفنة) ...

وسبق أن قدمنا اثر البيئة والحضارة والجنس فى التأثير والتأثر .. واثر العوامل الأدبية والثقافية ، وجهود الأفراد والجماعات والهيئات العلمية والحكومية فى الحفاظ على اللغة ، ومدى تأثرها بكل ذلك ، لفظا ، وجملة ، ونظاما وتركيبا ، واثر ذلك على اللغة بعامة تدهورا أو رقيا ، وفى ناحية أو عدة نواح .

على أن كثيرا مما ينزوى من مفردات العربية تأوى الى ركن ركين فى الأدب، تتحصن به ، ويطول عمرها هناك ، وتبقى مصونة فى الفصحى ، لغة القرآن والسنة : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (الحجر ٩) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمى بدمشق جـ ١ سنة ١٣٥٣ هـ

الفصل العاشر

المعاجم اللغوية

اذا كان للحضارة منجزات عديدة فتأتى ابجدية الكتابة فى مقدمتها ومن أهم مفاخرهـا ، وللفينيقيين قصب السبق فى هذا المجال . والنقافة بعمومها جهد يدل على الوعى .

وقد كانت صناعة المعجمات عبر التاريخ دليل يقظة ، وامارة احترام الأقوام للغتهم ، وحفظها من الضياع ، حتى لايفقد التاريخ حلقات حضارته اكثر مما فقد .

واذا تبارت الأمم اليوم فى استعمال الخازن (الاليكترونى) لتخزين المعلومات .. فقد كان لمعاجم الأقدمين السبق فى هذا الضرب ، على قدر الامكانات التى كانت متاحة لهم ايامذاك .

وكل امة تتطلع الى مستقبل صاعد بأجيال صاعدة .. تحترم لغتها لأنها من اهم مقوماتها .

وقد استقل ـ حديثا ـ علم المفردات (ليكسيكولوجيا Lexicology) عن علم الدلالة (السيمنتيك Semantique) ، فى ابحاث علم اللغة ، واصبح شعبة قائمة بنفسها .

كما عظمت بحوث أصول الكلمات (الايتيمولوجيا Etymology) واصبح من شعبة (الأونوماستيك) فى البحث عن الأعلام : اعلام الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والأمطار .. وشعبة (التوبونوماستيك) للبحث عن الأماكن واصولها ..

وللقواميس والمعاجم تاريخ قديم وحديث عنى به اللغويون وفاء للغة ، صانعة الحضارة والبلاغ ، فحفل العلم اللغوى بدراسات قيمة لذلك .

والمعجم : كتاب يضم بين دفتيه اكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة

بالشرح والشاهد وتفسير المعنى ، ومرتبة ترتيبا خاصا ، على حسب حروف الهجاء او الموضوع .

وهى اما معاجم الفاظ ، او مجنسة — كما يقول المحدثون — تعالج اللفظة وتبين اصلها واشتقاقها ومدلولها . واما معاجم معانى ، او موضوعات ، اى معاجم مبوبة ، لجمع الالفاظ التى تدور فى فلك واحد ، حول موضوع واحد ، وتجعل فى كتب او رسائل ، او فى ابواب من كتب .

ولم يكن العرب اول من ابتكر صناعة المعاجم ، ولكن سبقتهم امم — كانت فى الواقع — سابقة الوجود عليهم فى هذا العالم . ولكن منذ القرن الاول الهجرى ابتدا للعرب حس معجمى ، مالبث ان اصبح شامخا فى دنيا المعاجم :

يقول المؤرخون لحضارة بابل واشور : انهم اهتموا بلغتهم مبكرين ، قبل العرب بحوالى الف سنة ، وجمعوا الفاظها فى مسارد محفورة على قوالب الطين ، واودعوها مكتبة (آشور بانيبال) الكبيرة ، التى كانت بقصر (قويونجيك) فى نينوى (٦٦٨ — ٦٢٥ ق . م) .

واذا كان الاشوريون، هم اجدادنا العرب القدماء ، وقد ابتكروا المعاجم، ويحق لنا الفخار بذلك ، الا ان الصينيين قد عرفوا الصناعة المعجمية قبل الاشوريين . وان كان الاشوريون عرفوا الرمز الاشارى المقطعى (الالفابائية) ذا الاشارة الصوتية ، لكنهم مسبوقون ايضا فى هذا بالمعاجم الصينية :

فقد وعى التاريخ ان معجم (يوبيان (Yu Pien) ، الفه كويى وانج (Kuye Wang) وطبع سنة ٥٣٠ ق . م . ومعجم (شوفان Shwowan) ، الفه (هوشن Hu Shin) ، وطبع سنة ١٥٠ ق . م . ويعدان اساسا لمعاجم الصين واليابان .

كما ذكر (اثينوس Athenaeus) ، الذى عاش فى القرن الثانى ، ذكر لليونانيين خمسة وثلاثين معجما ، ضاع معظمها ، وقام علماء اوروبا بطبع ما عثر عليه ، وبعضه رسائل فى موضوعات ، وبعضها مرتب على حروف المعجم . واكثرها من وضع علماء جامعة الاسكندرية فى عهد البطالسة ، بعضها لشرح المفردات الغريبة بعامة ، او لما فى كتب افلاطون

الفلسفية ، أو الخطباء (الاتيكيين) العشرة ، أو لشرح مفردات كتب ابقراط الطبية .

واقدم هذه المعجمات اليونانية هو معجم (ابولونيس السكندرى Apollonus) قبل الميلاد فى عهد (أغسطس) ، وكان خاصا بشرح الغامض من الفاظ (هومير) .

وكذلك معجم (يوليوس بولكس Julious Pollux) ، وهو فى نظام ترتيبه على نسق كتاب المخصص لابن سيده ، اى على نظام معنوى موضوعى ، ومن أوسع معاجم الاغريق .

كما الف (هزيشيوس السكندرى) فى القرن الرابع الهجرى معجما للهجات . والف (أمونيوس السكندرى Ammonius) معجما فى (ما اتفق لفظه واختلف معناه . والف (اريون الطبيعى Arion of the bes) (من اهل طيبة فى مصر ٣٩٠ — ٤٦٠ م معجما فى الاشتقاق ، وقد طبع فى ليبزج سنة ١٨٢٠ م (١) .

* * *

أما العرب فقد اعجبوا بلغتهم كثيرا ، وباهوا وفخروا بها ، ومن ثم بالغوا فى الحفاظ عليها ، وحفظها من الضياع والانحراف ، فحظيت بالتدوين منذ العصر الأول الهجرى ، حين سجلت مساءلات نافع بين الأزرق وصاحبه : نجدة بن عويمر ، لعبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ .

وعناية العرب اللغوية للعربية كانت : اما ظاهرة متعصبة ، أو واعية لنفسها : فالألفبائية العربية وصلتهم مشتقة أصلا من أبجدية عربية قديمة ، هى الأبجدية الكنعانية : (أبجد هوز حطى) (٢) فاعتزوا بها ، وحافظوا عليها محافظتهم على انسابهم ، واخذوها عن الخلص ، ومن قلب الجزيرة العربية ، عن قيس وتميم واسد ، وبطون فصيحة معينة .. وارسلوا ابناءهم الى البادية ، ليرتضعوا الفصحى ، ويشبوا عليها ، وجلبوا لهم مشاهير

---

(٢) راجع : المعجم العربى د . حسين نصار ط ٢ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٥ ، والمعاجم اللغوية د . نجا ص ٤ — ٨

(٢) المزهر ٢١١/٢

العلماء الفصحاء الأدباء . والطريف : أن بعض الغيوريين منهم طلق زوجه وكانت لثغاء ، خوفا على أبنائها من لثغتها (١) .

ولم يمض وقت كثير الا وقد زخرت المكتبة العربية بكتب كثيرة وقيمة ، حفظت الفصحى من الضياع والخلط ، وكانت عندنا بواكير تامة النضج ، مع انها وعت غيضا من فيض ، ومع قلة الكتاب حين جاء نور الاسلام ولكنها نفحته التى دعت الى « **اقرا باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرا وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق : ١ — ٥) فى أوليات ما أوحت ، فوجدت قلوبا طيبة استجابت لها :

يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٢) .

ويقول البلاذرى : « دخل الاسلام وفى قريش ١٧ رجلا كلهم يكتب ، وفى المدينة ١١ رجلا » (٣) . فدون المسلمون القرآن الكريم سنة ١٢ هـ بعد موقعة اليمامة ، ودونوا الحديث الشريف فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) .

وتناول العلماء البررة اللغة فى الفاظها ومعانيها ، ووهبوا أنفسهم لخدمتها ، فلم يمض وقت كبير الا ولغتهم العربية غنية بالمراجع .

ولئن سبقهم غيرهم فى وضع المعاجم اللغوية ، فهم — بحق — سابقون فى ناحية الوفرة والدقة والكمال والاحاطة والنظام .

وكانوا بحاجة — ملحة — الى المعاجم ، فالعامة من عرب الجاهلية وما بعدها ، ربما عرفوا الكلام بمفرداته ولم يعرفوه بمعانيه ، كما يقول الأستاذ العقاد رحمه الله . ويذكر فى هذا الصدد طريفة ، ورد لها شاهد فى قصة شاعر اعرابى لامته امراته ، لانه لا يتغزل بها ولا يطرى محاسنها ، فقال يسترضيها :

تمت عبيدة الا من محاسنها
فالحسن منها بحيث الشمس والقمر
قل للذى عابها من عائب حنق
اقصر ، فراس التى قد عبت والحجر

---

(١) هو أبو رمادة ، كما فى البيان والتبيين ، للجاحظ ١ / ٥٧.
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٢
(٣) فتوح البلدان ص ٤٧١

ويعلق على ذلك بقوله : فهذا وصف على غاية الذم ، قد فهمته المراة الاعرابية على انه غاية الاطراء .

وليس كل الأعراب بهذا الجهل لمعنى الكلام المركب مع فهم مفرادته . ولكنهم ليسوا جميعا بمنزلة امرىء القيس وطرفة وزهير ، فى القدرة على تركيب الكلام وفهمه وتوجيهه الى معناه (١) .

وتوجهت همتهم الى التاليف المعجمية ، لشرح الالفاظ اولا ، قال ابن عباس : « اذا تعاجم شىء من القرآن ، فانظروا فى الشعر ، فان الشعر عربى » ، فعرفوا المرجع للمعجم ، حين دعت الحاجة الى السؤال — فى الاسلام — عن معانى بعض الكلمات ، والاصطلاحات الجديدة التى استغلق فهمها : فسأل عمر على المنبر عن معنى « ابا » . وفهم ابن عباس معنى (فاطر) ، من اعرابيين تحاكما اليه فى بئر ، فقال احدهما : بئرى انا فطرتها . وسأل عمر عن معنى (تخوف) فأجابه هذيلى بأنه (تنقص) فى لهجتهم .

وجمع اللغويون اللغة من البادية على نحو ميدانى فى القرن الثانى الهجرى ، فبرز جانب من مظاهر الجهد العلمى لهم فى عصر الحضارة الاسلامية ، والف سيبويه كتابه فى منتصف القرن الثانى ، فكان — ومازال — مفخرة للعرب والمسلمين .

يقول فيشر : « اذا استثنينا الصين ، لايوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر الى تنسيق مفرداتها حسب اصول وقواعد — غير العرب » (٢) .

وظهرت للعرب الرسائل اللغوية على الموضوعات مبكرة ، مثل : غريب القرآن ، لعبد الله بن عباس (٦٨) هـ ، وابان بن تغلب البكرى (١٤١) هـ ، وابو فيد السدوسى (١٧٤) هـ ، وغيرهم .

وغريب الحديث ، للنضر بن شميل (٢٠٣) هـ ، وقطرب (٢٠٦) هـ ، والشيبانى (٢٠٦) هـ ، ومعمر بن المثنى (٢١٠) هـ ، وابو عبيد (٢٢٤) (٣)

---

(١) مقدمة الصحاح ، لعبد الغفور عطار ص ٦

(٢) معجم فيشر ص ٣ .

(٣) مراتب النحويين واللغويين ص ٤٨ ، ومعجم الأدباء ١ / ١٠٨

وتتابعت الرسائل الموضوعية ، كصفات الخيل والابل والخلق ، والنحل واللبن .

وظهرت الرسائل اللغـوية : فى الابدال والأبنية ، ليونس بن حبيب (١٧٢ هـ) ، وابن مرار الشيبانى (٢٠٦ هـ) صاحب كتاب الجيم ، الذى جمع فيه الحواشى والنوادر ، ولهجات القبائل . والفراء (٢٠٧ هـ) . حتى ظهرت موسوعة (الغريب المصنف) لعبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) (١)

ولم تتأخر رسائل البلدان والمواضع ، فحددوا المواقع الجغرافية فى شعر الجاهليين ، والاسلاميين ، كمـا فى : جبال العرب ، لخلف الأحمـر (١٨٠ هـ) ، ومنـازل العرب ، لابن مطرف (١٨٦ هـ) . والبلـدان لابن هشام الكلبى (٢٠٤ هـ) ... وذكروا منازل العرب ، وانهـارهم ، واسواقهم ، وداراتهم ، وأسماء الرجال والنساء ، والارضين ، والانساب ، والقرى والأمصار ، والآثار ، والتواريخ .. حتى ظهر (المشترك وضعا ، والمفترق صقعا) لياقوت . ومعجم ما استعجم ، لعبد الله بن عبد العزيز البكرى الاندلسى (٤٨٧ هـ) (٢) فضبطت الأسماء والأعلام ، وأعجمت خوفا من الابهام .

وكثرت الرسائل وتنوعت ، وبلغ العرب فى ذلك الغاية ، كما يقول الجاحظ :

« فأما سكان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة ... واليونان يعرفون العلل ... وكذلك العرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا اطبـاء ولا حسابا ... فحين وجهوا قواهم الى قول الشعر ، وبلاغـة المنطق ، وتشقيق اللغة ، وتصاريف الكلام ، بلغوا فى ذلك الغاية » (٣) .

ودخل الناس فى دين الله من كل لون وجنس أفواجا ، ودخلت الجوارى بيوت المسلمين ، فتسرب اللحن ، وخيف على اللغة فى جميع مناحيها ، فكانت العناية بها واجبة ولزاما أكثر من ذى قبل ، وانتشر العلماء يجمعونها

---

(١) أنباه الرواه للقفطى ٢٢٧/١

(٢) راجع معجم الأدباء ١٩ / ٩١ ، والفهرست ص ٩٧ ، ٥٤

(٣) البيان ، للجاحظ ٣ / ٦٠

من البدية : جمع كلمات تتعلق بموضوع واحد ، أو بلا موضوع ولا ترتيب ، وتوج هذا الجهد الفائق ببروز المعاجم اللغوية المرتبة الشاملة والكاملة ، فى مختلف مدارسها .

معاجم الترتيب الصوتى ، لحصر الألفاظ العربية ، بدءا من الحلق ، وانتهاء بالشفتين .

ومعاجم الترتيب الهجائى العادى .

ومعاجم القافية : أى الترتيب على حروف القافية ، بجعل الحرف الأخير بابا ، والأول فصلا .

ومعاجم الدلالة الخاصة : ذات الترتيب الهجائى ، وفق الحروف الأصول ، أو الكلمة والأبنية ، أو وفق الموضوعات .

وكلها ثمرات للجهد العلمى السابق فى الرسائل :

فكانت مدرسة البصرة الفذ : الخليل بن أحمد الفراهيدى (١٠٠ــ١٧٠هـ)، أول رواد المعجمات الصوتية ، بذهنه الرياضى المبتكر ، فكان معجمه (العين) أساس هذه المدرسة ، فى محاولة لحصر لغة العرب واستيعابها ، ولم يكن مقلدا لغيره ، كما يزعم بعض المستشرقين كذابهم . وما وجد من معاجم مشابهة له سابقة ، كما فى السنسكريتية أو الاغريقية ، فالشبه فى بعض الأوجه ، ومن باب : توارد الخواطر ، وحسب الخليل قول ابن دريد فيه : « قد الف الخليل كتابه العين ، فأتعب من تصدى لغايته ، وعنى من سما الى نهايته ... الف كتابه مشاكلا لثقوب فهمه ، وذكاء فطنته ، وحدة أذهان أهل دهره » (١) .. فلا عبرة بما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية .

وتابع الخليل على نظامه أصحاب الموسوعات الأخرى ، مثل : الأزهرى (٢٨٢ ــ ٣٧٠ هـ) فى « تهذيب اللغة » .

واسماعيل القالى البغدادى (٢٨٨ ــ ٣٥٦ هـ) ، فى كتابه : البارع ، والذى عنى به عناية كبيرة .

والصاحب بن عباد (٣٢٦ ــ ٣٨٥ هـ) فى معجمه : المحيط ، والذى يمتاز بالسعة وكثرة الألفاظ .

---

(١) مقدمة الجوهرة ، لابن دريد .

كما تبعه فى التقاليب ، لكن ليس على مخارج الحروف : أبو بكر محمد ابن الحسن بن دريد الأزدى ، (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) ، فى كتابه الكبير : « جمهرة اللغة » ، ويقال انه أملاه من حفظه .

كما كانت المدرسة الأبجدية العادية مبكرة فى التأليف :

اذ الف ابو عمرو الشيبانى (٩٤ — ٢٠٦ هـ) ، صاحب ديوان اللغة (كتاب الجيم ، أو الحروف ، أو اللغات) .

وتبعه : ابو المعالى محمد بن تميم البرمكى (٣٣٧ هـ) ، الذى رتب الصحاح على حروف المعجم ، واتبعه الزمخشرى (٥٣٨ هـ) فى أساس البلاغة ، على اساس : الحقيقة والمجاز .

وتبعهم : ابو الحسين احمد بن زكريا بن فارس الرازى (٣٩٥ هـ) ، فى معجمه : « مقاييس اللغة » ، والمعجم الذى لم يسبق اليه ، حين رد كل مادة من مواد اللغة الى اصولها المعنوية المشتركة ، وقصد بالمقاييس ماقصده اللغويون من الاشتقاق الكبير ، ورتبه على حروف المعجم ، فجاء عملا علميا منظما ، يدل على عقلية فذة .

وجاءت مدرسة القافية ، التى ابتدعها الجوهرى (٣٣٢ — ٣٩٨ هـ) ، وخطا اعظم خطوة بتأليف (الصحاح) ، فيسر الأمر ، وقرب اللغة من طالبيها .

ولكن الراى الذى اصبح مؤكدا الآن : أن أول من اخترع هذه الطريقة ، هو ابو بشر اليمان ، بن ابى اليمان (٢٨٤ هـ) . وسار على نهجه الفارابى وابن اخته الجوهرى (١) .

وتبعهما الفيروزآبادى فى : (القاموس المحيط) — ومعناه : البحر الأعظم ، وتقابل فى اليونانية : (Oceanoe) ، وفى اللاتينية (Oceanus) وتعنى : المحيط على نمط (الصحاح) . وشرحه الزبيدى فى (تاج العروس) فكان موسوعة .

وكذلك (لسان العرب) ، الذى يعد أول موسوعة عامة ، لابن منظور الافريقى المصرى (٧١١ هـ) ، وحشد فيه كثيرا من المعاجم السابقة .

---

(١) فى علم اللغة العام . د . عبد الصبور شاهين ص ٢١٥ .

اما المعاجم الدلالية أو الموضوعية ، فتعتبر مدارس ، او موسوعات ، قائمة برأسها :

ورائدها : ابو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) الذى الف رسائل عديدة : مثل : كتاب الخيل ، وكتاب خلق الانسان ، واللبن ، والعسل ، والنخيل ، والذباب ، والحشرات . . . ثم حشدها فى كتابه (الغريب) المصنف.

وتبعه على نفس المنهاج ابن سيده الأندلسي (٤٥٨ هـ) الضرير المعجز ، فى كتابه (المخصص) ، وتوسع فيه كثيرا .

وتبعهما الراغب الأصفهانى (٥٠٣ هـ) فى (مفردات القرآن) .

ورسائل ابى عبيد السابقة تشهد له ، بأنه لم يقلد (يوليوس بولكس) فى معجمه الموضوعى الذى الفه فى القرن الرابع ، كما يدعى البعض من المستشرقين ، وانما ابن سلام اصيل فيما الف وحشد فى (الغريب المصنف) أكثر من سبع عشرة الف مادة .

وكوقاية سريعة لصيانة اللغة العربية من الخلط والانحراف واللحن ، ظهرت كتب موضوعية تعالج هـذا الجانب ، الفتها فئة مخلصة للغتها ، غيورة على دينها ، فكان منها :

(لحن العامة) لابن قتيبة (٢٧٦) هـ . (واصلاح المنطق) لابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، و (جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) ، و (الألفاظ الكتابية) للهمذانى (٣٢٧ هـ) ، و (متخير الألفاظ) لابن فارس (٣٩٥ هـ) و (فقه اللغة) للثعالبى (٤٢٩ هـ) . و (درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى . و (المعرب) للجواليقى (٥٣٩ هـ) و (تثقيف اللسان) لابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ) ...

ولتقعيد القواعد العربية ، وبيان نهج العرب فى نظم كلامها ، جاء (الكتاب) لسيبويه ، وقامت مدرسة البصرة والكوفة على قدم وساق ، وقامت بينهما حرب علمية لم تخمد ، وقام على اثرهما المدرسة البغدادية ، والمدرسة المصرية ، والأندلسية .

* * *

وظهرت المعاجم المتعددة اللغة ، (كالعبرية والسريانية) ، و (السريانية والعربية) فى منتصف القرن الرابع ، لمؤلفه (بربهلول) ، ونشره

(دوفال) فى باريس ، فى مجلدين كبيرين . وكتاب (المصادر العربية الفارسية) للزوزنى (٤٨٦ هـ) ، (ومقدمة الاديب) للزمخشرى (٤٦٧ ــ ٥٣٨) هـ . و (منتهى الأرب ، فى لغة الترك والعجم والعرب) لأحمد بن محمد بن عربشاه (٨٥٤ هـ) . والف الأقباط رسائل اسموها (سلالم) باللغة القبطية والعربية . وممن صنف فيها : الأنبا ابو اسحاق بن العسال ، (السلم المقفى والذهب المصفى) . وكذلك الأنبا يؤنس اسقف سمنود ، وله : (سلم السمنودى) : وكلاهما كان فى القرن السابع الهجرى .

وكان خوف الأقليات ، واصحاب الديانات السابقة على لغتهم من الاندثار امام زحف العربية ، هو دافع تأليف هذه المعاجم وما يشاكلها .

* * *

« وفى عصر النهضة عظمت عناية المستشرقين بتأليف القواميس المزدوجة بين اللغات العديدة لهم وبين العربية ، لفهم كنوز الثقافة العربية ــ حين غنا اهلها زمنا طويلا ــ للانتفاع بها ، وفتح اسواق الشرق امام تجارتهم ، والتمهيد للاستعمار بعد ذلك :

فالف (رافلنج) معجما ضخما فى القرن السادس عشر . وتبعه (وليم بدول) فى (١٥٦١ ــ ١٦٣٢) فى عمل معجم من سبع مجلدات . والف (جوليوس ١٥٩٦ ــ ١٦٦٧) معجما عربيا لاتينيا ، استعان فيه بصحاح الجوهرى . ووضع (ادمند كاستل) معجا للغات السامية ، نشر عام ١٦٦٩ ، وطبع مرارا . ووضع (منينسكى) فى (فينا) معجما ضخما للغات التركية والفارسية والعربية ، مع ترجمة مفرداته الى اللاتينية والفرنسية والالمانية والبولونية ، وتم طبعة سنة ١٦٨٧ فى اربعة مجلدات ضخام ، واعيد طبعة ، سنة ١٧٨٠ م .

وتعددت المعاجم المزدوجة اللغات فى القرنين : الثامن والتاسع عشر .

وفى القرن العشرين : الف (بارانوف) الروسى ، معجما : روسيا عربيا .

والف (زلنكا التشيكى) معجمه التشيكى العربى ، وظهر فى القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

والف الدكتور محمود رشدى النقلى (القاموس الطبى) بالفرنسية والعربية ، وطبع فى باريس سنة ١٨٦٨ م » (١) .

وتعرب — منذ العصر الحديث وحتى الآن — المجامع اللغوية ، المصطلحات الأجنبية ، فى مختلف الفنون والعلوم ، وتنشرها فى رسائل ومجلات ونشرات ، ليعمل ويتعامل كل فى ميدانه باللغة العربية ، بعد أن تحررت البلاد العربية من ربقة الاستعمار .

ومن ذلك ما تقوم به — حتى الآن — (جامعة الدول العربية) فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وتصدر أبحاثها فى مجلة (اللسان العربى) ، وهى مجلة دورية للأبحاث اللغوية ، ونشاط الترجمة والتعريب ، ويصدرها مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى بالرباط ، بالمملكة المغربية.

ومما يريب : عناية المستشرقين حديثا باللهجات العامية ، والعناية بأطالسها وأبحاثها فى شمولية وتفصيل ، وتأليفهم فيها ، وحضهم أبناء البلاد العربية على عمل أطروحات فيها ، لنيل الدرجات العلمية ، تارة باسم : الأدب الشعبى — وكان يمكن أن يطور باللغة الفصحى — وتارة بالتأليف ودراسة اللهجات العامية ، وكما يضنع الفرنسيون فى شمال المغرب العربى باحياء اللغة (البربرية) ، ولهجات سوريا ولبنان ... وتبع ذلك انشاء كراسى لتدريسها فى الجامعات .. ثم متابعة ذلك والتوسع فيه بتخصيص منح كثيرة لهذه الدراسات اللغوية .

وحتى ارتفعت بعض الأصوات فى وقت ليس بالبعيد ، باتخاذ عاميات العربية لغة رسمية للتدريس والدولة والحديث والتأليف ... — هكذا دونما حياء ولا خجل — مع أن هذا يزيد من هموم العربية الفصحى ، ويزيد فى أدوائها ، ويمزق شمل الروابط والوشائج العربية والاسلامية . والفصحى هى وعاء مقدساتهم ، وجماع شملهم ، ورابطة ما بينهم .

وتبع ذلك البلاء ما نادى به بعضهم باتخاذ الحروف (اللاتينية) بديلا عن جمال الحروف العربية ، التى اتخذها الغرب فى وقت ما حلية وزينة لما يفخرون به .

---

(١) المعجم العربى . د . حسين نصار ص ٩٤ بتصرف .

والحمد الله الذى أخرس هذه الألسنة ، وأخمد هذه الفتن ، وأطفأ نارها .. ويحمدوا الله على خيبتهم ، ويشكروا من تصدى لهم وأبطل كيدهم ، وانتقذهم — كأدوات غريرة مسلوبة — من يد غيرهم .

* * *

والعربية أصبحت اليوم احدى اللغات الحية ، والعالمية الكبرى ، ولغة رسمية فى المحافل الدولية ، وهى موطن الفخار والاعتزاز لنا ، وقديما استوعبت حضارات ، وهضمت لغات فى يسر وسهولة ، وتتسع للعلوم والفنون والآداب ... فلابد من بذل الجهد لنصرة الفصحى ، لتعود لمجدها وعزها .

ولابد لنا من تذليل جامحها ، وتيسير أمرها ، والتدرج فى تأليف كتبها على أسس علمية مدروسة ، سلسلة متدرجة تواتمها السائغ والمقبول . وانشاء معاجم جديدة تلبى أشواق الروح ، وحاجة الأحياء والحياة ، وتطلعات المستقبل ، حتى لا تنفر أجيال المستقبل ، ولا تجفل براعم المدرسة ، ولا يجنح الأغرار والمفتونون .

وان نظرة على اى معجم أجنبى اليوم ، ليرينا أن الطريق الى الاصلاح سهل وميسور ، برغم أنه صعب وطويل .

ولله در جهود فردية تذكر فتشكر :

فقد وضع الشيخ محمد النجارى المصرى ، المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ معجما ، مستقى من اللسان والقاموس ، ورتبه على الأبجدية العادية ، كترتيب البرمكى ، أى على أوائل الحروف ، ولم يراع الاشتقاق والتجريد : فهو يذكر الكلمة فى بابها بالحرف الأول فيها ، غير ناظر الى أصالة حروف الكلمة : فهو يذكر كتب ، فى حرف الكاف ، ومكتب فى حرف الميم ، واستكتب ، فى حرف الألف . وتلك طريقة سبق اليها (فلوجل) الألمانى ، وأظننا اليوم بحاجة ماسة وأكيدة اليها ، حتى تؤدى العربية رسالتها فى كل نواحى الحياة على خير وجه .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

اهم مراجع الكتاب :

١ ــ الاتقان ، فى علوم القرآن : لجلال الدين السيوطى ، ط ثالثة ــ القاهرة ١٣٧٠ هـ

٢ ــ الاحكام فى اصول الاحكام : للامدى : ط صبيح ــ القاهرة ١٣٨٧ هـ

٣ ــ احكام القرآن : للجصاص ، ط اولى . دار الكتاب ــ بيروت ١٣٣٥ هـ

٤ ــ اسرار البلاغة : للامام عبد القاهر الجرجانى ط الاستقامة ــ القاهرة

٥ ــ جمهرة اللغة : لابن دريد الازدى ، ط حيدر آباد ، الهند ١٣٤٤ هـ

٦ ــ الخصائص : لأبى الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق الشيخ النجار ط دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ

٧ ــ الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : لابن فارس ، نشر السلفية بمصر ١٣٢٨ هـ

٨ ــ الكتاب : لسيبويه ، ابى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، ط بولاق القاهرة ١٣١٦

٩ ــ المخصص فى اللغة : لابن سيده الاندلسى ، ط بولاق ١٣١٦ هـ

١٠ ــ المزهر فى علوم اللغة وانواعها : لجلال الدين السيوطى ، تحقيق جاد المولى ، ط الحلبى ١٣٧٨ هـ

١١ ــ الأب : انستاس الكرملى ، وآراؤه اللغوية : د . ابراهيم السمرائى ط المعرفة بمصر سنة ١٩٦٩ م

١٢ ــ اسس علم اللغة العام : ماريوباى ــ ترجمة احمد مختار عمر .

١٣ ــ الأصوات اللغوية : د . ابراهيم انيس (الانجلو المصرية) ١٩٧٥ م

١٤ ــ اضواء على علوم اللغة : د . نايف خرما ــ الكويت ١٩٧٨ م

١٥ ــ تاريخ آداب العرب : لمصطفى صادق الرافعى ، ط اولى ١٩١١

١٦ ــ تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجى زيدان ، مراجعة ضيف ، ط الهلال بمصر ١٩٥٧

١٧ ــ دراسات فى العربية وتاريخها : للشيخ الخضر حسين ، ط ثانية ، بيروت ١٣٨٠ هـ

١٨ ــ التجويد والأصوات : د . ابراهيم محمد نجا . ط السعادة بمصر

١٩ ــ دراسات فى فقه اللغة : للدكتور صبحى الصالح ، ط ثالثة ، بيروت ١٣٨٨ هـ
٢٠ ــ دلالة الالفاظ : د . ابراهيم انيس ، ط أولى ، القاهرة ١٩٥٨ م
٢١ ــ العربية ــ دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب : يوهان فك ، تعريب وتحقيق د . النجار ــ ط دار الكاتب العربى بمصر ١٣٧٠ هـ
٢٢ ــ علم اللغة : د . على عبد الواحد وافى ، ط خامسة ١٣٨١ هـ
٢٣ ــ فقه اللغة وسر العربية : لأبى منصور الثعالبى ، ط ثانية ١٣٧٣ هـ
٢٤ ــ فقه اللغة العربية : . ابراهيم محمد نجا ، ط السعادة بمصر
٢٥ ــ فقه اللغة : د . على عبد الواحد وافى ، ط خامسة ١٣٨١ هـ
٢٦ ــ فقه اللغة العربية : د . عبد الله العزازى ط ١٣٨٧ هـ
٢٧ ــ فقه اللغة : للشيخ أحمد الاسكندرى ، ط القاهرة ١٣٥٠ هـ
٢٨ ــ فقه اللغة المقارن : د . ابراهيم السمرائى ، ط بيروت ١٩٦٨ م
٢٩ ــ الفلسفة اللغوية : جورجى زيدان ، ط ثالثة ١٩٢٣ م
٣٠ ــ فى علم اللغة العام : د . عبد الصبور شاهين ط ثانية ١٣٩٧ هـ
٣١ ــ اللغة العربية عبر القرون : د . محمود حجازى (المكتبة الثقافية) عدد ١٩٧
٣٢ ــ اللغة : ج . فندريس ، تعريب الدواخلى والقصاص ، ط القاهرة ١٩٥٠ م
٣٣ ــ اللغة العربية فى عصور ما قبل الاسلام : أحمد حسين شرف الدين ، ط ١٩٧٥ م
٣٤ ــ اللغة والفكر : د . عثمان امين (معهد الدراسات العربية) بالقاهرة
٣٥ ــ علم اللغة العام (الأصوات) د . كمال بشر (دار المعارف) ١٩٧٣ م
٣٦ ــ مجلة الفيصل السعودية : عدد ذى الحجة ١٣٩٨ ، مقال الدكتور محمود صينى
٣٧ ــ منهج البحث فى الأدب واللغة : مانسون ومايبه ــ ترجمة د . محمد مندور ــ القاهرة .
٣٨ ــ نشأة اللغة عند الانسان والطفل : د . على عبد الواحد وافى ، ط ثانية القاهرة

٣٩ ــ نظريات فى اللغة : للأستاذ أنيس فريحه ــ ط دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت
٤٠ ــ نظريات فى اللغة : للأستاذ أنيس فريحه
٤١ ــ الوجيز فى فقه اللغة : للأستاذ محمد الانطاكى ــ ط الشهباء بحلبه ١٣٨٩ هـ
٤٢ ــ مقدمة لدرس لغة العرب : للشيخ عبد الله العلايلى ، القاهرة ١٩٣٦م
٤٣ ــ من اسرار العربية : د . ابراهيم أنيس ، ط أولى ، القاهرة ١٩٥٠ م
٤٤ ــ نظريات فى اللغة عند ابن حزم الاندلسى : للأستاذ سعيد الأفغانى بيروت ١٩٦٩ م
٤٥ ــ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها : للأب انستاس الكرملى ، ط بيروت ١٩٣٨
٤٦ ــ مذكرة فى علم الأصوات : ا . د . محمد كمال بشر

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
تقـــــديم	٥
الفصل الأول : تحديد المصطلحات أولا	١٣
مناهج البحث فى علم اللغة	٢٢
الفصل الثانى : موضوع علم اللغة	٢٥
من تاريخ علم اللغة العام	٣٨
الفصل الثالث : النظريات فى نشأة اللغة	٤٩
الفصل الرابع : كيفية أصدار الكلام	٦٩
الفصل الخامس : الفصائل اللغوية	٧٤
الفصل السادس : الأصوات اللغوية	١٠٠
الفصل السابع : حياة اللغة	١٢٦
الفصل الثامن : مع اللغة فى تطورها	١٣٥
الفصل التاسع : التطور الصوتى والدلالى فى اللغة	١٥٣
الفصل العاشر : المعاجم اللغوية	١٦٥
اهم مراجع الكتاب	١٧٧
محتويات الكتاب	١٨٠

رقم الايداع/٤٥٦٨/ ٨٨

الترقيم الدولى ١- ١٤٢- ٣٠٧- ٩٧٧